لراغب اصفهانی در علم الاخلاق

آیا صوفیه

٢٨٩٨

N. S.

در علم اخلاق

٢٦٩٨

الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

قد وقف هذه النسخة الجليلة سلطاننا الاعظم والخاقان المعظم مالك البرين
والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان ابن السلطان السلطان الغازي
محمود خان وقفا صحيحا شرعيا لمن طالع واستبصر واستفاد
واستسعد جعل الله ملكه الابد حرره الفقير احمد شيخ زاده
المفتش باوقاف الحرمين الشريفين
غفر لهما

وقف ...

كتاب الذريعة الى
مكارم الشريعة
في التصوف
٢١

١

بسم الله الرحمن الرحيم

نسال الله بجوده الذى هو سبب الوجود ان يهدينا الى الاقبال عليه ويميل بنا
الى الاصغاء اليه ويدلنا على حسن معاملته والقوة على النفاذ على طاعته
وان يجعلنا من جملة من ضمن ان يحرسهم من غائلة الشيطان حيث قال ان عبادى
ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين وجعلهم الشيطان مستثنين
حيث قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال
ابو القسم الراغب كنت قد اشرت فيما امليته من كتاب تحقيق البيان فى تاويل
القرآن الى الفرق بين احكام الشريعة ومكارمها وان المكارم المطلقة هى اسم
لما لا يتحاشى من وصف البارى تعالى باكثرها نحو الحكمة والجود والحلم والعفو وان كان
وصفه تعالى بذلك على حد اشرف مما يوصف به البشر وان الاحكام بخلاف ذلك
والعبادات وانه باكتساب المكرمة يستحق الانسان ان يوصف بكونه خليفة الله
تعالى المعنى بقوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة وبقوله تعالى ويستخلفكم فى الارض
فينظر كيف تعملون وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات
ليبلوكم فيما اتيكم واشرت ان خلافة الله تعالى لا تصح الا بطهارة النفس كما ان
اشرف العبادات لا تصح الا بطهارة الجسم وقد استخرت الله الان وعملت
فى ذلك كتابا يكون ذريعة الى مكارم الشريعة وبينت كيف يصل الانسان
الى منازل العبودية التى جعلها الله شرفا للانبياء وكيف يترقى عنها اذا اصلحها
الى منزلة الخلافة التى جعلها الله شرفا للشهداء والصديقين فبالجمع بين
احكام الشرع ومكارمه علما وابرازهما عملا يكتسب العلى ويتم التقوى ويتبلغ
الى جنة المأوى ورغبنى ايها الاخ الفاضل وفقك الله لرشدك واعاذك
من شر نفسك فى تصنيفه ما رايت من تشوقك بان تزين ما ولاه الله من حسن

خلقك وخلقك بما يتولاه من تحسين ادبك واكمال مروتك فما اجدر ذوا كل القبيح
ان يحصل وراءه الدار الصحيح شعر حتى تصادف اثمارا بطيب معا حملا ونورا
وطاب العود والورق فما اقبح بالمرء ان يكون حسن جسمه باعتبار قبح نفسه كمقبرة
بوم وصومعة يحرسها ذئب كما قال حكيم لجاهل صبيح اما البيت فحسن
واما ساكنه فردى وان يكون باعتبار كثرة ماله وحسن الاته نورا عليه جل
فقد سمى بعض الحكماء الاغنياء الاغبياء تيوسا صوفها درر وحمرا جلالها حبر
ودخل حكيم على رجل فراى دارا مشيدة وفرشا مبسوطة وراى صاحبها خلوا
من الفضيلة فبزق فى وجهه فقال له ما هذا السفه ايها الحكيم فقال بل هذا
حكمة ان البصاق ليرمى به الى اخس مكان فى الدار ولم ار فى دارك اخس منك فنبهه
بذلك على دناءة الجهل وان قبحه لا يزول بادخار القنيات فكن ايها الاخ عالما
وبعلمك عاملا تكن من اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون واحذر الشيطان
ان يستفزك ويخوفك باعراض الدنيا وزخارفها فيجعلك من اوليائه ويخوفك
بوساوسه كما قال تعالى انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه واعلم انه قبيح بذى
العقل ان يكون بهيمة وقد امكنه ان يكون انسانا وقد امكنه ان يكون ملكا وان
يرضى بقنية معارة وحياة مستردة وله ان يتخذ قنية مخلدة وحياة مؤبدة
شعر فلم ار فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام واياك
ان تعرف بقاء العلماء الاغنياء فاعتبر ما قال امير المؤمنين على رضى الله عنه مات
خزان الاموال وهم احياء والعلماء باقون ما بقى الدهر واعيانهم مفقودة
واثارهم فى القلوب موجودة واياك ان تشاهدهم فى الجنة يتنعمون فاستفد
من حال حارثة حيث قال للنبى عليه السلام اصبحت مؤمنا حقا فقال عليه السلام لكل حق
حقيقة فما حقيقة ايمانك فقال فى جملة جوابه وكانى انظر الى اهل الجنة يتزاورون

فيها فضلته فيها وقال الذى عرفت فالزم ولا يخدعنك عن طلب ذلك وادراكه الذين يصدون
عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالاخرة هم كافرون فقد وصفهم الله تعالى بالصمم
والعمى اذ قال ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ثم ذمهم بقوله اولئك الذين
خسروا انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ثم فرق بينهم وبين من ضادهم
فقال مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون فاخبر
تعالى انهم لا يسمعون ولا يبصرون لفقدان سمع القلب وبصيرته اللذين بهما ينال
حقايق المسموعات والمبصرات ذكر الفصول والابواب الفصل الاول
في احوال الانسان وقواه وفضيلته واخلاقه مثل اهل الدنيا وما رشحوا له ماهية
الانسان وكيفية تركيبه في قوى الانسان تعاون القوى الروحانية وكيفية
ادراكها بيان فضيلة الانسان على ساير الحيوان بيان ما به يفضل الانسان
كون منزلة الانسان بين البهيمة والملك ما لاجله اوجد الانسان السياسة التي
يستحق بها خلافة الله الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الارض
كون طهارة النفس شرطا في صحة خلافة الله وكمال عبادته فيما يفزع اليه في
طهارة النفس بيان منازعة الهوى والعقل الفرق بين ما يسومه الهوى وما يسومه
العقل في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة العقل والهوى حصول الخلق المحمود بطهارة
النفس الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة والهوى امكان تغيير الخلق
صعوبة اصلاح القوة الشهوية وما في هذه القوة من المنفعة والمضرة ازدياد
الانسان في الفضايل والرذايل بتعاطيها الفرق بين ما يحمد ويذم من التخلق سبب
اختلاف الناس في اخلاقهم وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة انواع نعم الله
الموهوبة والمكتسبة حاجة بعض هذه الفضايل الى بعض الفضايل المطيفة
بالانسان الفضايل الجسمانية ما يتولد من الفضايل النفسية الفضايل التوفيقية

في تلازم الفضايل بعضها بعضا البواعث على فعل الخير وتحري الفضايل المانع
من تحري الفضايل الارتقاء في درجات الفضايل والانحدار عنها الى اقصى الرذايل
تهذيب الذين ترددوا في الرذايل حتى فسدت اخلاقهم اصناف الناس
الفصل الثاني في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها فضيلة
العقل انواع العقل المكتسب من العقل الدنيوي والاخروي منازل العقل واختلاف
اساميها بحسبها جلالة العقل وشرف العلم الفرق بين العلم والعقل وبين العلم
والمعرفة والدراية والحكمة توابع العقل ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية والمكتسبة
وغاية ما يبلغه الانسان من ذلك وجوب بعثة الانبياء عليهم السلام وقلة الاستغناء
عنهم ما يعرف به صحة النبوة كون الرسل والعقل هاديين للخلق الى الحق تعذر
ادراك العلوم النبوية على من لم يتدرب في العلوم العقلية الايمان والاسلام و
التقوى والبر في الايمان في معنى قول النبي عم الايمان بضع وسبعون بابا في انواع
الجهل كون العلم مركوزا في نفوس الناس حصر انواع المعلومات ما يعرف به
فضيلة العلوم استحسان معرفة انواع العلوم معاداة بعض الناس لبعض العلوم
الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه احوال الناس في استفادة
العلم وافادته ما يجب على المتعلم ان يتحراه مع العلم ما يجب على المعلم ان يتحراه مع
المتعلمين منه وجوب منع الجملة عن حقايق العلوم والاقتصار بهم على قدر افهامهم
وجوب ضبط المتصدين للعلم ومضرة اهمال ذلك ذكر من يصلح لوعظ العامة
الحال التي يجب ان يكون عليها الواعظ صعوبة المعيار الذي يعرف به حقايق
العلوم كراهية الجدال للعوام وذمه على كل حال ما يجب ان يعامل به الجدل المماحل
الوجوه التي من اجلها يقع الشبه والخلاف بيان اختلاف الناس في الاديان
والمذاهب النطق والصمت الصدق ومدحه والكذب وذمه ما يحسن ويقبح

من الصدق والكذب انواع الكذب والسبب الداعي اليه الذكر الحسن من المدح والثناء
والسكر الغيبة النميمة الكلام المستقبح المزاح والضحك الحلف الفصل
الثالث فيما يتعلق بالقوى الشهوية الحياء كبر الهمة الوفاء والغدر والمشاورة
النصح كتمان السر التواضع والكبر الفخر العجب انواع اللذات وتفاصيلها ما يحسن
تناوله من المطعم وما يقبح ما يحسن تعاطيه من المنكح وما يقبح ذكر العفة القناعة
والزهد الورع الفصل الرابع فيما يتعلق بالقوى الغضبية ما يتبع من القوى
الغضبية الحمية انواع الصبر ومدح الشجاعة اسماء انواع الفزع والفرق بين
ما يحمد منها وما يذم مداواة الغم وازالة الخوف احوال الناس في محبة الموت وكراهيته
والاحتيال لقلة المبالاة به السرور والفرح العذر والتوبة الحلم والعفو ثوران
الغضب وفضل كظمه الغيرة والجوار الغبطة والمنافسة والحسد الفصل
الخامس في العدالة والظلم والمحبة والبغض ذكر العدالة وفضيلتها انواع العدالة
وما يستحسن ذكره فيه ما يحسن ترك العدالة فيه ذكر الظلم الاسباب التي يحصل منه
الاضرار ذكر المكر والخديعة والكيد والحيلة ماهية المحبة وانواعها فضيلة المحبة
فضيلة الصداقة ذكر المحبة في الناس الحث على مصاحبة الاخيار ومجانبة الاشرار
فضيلة التفرد من الناس وبغية العداوة الفصل السادس فيما يتعلق
بالصناعات والمكاسب والانفاق الجود والبخل حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر
تسخير الله همم الناس للصناعات المختلفة وعناية كل احد بما يتحراه كون الفقر
وخوفه سبب نظام امر الناس مناسبة الابدان للصناعات وجوب التكسب
مدح السعي وذم الكسل تقاسيم الصناعات وفضيلة بعضها على بعض ان اصول
الصناعات مأخوذة عن وحي او الهام في بيان الناض المعامل وبيان حكم الله
فيه مدح المال وذمه ذكر المال والادب في اقتنائه والوجوه التي منها يحصل

سبب اخفاق العالم وانجاح الجاهل تحقيق كون المال في ايدي الناس تفاوت احوال
المتناولين للاعراض الدنيوية في بيان ما ورد من الآيات المتفاوتة الظاهرة
في شأن الدنيا احوال الناس في مراعاة امور الدنيا والآخرة حال من يجوز
الاستكثار من اعراض الدنيا ومن لا يجوز له ذلك ما ينال ارباب الدنيا من
العقوبات الدنيوية ذكر الانفاق الممدوح والانفاق المذموم حقيقة السخاء
والجود والسماح فضيلة الجود وذم البخل انواع الجود والمجود به الفصل
السابع في ذكر الافعال انواع الافعال الفرق بين الفعل والعمل والصنع انواع
الصناعات الافعال الارادية ما يستحق به من الافعال اللوم وما لا يستحق به ذلك
الاسباب التي يمكن نسبة الفعل اليها فهذا مائة وستة واربعون بابا الفصل
الاول في احوال الانسان وقواه وفضيلته مثل اهل الدنيا وما رشحوا له الآن
في هذه الدار كما قال امير المؤمنين علي رضه الناس سفر والدنيا دار ممر لا دار
مقر وبطن امه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته
وسنوه منازله وشهوره فراسخه واسابيعه ميادينه وايامه امياله وانفاسه
خطاه يسار به سير السفينة براكبها كما قال شعر رايت اخا الدنيا وان كان خافضا
اخا سفر يسرى به وهو لا يدري وقد دعى الى دار السلام كما قال لهم دار السلام
عند ربهم وقوله والله يدعو الى دار السلام ويوجه به الى اشرف الزهرات
واللذات جنات تجري من تحتها الانهار بل جنة عرضها السموات والارض
اعدت للمتقين لكن لما كان الطريق اليها مظلة ومظلمة قد استولى عليها
اشرار ظلمة جعل الله لنا من العقل الذي ركبه فينا وكتبه التي انزلها علينا نورا
وهاديا ومن عباداته التي كتبها علينا وامرنا بها حصنا واقيا فقال في وصف
نوره الله نور السموات والارض مثل نوره الآية فجعل المصباح مثلا للعقل

والمشكوة مثلا لصدر المؤمن والزجاجة لقلبه والشجرة المباركة وهي الزيتونة للدين
وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبيها انها مصونة عن التفريط والافراط كما قال تعالى
ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم والزيت للقرآن وبيّن ان القرآن يمد العقل
مد الزيت المصباح وانه يكفي لوضوحه وان لم يماسه ضياء العقل وقال نور
على نور اي نور القرآن ونور العقل وبيّن انه خص بذلك من يشاء وقال في
في وصف ما جعل لنا من الحصن ان عبادي ليس لك عليهم سلطان اي المتحصن
بعبادتي فمن لم يتم برعاية نوره وحماية حصنه عمي في دجاه فيمكن من استغواه
عدوه كما قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم
ليصدونهم الآية فمن لم يتزود من دنياه زاده كما امر الله تعالى بقوله وتزودوا
فان خير الزاد التقوى وحانت رحلته فيسترجع منه ما اعير من جده
وذات يده فيتحسر حين لا تغنيه تحسره ويقول يا ليتنا نرد ولا نكذب الآية
ويقول هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا الآية يوم لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت
من قبل الآية فان الانسان من وقت في دنياه حارث وعمله حرثه ودنياه
محرثه ووقت الموت وقت حصاده والآخرة بيدره ولا يحصد الا ما زرعه ولا
يكيل الا ما حصده ولهذا قال تعالى من كان يريد حرث الدنيا الآية وكما ان للبيدر
مكاييل وموازين واعوانا وحفاظا وشاهدين كذلك في الآخرة مثل ذلك
كما في قوله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة وقال تعالى وان عليكم لحافظين
كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقال تعالى وجيء بالنبيين والشهداء الآية
فكما ان في البيدر تذرية وتمييزا بين النقاوة والحطام كذلك في الآخرة تمييز
بين الحسنى والآثام كما قال الله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب الآية وقال تعالى
في اعمال الكفار مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح الآية

وقال وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا فمن عمل للآخرة بورك في كيله
ووزنه وجعل له منه زاد الابد كما قال تعالى ومن اراد الآخرة وسعى لها الآية ومن
عمل للدنيا خاب سعيه وبطل عمله كما قال من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها
الآية واعمال الدنيا كشجر الخلاف بل كالدفلى والحنظل في الربيع يرى غض الاوراق
حتى اذا جاء حين الحصاد لم ينل طائلا واذا احضر مجتناه البيدر لم يغن نائلا
ومثل اعمال الآخرة كشجر الكرم والنخل المستقبح المنظر في الشتاء واذا حان
وقت القطاف والاجتناء افاد كل زادا ولا ذخرت منه عزة وعتادا والى
نحوهما اشار بقوله تعالى ضرب الله مثلا كلمة طيبة الى قوله ما لها من قرار ولما
كانت زهرات الدنيا رائعة الظاهر خبيثة الباطن نهى عن الاغترار بها
فقال ولا تمدن عينيك الى ما متعنا الآية **ماهية الانسان** وكيفية تركيب الانسان
مركب من جسم مدرك بالبصر ونفس مدركة بالبصيرة واليهما اشار بقوله تعالى
اني خالق بشرا فاذا سويته الى قوله ساجدين فالاشارة بالروح الى
النفس واضاف الروح الى النفس واضافه تعالى الروح اليه تشريف له وعنى بها
النفس المذكورة في قوله تعالى اخرجوا انفسكم ووجود النفس في الانسان لا يحتاج
الى ان يدل عليه لوضوح امره بل ينبه الجاهل لها والغافل عنها بانها هي التي
بحصولها في الجسم تحصل الحيوة والحركة والحس والعلم والراي والتمييز ويكون الجسم
متصرفا بها وصاهلا ومستحسنا ومستقبحا ومحببا وبفقدها يعدم هذه الاشياء
فتصير خفيفة تحتاج الى غذاء تحمله وهي محل الاعراض الروحانية كما الجسم في كونه
محلا للاعراض الجسمانية وقد حث الله على تدبير النفس والتفكر فيها وجعل
معرفتها مقرونة بمعرفته في قوله تعالى وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم
افلا تبصرون وقال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم الآية وكان يقال

في الامم السالفة من انكر البارى رحم ومن انكر النفس رحم لكونه جاهلا وقيل كان في الكتب
المنزله اعرف يا انسان نفسك تعرف ربك وقال النبي عم اعرفكم بنفسه اعرفكم بربه
بل قد قال تع ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانسيهم انفسهم تنبيها انهم لما نسوا الله
دل نسيانهم اياه على نسيانهم لها وقال الحكماء قد ركب الله تع الانسان تركيبا محذوا
معمولا على هيئة العالم واوجد فيه شبه كل موجود في العالم حتى قيل الانسان هو
عالم صغير ومختصر للعالم الكبير وذلك ليدل به على معرفة العالم ليتوصل بهما الى معرفة
صانعهما فغاية معرفة الانسان لبارئه تع ان يعرف العالم فيعلم انه موجد وان له
موجدا ليس مثله فقوى الانسان قد جعل الله للانسان خمس قوى يدل على وجوده
فيه ما نظهر من تاثيراتها قوة الغذاء وبها يظهر النشو والتربية والولاده ونحوه
وقوة الحس وبها الاحساس واللذة والالم وقوة التخيل وبها يظهر تصور اعيان
الاشياء بعد غيبوبتها عن الحس وقوة النزوع وبها يكون الطلب للموافق والهرب
من المخالف والرضاء والغضب والايثار والكراهية وقوة التفكر وبها يكون
النطق والعقل والعلم والحكمة والروية والتدبير والمهنة والخيال والتفكر والعقل
والحفظ والراى والمشورة فاما القوى المدركة فمنها خمس الحواس الحس والخيال والفكر
والعقل والحفظ فاما الحواس فلكل منها ادراك مخصوص فللمس عشر ادراكات الحرارة
والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل
والخفة وللذوق تسع الحلاوة والمرارة الملوحة الحموضة الحرافة العفوصة
التفه وللشم اثنان الطيب النتن وللسمع اثنان الصوت الخفيف الصوت
الثقيل وللبصر احد عشر النور الظلمة اللون الجسم وسطحه وشكله ووضعه
ورفعه وابعاده وحركاته وسكناته واعداده فادون هذه الادراكات اللمس
ثم الذوق ثم الشم فالنفس لا تكاد تستعين بها الا في ما يعود نفعها الى صلاح الجسم

وارفع الادراكات العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس الا ان العقل والفكر يدركان الاشياء
الروحانية فاما السمع والبصر فمتوسطان فانهما يخدمان النفس والجسم وخدمتهما
للنفس اكثر ويدركان الاشياء الجسمانية والتخيل متوسط بين العقل والفكر وبين السمع
والبصر فيما خذه من السمع والبصر ويسلمه الى العقل والفكر وذلك في حال اليقظة
ويا خذه من العقل والفكر ويسلمه الى السمع والبصر وذلك في حال النوم ولما كان
مبدا تاثير هذه القوى من الدماغ قيل مسكن الفكر وسط الدماغ ومسكن الخيال
مقدمه ومسكن الحفظ والذكر مؤخره ولما كان قوام الدماغ بل قوام الجسم كله
من القلب الذى منه منشاء الحرارة الغريزية صار في كلام الناس يعبر عن هذه
القوى مرة بالدماغ فيقال فلان دماغ اذا قوى منه هذه القوى المدركه وفلان
خالى الدماغ اذا ضعف فيه هذه القوى وتارة يعبر عنها بالقلب والثانى اكثر
وعلى ذلك قوله تع ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ولما كان ادراك الحقائق بهذه القوى
المدركه وكانت الفكرة خادمة للعقل والتخيل خادما للعقل والفكر تارة وللسمع
والبصر تارة خص الله تع بالذكر القلب وهو احد الطرفين والسمع والبصر وهو
الطرف الآخر ولذلك عظم الله تع المنة على الانسان باعطائه اياه هذه الثلاثة
وحمد من استعملها وذم من اهملها فقال وجعل لكم السمع والابصار والافئدة
وقال في ذم من لا ينتفع بها لهم قلوب لا يفقهون بها الآية وقال صم بكم الآية
اى لا يفهمون المعنى الا انهم لا يسمعون الاصوات ولا يبصرون الذوات وانما جعلهم
بكما من حيث انهم لا يوردون معنى مستنبطا بالفكر ومدركا بالعقل والعلم
ان السمع والبصر كالاخوين يخدم كل واحد منهما صاحبه في ادراكه فقد ينوب
السمع عن البصر في ابلاغ القلب ما ياخذه من اللفظ فيدرك في ساعة ما لا يدركه
البصر في برهة وينوب البصر عن السمع في ابلاغ القلب بمطالعة الكتب ما لا يدركه

السمع في مدة سيما اذا كان المخاطب ناقص العبارة او غير متثبت في الكلام او دق
المعنى وغمض **تعاون القوى** الروحانية وكيفيات ادراكها القوى الروحانية
متعاونة في ادراك رسوم المعلومات فان الخيال يتصور عن المحسوس فيقع فيه صورة
الروحانية فينتقش بها نقش الشمع بصورة الختم ثم ياخذه الفكر فيميز بعضها
عن بعض بنور العقل فيبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ثم تؤديه الى
القوة الحافظة فان اراد ابرازه قولا سلط عليه القوة الناطقة فيعبر عنه باللسان
وان اراد ابرازه فعلا سلط عليه العاملة فتوصله بالجوارح وقد ذكر بعض الحكماء
مثلا لهذه القوى يعرف منه تصورنا تدابيرها فقال ان القوى المفكرة مسكنها
وسط الدماغ بمنزلة الملك يسكن وسط المملكة والخيالية ومسكنها مقدم الدماغ
جارية مجرى خازنه والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه والعاملة جارية مجرى
كاتبه والحواس جارية مجرى الجواسيس واصحاب الاخبار الصادرة في النواحي فيما يرفعونه
من الاخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع الذي وكل به فيرفعه الى صاحب
البريد وصاحب البريد يسقط منه ما يراه حشوا ويرفع الباقي صافيا الى حضرة
الملك والملك ياخذه فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه الى خازنه الى وقت الحاجة
فيستعمل باخراجه قالوا فكما ان للملك افعالا يستعين فيها بغيره وافعالا يتفرد
فيها هو بنفسه والافعال التي يتولاها بنفسه اشرف مما يفوضها الى غيره كذلك
للقوة المفكرة افعال يفوضها الى غيرها وافعال تختص هي بها وهي الروية والفكر
والاعتبار والقياس والفراسة فبهذه الاشياء تدبير الامور واستخراج الغوامض
وتحصيل التجربة واستنباط المجهول بتوسط المعلوم والاطلاع على الاسرار ونحو
هذا المثل ما روى ان كعب الاحبار قال دخلت على ام المؤمنين عايشة رض فقلت الانسان
عيناه هاد واذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك

فاذا طاب القلب طاب جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلعم **بيان فضيلة الانسان**
على ساير الحيوان للانسان فضل على الحيوانات كلها في نفسه وجسمه اما فضله في نفسه
فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتمييز والراي فان البهائم وان كان بعضها
كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكر ولا روية ولا استنباط المجهول بالمعلوم ولا معرفة
علل الاشياء واسبابها وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية وانما يتعلم بعضها
بعض الصناعات المتخيلة واقواها في ذلك الفيل والقرد واما فضله في جسمه فباليد
العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما وجد
في هذا العالم وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم
وبقوله وصوركم فاحسن صوركم ولم يعن الصورة التخطيطية فقط بل عناها والصور
المعقولة وبتشريفه تعالى اياه بذلك قال ولقد كرمنا بني آدم الآية ومن زعم ان الانسان
خلق خلقة ناقصة عن الوحشيات من حيث لم يكف الملبس كما كفيته ولم يعط سلاحا
في ذاته كما اعطي كثير منها فنظره ناقص اذ قد اعطي الانسان بدل ذلك التمييز
الذي يمكنه ان يتخذ به كل ملبس وكل سلاح حسب ما يريده فيتناوله متى اراده
ويضعه متى احب ثم لو اعطي الانسان بعض الاسلحة التي اعطيته لم يمكنه ان يستعمل
غيره كالوحشيات وايضا فلو اعطي ذلك لكان من الجواز ان لا يعطى التمييز لانه
كان مستغنيا عنه فيبطل فائدته وفعل الله تعالى منزه عن ذلك ان قيل فكيف قال
خلق الانسان ضعيفا قيل ضعفه بالاضافة الى الملأ الاعلى لما فيه من الحاجات
البدنية التي قد كفيتها واعلم ان كل ما وجد في هذا العالم فانما اوجد لاجل الانسان
اما لانتفاعه به كالخيل والبغال والحمير او كالاغذية له كالبقر والغنم والحبوب والثمار
واما لانتفاع ما ينتفع به الانسان كالعشب والحشرات وما لا يعرف الانسان نفعه
فليس يخرج من كونه نافعا وقد بين الحكماء نفع جلها وما لا سبيل لبعضها او كلها

الى معرفة نفعه فليس جهلنا به قادحا في حكمة الله تعالى في ايجاده، ورب شي جهلنا
نفعه وقد سخر لمعرفة نفعه بعض الحيوان كالشجر الذي فيه العسل بالقوة وما سخر لمعرفته
واستخراجه الا النحل وما اليق من انكر حكمة الله بجهله ان ينشد وما علي اذا لم تفهم
البقر **بيان ما به** يفضل الانسان الانسان وان كان هو بكونه انسانا افضل
موجود فذلك بشرط ان يراعي ما به صار انسانا وهو العلم والعمل المحكم فبقدر وجود
ذلك المعنى فيه يفضل ولهذا قيل الناس ابناء ما يحسنون اي ما يعرفون ويعقلون
من العلوم والاعمال الحسنة يقال احسن فلان اذا علم واذا عمل حسنا واما من حيث
ما يتغذى وينسل فنبات ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث الصورة
المخطوطة فكصورة في جدار وانما فضيلته بالنطق وقواه ومقتضاه، ولهذا قيل
ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة فالانسان يضارع
الملك بقوة العلم والنطق والفهم ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح فمن
صرف همته كلها الى تربية الفكر بالعلم والعمل فحقيق ان يلحق بافق الملك فيسمى ملكا
ربانيا كما قال تعالى ان هذا الا ملك كريم ومن صرف همته كلها الى تربية القوة الشهوية
باتباع اللذات البدنية ياكل كما ياكل الانعام فخليق ان يلحق بافق البهائم فيصير
اما غمرا كثور او شرها كخنزير او ضرعا ككلب او حقودا كجمل او متكبرا كنمر او ذار
وغان كثعلب او يجمع ذلك كله فيصير كشيطان وعلى ذلك قوله تعالى وجعل منهم القردة
والخنازير وعبد الطاغوت ولكون كثير ممن صورته صورة الانسان وليس هو
في الحقيقة الا كبعض الحيوان قال الله تعالى في الذين لا يعقلون عن الله ان هم الا كالانعام
بل هم اضل سبيلا وقال ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون
فبين ان الذين كفروا ولم يستعملوا القوى التي جعلها الله لهم هم شر من الدواب
وقال تعالى ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق الاية اي مثل واعظ الكافرين

كمثل ناعق الاغنام تنبيها انهم فيما يقال لهم كالبهائم وبهذا النظر عبر الشاعر
عن بعض من ذمهم فقال **شعر** اللوم اكرم من وبر ووالده واللوم اكرم من وبر
وما ولدا ولم يقل ومن ولدا تنبيها انه لا يستحق ان يقال له من لكونه بهيمة وعلى هذا
قال المتنبي تخطى اذا جئت في استفهامها بمن ولما ذكرنا لم يكن بين بعض هذه
الانواع وبعضها من التفاوت ما بين انسان وانسان فانك قد ترى واحدا
كعشرة بل واحدا كمائة وعشرة اخرى هدرا دون واحد كما قيل لامراء في غناها
اعشرة هدرا احب الكرام واحدا كعشرة لا بل ترى واحدا كالف والف مثل
واحد كما قال **شعر** ولم ار امثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عد الف بواحد
بل قد ترى واحدا كعشرة آلاف وترى عشرة الوف دون واحد كما قال عليه السلام
وهو اصدق قيلا الناس كابل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة والابل في تعارفهم
اسم لمائة بعير فانه ابل هي عشرة الاف بل لو قيل يرى واحد كعالم او عالم
مثل واحد لجاز كما قال صم وزنت بامتي فرجحتهم وعلى هذا قال ابو نواس
شعر ليس من الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد **كون منزلة الانسان**
بين البهيمة والملك الانسان لما ركب تركيبا بين بهيمة وملك فشبهه البهيمة
بما فيه من الشهوات البدنية من المآكل والمشارب والمناكح وشبهه بالملك
بما فيه من القوى الروحانية من الحكمة والعدالة والجود فصار واسطا بين جوهرين
وضيع ورفيع ولهذا قال تعالى وهديناه النجدين والنجدان من وجه العقل والهوى
ومن وجه الآخرة والدنيا ومن وجه الايمان والكفر ومن وجه الهدى والضلال
ومن وجه موالاة الله وموالاة الشيطان المذكوران في قوله تعالى الله ولي
الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور الاية ومن وجه النور والظلمة
المذكوران في هذه الاية اي الفضيلة والنقيصة ومن وجه الحيوة والموت المذكوران

في قوله أو من كان ميتاً فأحييناه فمن وفقه الله الهدى وأعطاه قوة البلوغ إلى ذلك فراعى نفسه فزكاها فقد أفلح ومن حرمه التوفيق فأهمل نفسه ودساها فقد خاب وخسر كما قال قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها

ما لأجله أوجد الإنسان

الإنسان من حيث هو إنسان فكل واحد كالآخر فالأرض من تربة والناس من رجل وإنما شرفه بأن يوجد كاملاً في المعنى الذي أوجد له وبيان ذلك أن كل نوع أوجده الله في هذا العالم أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعته فإنه أوجد لفعل يختص به ولولاه لما أوجد وله غرض لأجله خص بما خص به كالبعير إنما خص بذلك ليحملنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس والفرس ليكون لنا جناحاً نطير به والمنشار والمنحت ليتصلح بهما الباب والسرير ونحوهما والباب ليحرز به البيت فالفعل المختص بالإنسان ثلاثة عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى واستعمركم فيها وذلك لتحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره وعبادته المذكورة في قوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وذلك هو الامتثال للباري عز وجل في أوامره ونواهيه وخلافته المذكورة في قوله تعالى ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون وغيرها من الآيات وذلك هو الاقتداء بالباري تعالى على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة ومكارم الشريعة هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس والحلم والإحسان والقصد منها أن يبلغ إلى جنة المأوى وجوار رب العزة تعالى وكل ما أوجد لفعل ما فشرفه بتمام وجود ذلك الفعل كالفرس للعدو والسيف للقطع والنصل المختص في القتال ومتى لم يوجد فيه المعنى الذي أوجد لأجله كان ناقصاً فإما أن يطرح طرحاً وإما أن يرد إلى منزلة النوع الذي هو دونه كالفرس إذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة أو أعد أكولة فمن لم يصلح لخلافة الله تعالى ولا العبادة

ولا الاستعمار الأرض فالبهيمة خير منه ولذلك قال في ذم الذين تركوا هذه الفضيلة إن هم إلا كالأنعام الآية

السياسة التي بها يستحق خلافة الله تعالى

قد تقدم أن الخلافة يستحق بالسياسة وذلك بتحري مكارم الشريعة والسياسة ضربان أحدهما سياسة الإنسان نفسه وبدنه وما يختص به والثاني سياسة غيره من ذويه وبلده ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه ولذا ذم الله تعالى من ترشح لسياسة غيره فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه فقال أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وقال تعالى لم تقولون ما لا تفعلون وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم أي تهذيبها قبل الترشح لتهذيب غيركم وبهذا النظر قيل تفقهوا قبل أن تسودوا تنبيهاً أنكم لا تصلحون للسيادة قبل معرفة الفقه والسياسة العامة ولأن السائس يجري من المسوس مجرى ذي الظل من الظل ومحال أن يعوج ذو الظل ويستقيم الظل ولاستحالة أن يهتدي المسوس مع كون السائس ضالاً قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان الآية فحكم أنه مع اتباع الشيطان أن يأمر إلا بالفحشاء والمنكر

الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الأرض

أما مكارم الشريعة فمبدؤها طهارة النفس بالتعلم واستعمال العفة والصبر والعدالة ونهايتها التخصيص بالحكمة والجود والحلم والإحسان وبالتعلم يتوصل إلى الحكمة وباستعمال العفة يتوصل إلى الجود وباستعمال الصبر يدرك الشجاعة والحلم وباستعمال العدل يصحح الأفعال ومن حصل له ذلك فقد ترشح للمكرمة المعنية بقوله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم ويصلح لخلافة الله تعالى فصار من الربانيين والشهداء والصديقين واعلم أن العبادة أعم من المكرمة فإن كل مكرمة عبادة وليس كل عبادة مكرمة ومن الفرق بينهما أن العبادات فرائض معلومة

وحدود مرسومة وتاركها يصير ظالما متعديا ولن يستكمل الانسان مكارم الشرع
ما لم يقم بوظائف العبادات فتحري العبادات من باب العدل وتحري
المكارم من باب الافضال والنفل ولا يقبل نفل من اهل الفرض والفضل
من ترك العدل ولا يصح تعاطي التفضل الا بعد العدل فان العدل فعل ما يجب
والنفل الزيادة على ما يجب وكيف يصح تصور الزيادة على شيء هو غير حاصل
في ذاته ولهذا قيل لا يستطيع الوصول من ضيع الاصول ومن شغله الفرض
عن النفل معذور ومن شغله الفضل عن الفرض مغرور وقد اشار تعالى بقوله
ان الله يامر بالعدل والاحسان الى الاحكام والمكارم بقوله ان الله يامر بالعدل والاحسان
وقوله تعالى يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير
لعلكم تفلحون ففعل الخير هو الزيادة على العبادة واما عمارة الارض
فالقيام بما فيه تزجية حياة الناس وصلاح معاشهم والانسان الواحد
من حيث هو لم يكلف امر معاشه بانفراده من ماكله وملبسه ومسكنه ولم
يكن له سبيل الى ثباته في الدنيا الا بما يسد جوعته ويستر عورته ويقيه من الحر
والبرد لم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له ولذلك قال تعالى ان لك ان لا تجوع
فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ومتى كان سعي العبد في ذلك على الوجه
الذي يجب وكما يجب يكون عبادة وجهادا في سبيل الله كما قال صلى الله عليه وسلم
من طلب الرزق على ما سن فهو في جهاد ومن لم يكن على ذلك فسعيه هباء منثور
كما قال تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الآية وكان فيما يتولاه خادما للناس
مسخرا بلا ارادة منه لخدمتهم حتى كانه من جملة البهائم التي سخرها الله لعباده
وامتن عليهم بها في قوله تعالى والخيل والبغال والحمير الآية **كون طهارة النفس**
شرطا في صحة خلافة الله تعالى في كمال عبادته لا يصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته

وعمارة ارضه الا من كان طاهر النفس قد ازيل رجسه ونجسه فللنفس نجاسة كما ان
للبدن نجاسة لكن نجاسة البدن يدرك بالبصر ونجاسة النفس لا يدرك الا بالبصيرة
واياها قصد تعالى بقوله انما المشركون نجس وبقوله والرجز فاهجر وبقوله كذلك
يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون وانما لم يصلح لخلافة الله تعالى الا من كان طاهر
النفس لان الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحري الافعال الالهية
ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر الفعل وكل اناء بالذي فيه يترشح ولهذا
قيل من طابت نفسه طاب عمله ومن خبثت نفسه خبث عمله فقال عم المؤمن
اطيب من عمله والكافر اخبث من عمله بل قد اشار تعالى الى ذلك بقوله الخبيثات
للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات
وبقوله والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا و
لاجل انه لا يطيب عمل من خبث نفسه قال الله تعالى اولئك الذين امتحن الله قلوبهم
للتقوى وقال بعضهم في قوله عم لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب انه اشار بالبيت الى
القلب واشار بالكلب الى الحرص والحسد وغيرهما وبين ان نور الله تعالى لا يدخله اذا
كان فيه ذلك واستدل بذلك بان الحرص يقال له الكلب فانه يقال فلان احرص
من الكلب ويقوي ذلك ما روي التقوى لا يسكن الا قلبا نظيفا والى الطهارتين
اشار بقوله تعالى وثيابك فطهر والرجز فاهجر وكنى بالثياب عن البدن قال
الشاعر ثياب بني عوف طهارى نقية واوجههم عند المشاهد غران
وقال تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا وقال
تعالى ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وقال ان الله يحب
التوابين ويحب المتطهرين وقد قال بعض العلماء انما سمي الحواريون بذلك لانهم
كانوا يطهرون نفوس الناس بافادتهم الدين والعلم من قولهم حورته اي بيضته

وما روي انهم قصارين فاشارة الى هذا المعنى وان كان من لم يتخصص بمعرفة الحقائق
تصور من هذا التفسير المهنة الموضوعة بين الناس **فيما يفزع اليه في طهارة النفس**
الذي يطهر به النفس حتى يترشح لخلافة الله عز وجل ويستحق بها ثوابه هو العلم
والعبادات الموظفة التي هو سبب الحيوة الدنيوية الاخروية كما ان الذي يطهر به
البدن هو الماء الذي هو سبب الحيوة الدنيوية ولذلك سماها الحيوة وسمى ما انزل
الله تعالى من كتابه الماء فقال استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم فسمى العلم
والعبادة حيوة من حيث ان النفس متى فقدتهما هلكت هلاك الابد كما قال في الماء
وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون وقال تعالى انزل من السماء ماء فسالت اودية
بقدرها قال ابن عباس رض عنى بالماء القرآن اذ كان به طهارة النفس وبالاودية القلوب
احتملته بحسب ما وسعته قال بعض العلماء في قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا
وقوله تعالى وينزل من السماء ماء ليطهركم به انه عنى به القرآن كقوله وننزل من القرآن ما هو
شفاء ورحمة للمؤمنين واجدر بصحة قوله فان الماء المنزل من السماء المختص
بالطهارة الذي لا يسد غيره من المياه مسده هو هذا الماء اعني كلام رب العزة
فاما المختص بطهارة البدن فقد يسد غيره مسده في الطهارة لان الذي ينعل ينبع
من الارض يعمل عمله والذي يلزم تطهيره من النفس هذه القوى الثلثة قوة الفكر
يتهذب بها حتى يحصل العلم والحكمة وقوة الشهوة يتعهدها حتى يحصل العفة والجود
وقوة الحمية باسلاسها حتى ينقاد العقل فيحصل الشجاعة والحلم ويتولد من اجتماع
ذلك العدالة فجميع الرذائل تنبعث من فساد هذه القوى اما من فساد الفكر
فيتولد منها الجربزة او البله واما من فساد القوة الشهوية فيتولد منها الشره
او جمود الشهوة واما من فساد الحمية فيتولد منه التهور او الجبن ومن حصول
هذه الاشياء او حصول بعضها يحصل اما الظلم واما الانظلام فجميع رؤس الفضائل

الخلقية اربعة وجميع الرذائل الخلقية ثمانية **بيان منازعة الهوى والعقل** اعلم
ان مثل نفس الانسان في بدنه كمثل وال في بلده وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعملة
والعقل له كمشير ناصح عالم والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة والحمية له كصاحب
شرطة والعبد الجالب للميرة خبيث ماكر يتمثل للوالي بصورة الناصح وفي نصحه دبيب
العقرب ويعارض الوزير في تدبيره ولا يغفل ساعة عن منازعته ومعارضته
وكما ان الوالي في مملكته متى استشار في تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث
وادب صاحب شرطته وجعله مؤتمرا للوزير وسلطه على هذا العبد واتباعه
حتى يكون هذا العبد مسوسا لا سائسا ومدبرا لا مدبرا استقام امر بلده
فكذلك النفس ايضا متى استعانت بالعقل في التدبير وادبت الحمية وسلطته
على الشهوة وقواها استتب امرها والا فسدت ولذا قد حذرنا الله تعالى غاية الحذر
من اتباع الهوى فقال ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله وقال في ذم من اتبعه
افرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وقال اخلد الى الارض واتبع
هواه فمثله كمثل الكلب وقال في مدح من عصاه واما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى وقال عم اعدى عدوك نفسك التي بين
جنبيك اشارة الى الهوى والعقل وان كان اشرف القوى وبه صار الانسان خليفة
الله في العالم فليس رأيه الا الاشارة الى الصواب كطبيب يشير الى المريض بما ترى
فيه برؤه فان قبل منه المريض والا سكت عنه ولذلك جعل له الحمية لتكون نائبة عنه
في المراجعة والممانعة ولذا لا يستبين فضيلة العقل لمن لا حمية له وبهذا النظر قيل
المهين من لا سفيه له وقال الشاعر تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي مربض
المستاسد الحامي وايضا مثل النفس في البدن مثل مجاهد بعث الى ثغر يراعي احواله
وعقله خليفة هو اليه ضم اليه ليسدده ويرشده ويشهد له وعليه فيما يفعله اذا عاد

الى حضرة الملك وبدنه بمنزلة فرس دفع اليه ليركبه وشهوته كسايس خبيث ضم اليه
فرسه ولا قدر لهذا السايس عند المولى والقرآن بمنزلة كتاب اتاه من مولاه وقد ضمن
كل ما يحتاج اليه عاجلا وآجلا كما وصفه تعالى بقوله وانزلنا عليك الكتاب تبيانا
لكل شيء وهدى ورحمة وقوله ما فرطنا في الكتاب من شيء والنبي رسول الله صلعم اتاه
بالكتاب ليبين له ما يشكل عليه مما يقرأه من الكتاب وقبيح ان ينسى هذا الوالي
مولاه ويهمل خليفته فلا يراجعه فيما يبرمه وينقضه ويصرف همته كلها الى تفقد فرسه
وسايسه ويقيم سايس فرسه مقام خليفة ربه ومن وجه آخر الانسان من حيث
ما جعله الله عالما صغيرا وجعل بدنه كمدينة والعقل كملك مدبر فيها وقواه
من الفكر والخيال والحواس كجنده واعوانه والاعضاء كرعيته والشهوة كعدو
منازع في مملكته ويسعى في اهلاك رعيته صار بدنه كرباط او ثغر ونفسه كمقيم فيه
مرابط فان جاهد عدوه فهزمه واسره وقهره على ما يجب كما يجب حمد اثره اذا عاد
الى حضرته كما ضمنه تعالى حيث قال فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين
درجة وكلا وعد الله الحسنى فدفاع الهوى اعظم جهاد كما قال صلعم وقد سئل اي الجهاد
افضل فقال جهادك هواك وان ضيع ثغره واهمل رعيته ذم اثره اذا عاد الله كما
قال ع م كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ان الله تعالى يقول للكافر يوم القيامة يا راعي
السوء اكلت اللحم وشربت اللبن ولم ترد الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم منك
وايضا مثل العقل مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان
الفارس حاذقا وفرسه مروضا وكلبه معلما فقمن بادراك حاجته من الصيد ومتى
كان اخرق وفرسه جموحا او حرونا وكلبه عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا
ولا كلبه يسترسل معه مطيعا فهو قمن بان يعطب فضلا عن ان يدرك ما طلب والانسان
مع هواه ثلثة احوال الاولى ان يغلبه الهوى فيملكه كما قال تعالى افرأيت من اتخذ الهه هواه

الثانية ان يغالبه فيقهره مرة ويقهره مرة واياه قصد بمدح المجاهدين وعناه النبي ع م
بقوله جاهدوا اهواءكم كما تجاهدون اعداءكم والثالثة ان يغلب هواه كالكثير من الانبياء
وبعض صفوة الاولياء وهذا المعنى قصد بقوله تعالى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس
عن الهوى وقصده النبي ع م بقوله ما من احد الا وله شيطان وان الله قد اعانني على
شيطاني حتى ملكته فان الشيطان يتسلط على الانسان بحسب وجود الهوى فيه الفرق
بين ما يسومه العقل وما يسومه الهوى من شان العقل ان يرى ويختار ابدا الافضل
والاصلح في العواقب وان كان على النفس في المبدا مؤنة ومشقة والهوى على الضد
من ذلك فانه يؤثر ما يدفع به المؤذي في الوقت وان كان يعقب مضرة من غير
نظر منه في العواقب كالصبي الرمد الذي يؤثر اكل الحلاوات واللعب في الشمس على
المليلج والحجامة ولهذا قال ع م حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات والقا
فالعقل يرى صاحبه ماله وعليه والهوى يريه ما عليه دون ماله ويعمي عليه ما يعقبه
من المكروه ولهذا قال ع م حبك الشيء يعمي ويصم ولذلك ينبغي للعاقل ان يتهم رايه
ابدا في الاشياء التي هي له لا عليه ويظن انه هوى لا عقل ويلزمه ان يستقصي النظر
فيه قبل امضاء العزيمة وحتى قيل اذا عرض لك امران فلم تدر ايهما اصوب فعليك
بما تكرهه لا بما تهواه فاكثر الخير في الكراهية قال الله تعالى وعسى ان تكرهوا شيئا
وهو خير لكم وقال وعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وايضا فان
ما يرى العقل يتقوى به اذا فزع فيه الى الله تعالى بالاستخارة وبسائر العقول
الصالحة باذا فزع اليها بالاستشارة وينشرح له الصدر اذا استغنى فيه بالعبادة
وما يشير به الهوى فبالضد من ذلك وايضا فالعقل يرى ما يرى بحجة
وعذر والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل وربما تشبه الهوى بالعقل فيتعلق
بشبهة مزخرفة ومعذرة مموهة كالعاشق اذا سئل عن عشقه والمتناول

لطعام لذي اذا سئل عن فعله قال بعض العلماء اذا مال العقل نحو فعل جميل والهوى
نحو فعل قبيح فتنازعا بحسب غرضيهما وتحاكما الى القوة المدبرة بادر نور الله تعالى
الى نصرة العقل ووساوس الشيطان الى نصرة الهوى كما قال الله تعالى الله ولي الذين
آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم
من النور الى الظلمات فمتى كانت القوة المدبرة من اولياء الشيطان وحزبه ومحبته
لم ير نور الحق فعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل فجنحت الى الهوى كما قال
تعالى افرايت من اتخذ الهه هواه الآية ومتى كانت من حزب الله واوليائه
اهتدت بنوره واستهانت بلذة العاجل وطلبت سعادة الآجل كما قال الله تعالى
واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ان الذين اتقوا اذا
مسهم الآية ومما نبه به على فساد الهوى قوله تعالى ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات
والارض ومن فيهن اي لو اعطي كل انسان ما يهواه مع ان كل واحد يهوى ان يكون
اغنى الناس واعلاهم منزلة وان ينال في الدنيا الخير الابدي بلا مزاولة ولا تعلم
انه لو اعطي ذلك لكان فيه فساد العالم باسره وقيل في قوله تعالى الم تر كيف ضرب الله
مثلا كلمة طيبة الآية انه ضرب الشجرة الطيبة مثلا للعقل والخبيثة مثلا للهوى
ففرع الطيبة النور والاسلام وفرع الخبيثة الكفر والضلال فان قيل ما الفرق
بين الشهوة والهوى قيل الشهوة ضربان محمودة ومذمومة فالمحمودة من فعل الله تعالى
وهي قوة حصلت في الانسان لينبعث بها النفس لنيل ما يظن ان فيه صلاح البدن
والمذمومة من فعل البشر وهي استجابة النفس لما فيه لذتها البدنية والهوى هو هذه
الشهوة الغالبة اذا استتبعت الفكرة وذلك ان الفكرة بين العقل والشهوة
والعقل فوقها والشهوة تحتها فمتى ارتفعت الفكرة ومالت نحو العقل صارت رفيعة
فولدت المحاسن واذا اتضعت ومالت نحو الهوى والشهوة فصارت وضيعة وولد

المقابح والنفس قد تزيد ما تريد بمشورة العقل تارة وبمشورة الهوى تارة ولهذا
قد يسمى الهوى ارادة **في ذكر الخاطر** الذي يعرض من جهة العقل والهوى اول ما يعرض من
ذلك السانح ثم الخاطر والى ذلك اشار النبي عم بقوله ان للشيطان لمة بابن آدم و
للملك لمة فاما لمة الملك فوعد بالخير وتصديق بالحق واما لمة الشيطان فايعاد بالشر
وتكذيب بالحق ثم قرا الشيطان يعدكم الفقر الآية ثم من بعدها الارادة ثم العزم
ثم العمل والسانح علة الخاطر والخاطر علة الارادة والارادة وهي الهمة علة العزم و
السانح والخاطر يعبر عنهما بالهاجس والواجس يتجافى عنهما ما لم يصر ارادة وعزما
فحق الانسان اذا خطر له خاطر ان يسبره عاجلا فان وجده خيرا رباه حتى يجعله
فعلا وان وجده شرا بادر الى قلعه وقمعه قبل ان يصير ارادة ويطهر قلبه منه تطهير
ارضه من خبيثات النبات وهذا المعنى اراد الحسن رض بقوله رحم الله عبدا وقف
عند همه فان كان لله مضى والا كف قال بعض الحكماء اذا تداركت الخطرة اضمحلت
والا صارت شهوة وان تداركت الشهوة تلاشت والا صارت طلبا وان تداركت
الطلب والا صار عملا وقال بعض الحكماء ان ولي الله سبحانه اذا اتته لمة الشيطان
انزعج لذلك وراى ببصيرته ظلمة ووجد روعة فاذا اتته لمة الملك انشرح صدره
واولياء الشيطان بخلافه قال الله تعالى واذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون
بالآخرة الآية **حصول الخلق** المحمود بطهارة النفس قد تقدم ان طهارة النفس باصلاح
القوى الثلث فاصلاح الفكرة بالتعلم حتى يميز بين الحق والباطل في الاعتقاد
وبين الصدق والكذب في المقال وبين القبيح والجميل في الفعال واصلاح الشهوة
بالعفة حتى تسلس للجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة واصلاح الحمية باسلاسها
حتى تحصل الحلم وهو كف النفس عن قضاء وطر الغضب وتحصل الشجاعة وهي كف
النفس عن الخوف وعن الحرص المذمومين وباصلاح القوى الثلث تحصل للنفس

النبي عم

العداله والاحسان وهذه جماع المكارم وطهارة النفس وحسن الخلق الممدوح بقوله
اكمل المومنين ايمانا احسنهم خلقا والطفهم باهله ويعني باللطافه بالاهل تهذيبهم
وتاديبهم المشار اليه بقوله تعالى يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا و
الممدوح ايضا بقوله عم احبكم الى محاسنكم اخلاقا الموطؤن اكنافا الذين يالفون
ويؤلفون وقيل جماع المكارم في قوله تعالى انما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم
يرتابوا الآيه وذلك انه بالايمان يحصل العلم والحكمة وذلك باصلاح العقل وبالمجاهده
بالاموال والانفس تحصل العفه والجود اللذان هما باعثان لاصلاح الشهوة و
الشجاعة والحلم اللذان هما باعثان لاصلاح الحمية وعلى ذلك قوله تعالى خذ العفو
وامر بالمعروف الآيه وقال النبي عم في تفسير ذلك هو ان تعفو عمن ظلمك وتعطي
من حرمك وتصل من قطعك فالعفو عمن ظلمك نهاية العلم والشجاعة واعطاء من
حرمك غاية الجود ووصل من قطعك نهاية الاحسان

الفرق بين الطبع والسجية

والخلق والعادة الطبع اصله من طبع السيف وهو اتخاذ الصورة المخصوصة
في الحديد وكذلك الطبيعة والضريبة اعتبارا بضرب الدراهم والنحيتة اعتبارا
بالنحت والنجار اعتبارا بنجر الخشب والغريزة لما غرز عليه وكل ذلك اسم
للقوة التي لا سبيل الى تغييرها والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريزة اعتبارا بالشامة
التي في اصل الخلق والسجية اسم لما يسجى عليه الانسان من قولهم عين ساجية
اي فاترة خلقه واكثر ما يستعمل ذلك كله فيما لا يمكن تغييره واما الخلق في الاصل
فهو كالخلق كقولهم الشرب والشرب والصرم والصرم لكن الخلق يقال في
القوى المدركة بالبصيرة والخلق يقال في الهيئات والاشكال والصور المدركة
بالبصر وجعل الخلق تارة للقوة الغريزية ولهذا قال عم فرغ الله من الخلق والخلق
والرزق والاجل وتارة يجعل اسما للحالة المكتسبة التي يصير بها الانسان خليقا

ان يفعل شيئا دون شيء لكن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه ولهذا خص كل حيوان بخلق
في اصل خلقته كالشجاعة في الاسد والجبن للارنب والمكر للثعلب ويجعل الخلق
تارة من التخلق اي المتلبسة وكانه اسم لما جرت عليه الانسان من العادة وقد روي
افضل الاعمال الخلق الحسن وروي ما اعطى الله احدا افضل من خلق حسن فجعل الخلق
مرة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر وجعل مرة اسما للفعل
الصادر عنه اسمه وعلى ذلك اسماء انواعها نحو العفه والعداله والشجاعة فان ذلك
يقال للهيئة والفعل جميعا وربما سمي الهيئة باسم والفعل الصادر عنها باسم كالسخاء
والجود فان السخاء اسم للهيئة التي عليها الانسان والجود اسم للفعل الصادر
عنها وان كان قد يسمى كل باسم الآخر واما العادة فاسم لتكرير الفعل او الانفعال
من عاد يعود وبها يكمل الخلق وليس للعادة فعل الا التسهيل لخروج ما هو بالقوة
في الانسان الى الفعل واما ان تجذب السجية الى خلاف ما خلقت له فمحال فالسجية
فعل الخالق والعادة فعل المخلوق ولا يبطل فعل المخلوق فعل الخالق ثم ربما تقوى
العادة قوة محكمة حتى تعد سجية وبهذا النظر قيل العادة طبيعة ثانية

امكان

تغيير الخلق اختلف الناس في الخلق فقال بعضهم هو من جنس الخلقة ولا يستطيع
احد تغييره عما جبل عليه ان خيرا وان شرا كما قيل وما هذه الاخلاق الا غرائز
فمنهن محمود ومنها مذمم ولن يستطيع الدهر تغيير خلقه لئيم ولا يستطيع
متكرم وتعلق هذا القايل ايضا بقول النبي عم من اتاه الله وجها حسنا
وخلقا حسنا فليشكر الله وما روي من قوله عم فرغ الله من الخلق والخلق
الخير ومحال ان يقدر المخلوق على تغيير فعل الخالق سبحانه وتعالى وقال بعضهم
يمكن ذلك واستدل عليه بما روي حسنوا اخلاقكم ولو لم يكن لما امر به وقال
ان الله تعالى خلق الاشياء على ضربين احدهما بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملا

كالسماء والارض والجنة والثاني خلق خلقه ما وجعل فيه قوة ورشح الانسان
لاكماله وتغيير حاله وان لم يرشحه لتغيير ذاته كالنواة التي جعل فيها قوة النخل
وسهل للانسان سبيله الى ان يجعله بعون الله نخلا وان يفسده افسادا فاذا الخلق
من الانسان يجري هذا المجرى في انه لا سبيل للانسان الى تغيير القوة التي هي
السجية وجعل له سبيلا الى اسلاسها ولهذا قال الله تعالى وقد خاب من دساها
ولو لم يكن كذلك لبطلت فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والامر والنهي
ولما جوز العقل ان يقال للعبد لم فعلت ولم تركت وكيف يكون هذا في الانسان
ممتنعا وقد وجدناه في بعض البهائم ممكنا فالوحشي قد ينقل بالعادة الى
التانس والجامح الى السلاسة لكن الناس في غرائزهم مختلفون فبعضهم جعلوا
جبلة سريعة القبول وبعضهم جعلوا جبلة بطيئة القبول وبعضهم في الوسط
وكل لا ينفك من اثر قبول وان قل واري ان من منع من تغيير الخلق فانه
اعتبر القوة نفسها وهذا صحيح فان النوى محال ان ينبت الانسان منه تفاحا
ومن اجاز تغييره فانه اعتبر امكان ما في القوة الى الوجود وافساده باهماله
نحو النوى فانه ممكن ان يتفقد فيجعل نخلا وان يترك مهملا حتى يتعفن ويفسد
وهذا صحيح ايضا فان اختلافهما بحسب اختلاف نظرهما

صعوبة اصلاح القوة الشهوية

وما في هذه القوة من المنفعة والمضرة اصعب هذه القوى الثلث
مداواة قمع الشهوية لانها اقدم القوى وجودا في الانسان واشدها به تشبثا
واكثرها منه تمكنا فانها تولد معه وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنسه بل في
النبات الذي هو جنس جنسه ثم توجد فيه قوة الحمية ثم اخر ما توجد فيه قوة
الفكر والنطق والتمييز ولا يصير الانسان خارجا من جملة البهائم واسر القوى
الا باماتة الشهوات البهيمية او بقهرها وقمعها وان لم يمكنه اماتتها فهي

التي تضره وتغره وتعوقه وتصرفه عن طريق الآخرة وتثبطه ومتى قهرها واماتها
صار الانسان حرا نقيا بل يصير الهيا ربانيا فتقل حاجاته ويصير غنيا عما في يد
غيره وسخيا بما في يده ومحسنا في معاملاته فان قيل اذا كانت الشهوة بهذه المثابة
في الاضرار فاي حكمة اقتضت ان يبلى بها قيل الشهوة انما يكون مذمومة اذا كانت
مفرطة واهملها صاحبها حتى تملك القوى فاما اذا ادبت فهي المبلغة الى السعادة
وجوار رب العزة حتى لو تصورت مرتفعة لما امكن الوصول الى الآخرة بالعبادة
ولا سبيل الى العبادة الا بالحيوة الدنيوية ولا سبيل الى الحيوة الدنيوية الا بحفظ
البدن ولا سبيل الى حفظه الا باعادة ما يتحلل منه ولا يمكن اعادة ذلك الا بتناول
الاغذية ولا يمكن تناول الاغذية الا بالشهوة فاذا الشهوة يحتاج اليها ومرغوب
فيها ويقتضي الحكمة الالهية ايجادها وتزيينها كما قال الله زين للناس حب الشهوات
من النساء والبنين الآية لكن حقها ان تكون كمثل عدو يخشى مضرته من وجه ويرجى منفعته
من وجه ومع عداوته لا يستغنى عن الاستعانة به فحق العاقل ان ياخذ نفعه ولا يسكن
اليه ولا يعتمد عليه الا بقدر ما ينتفع به وما اصدق في ذلك قول المتنبي اذا تصور
في وصف الشهوة وان قصدها فما اجود ما زادها ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى
عدوا له ما من صداقته بد وايضا هذه الشهوة هي المشوقة لعامة الناس
الى اللذات الجنة من الماكل والمشرب والمنكح اذ ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة
ولو توهمناها مرتفعة لما تشوقوا الى ما وعدوا به من قول النبي صلعم فيها ما لا عين رات
ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

ازدياد الانسان في الفضايل والرذائل بتعاطيهما

كل متعاطي يفعل من الافعال النفسية فانه يتقوى فيه بالازدياد منه ان خيرا فخير
وان شرا فشر فباحتمال صغار الامور يمكن احتمال كبارها وباحتمال كبارها يستحق
الحمد كما قال امير المؤمنين علي رض الايمان يبدو نكتة بيضاء في القلب كلما ازداد الايمان

الايمان انما ذلك البياض فاذا استكمل العبد الايمان ابيض القلب كله وان النفاق
يبدو لمظة سوداء كما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فاذا استكمل النفاق اسود
القلب كله والانسان يكمل في الفضيلة باربع درجات اثنتين في الاعتقاد وهما ان
يعتقد الجميل ويحصل اعتقاده عن براهين واضحة وادلة قاطعة لا عن شبهات
واهية واقناعات متداعية واثنتين في الفعل وهما ان يترك العادات السيئة
فيجعلها بحيث يبغضها فيجتنب الرذيلة ويتوصل الى الفضيلة وان يتعود
العادات الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعم بها كما قال عم وجعل قرة عيني
في الصلوة وكما انه يكمل باربع درجات درجتان في الاعتقاد وهما ان لا يعتقد
شيئا من العلوم الحقيقية فيبقى عنها غفلا وان يعتقد عن تقليد اعتقادا فاسدا
فيتلطخ به ودرجتان في العمل وهما ان لا يتعود العادة الجميلة راسا وان يتعود العادة
القبيحة فمن صار في الفضيلة الى الدرجة الرابعة فهو ممن شرح الله صدره للاسلام فهو
على نور من ربه ومن صار في الرذيلة الى الدرجة الرابعة فهو من الذين وصفهم
الله تع بقوله اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم الاية ثم قال افلا يتدبرون القرآن ام على
قلوب اقفالها وقيل لحكيم الا تعظ فلانا فقال ذلك على قلبه قفل ضاع مفتاحه ولا سبيل
الى معالجة فتحه وللانسان مع كل فضيلة ورذيلة ثلثة احوال اما ان يكون في ابتدائها
فيقال هو عبدها وابنها ولهذا قال بعضهم من لم يخدم العلم لم يرعه والثاني ان يتوسطها
فيقال هو اخوها وصاحبها والثالث ان ينتهي فيها بقدر وسعه ويتصرف فيها كما
اراد فيقال هو سيدها وربها ومنه قيل فلان رباني في العلم فان رب الشيء هو الذي
يربيه وسيده هو الذي يملك سواده اي جمعه وغاية الفاضل في الفضيلة ان يقع منه
الفضايل من غير فكر ولا روية لغلبة قواه عليه وبعدما بينا فيها منه كما للصانع الحاذق
في صنعته وغاية الرذل في الرذيلة ان يقع منه افعال الرذايل بغلبة قواها عليه

ولهذا حد الخلق بانه حال للانسان داعية الى الفعل من غير فكر ولا روية **الفرق بين ما يحمد
ويذم من التخلق** الفرق بين الخلق والتخلق ان التخلق معه استثقال واكتساب ويحتاج
الى بعث وتنشيط من خارج والخلق معه استخفاف وارتياح ولا يحتاج الى بعث من
خارج والتخلق والتشبه بالافاضل ضربان محمود وذلك ما كان على سبيل الارتياض والتدرب
ويتحرى صاحبه سرا وجهرا على الوجه الذي ينبغي وبالمقدار الذي ينبغي واياه قصد
الشاعر بقوله ولن تستطيع الخلق حتى تخلقا بل قد قال عم ما العلم الا بالتعلم وما الخلق
الا بالتخلق وضرب مذموم وذلك ما كان على سبيل المراءاة ولا يتحرى صاحبه الا حيث
يقصد ان يذكر به ويسمى ذلك رياء وتفيقها وتشبعا ولن ينفك صاحبه من اضطراب
يدل على تشبعه كما قال كليلة الطبع المتكلف كلما رمته تثقيفا راك تعقيفا وعلى
ذلك قال الشاعر فاسرع مفعول فعلت تغيرا * تكلف شيء في طباعك ضده * واياه
قصد امير المؤمنين عمر بن الخطاب رض من تخلق للناس بغير ما فيه فضحه الله وقال
المتشبع كالجرح يندمل على فساد فلا بد وان ينتقض وان كان بعد حين فان الجرح بعد
بعد حين اذا كان البناء على الفساد وكما ان العضو المفلوج لا يطاوع صاحبه
في تحريكه وان جاهده فمتى حركه الى اليمين تحرك نحو الشمال كذا ايضا الشرير والظلوم
والمتهور وان جاهدوا انفسهم فان قواهم تابى مطاوعتهم وقد ذم النبي صم ذلك بقوله
المتشبع بما ليس عنده كلابس ثوبي زور تنبيها انه كاذب بقوله وفعله فيتضاعف عليه
وزره وقد حمل على ذلك قوله عز وجل وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون واياه قصد
النبي عم بقوله الشرك اخفى في امتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء واقبح
الرياء النفاق في الدين واقبح النفاق ما كان في اصل الاعتقاد وهو اظهار الايمان
مع استبطان الكفر ولذلك جعل تع عقابهم اعظم فقال ان المنافقين في الدرك
الاسفل من النار **سبب اختلاف الناس** في اطلاقهم جميع الفضايل النفسية ضربان

نظري وعملي وكل ضرب منهما يحصل على وجهين احدهما بتعلم بشري يحتاج فيه
الى زمان وتدرب وممارسة ويتقوى الانسان فيه درجة فدرجة وان كان منهم
من يكفيه ادنى ممارسة ومنهم من يحتاج الى زيادة ممارسة وذلك بحسب اختلاف
الطباع في الذكاء والبلادة والثاني يحصل بفيض الهي نحو ان يولد انسان فيصير
من غير تعلم من البشر عالما كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا وغيرهما من الانبياء عليهم السلم
الذين حصل لهم من المعارف من غير ممارسة ما لم يحصل لانبياء وغيرهم وقد ذكر
بعض الحكماء ان ذلك قد يحصل لغير الانبياء ايضا في الفينة بعد الفينة وكل ما كان
يتدرب فقد يكون بالطبع كصبي يوجد صادق اللهجة وسخيا وجريا وآخر على عكس
ذلك وقد يكون بالتعلم والعادة فمن صار فاضلا طبعا وعادة وتعلما فهو كامل
الفضيلة ومن كان رذلا بثلاثتها فهو كامل الرذيلة **وجوب** اكتساب الفضائل المحمودة
حق الانسان في كل فضيلة ان يكتسبها خلقا ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك
سواء امكنه ان يبرز ذلك فعلا او لم يمكنه وذلك بان يكون على هيئة الاسخياء والشجعان
والحكماء والعدول وان لم يكن ذا مال يبذله ولا عرض له مقام يظهر فيه نجدته ولا معاملة
بينه وبين غيره تبرز فيه عدالته وقد قيل لبعض الحكماء هل من جود يعم به الورى
قال نعم ان تحسن خلقك وتنوي لكل احد خيرا وقال عم انكم لن تسعوا الناس باموالكم
فسعوهم باخلاقكم واعلم ان كل فعل محتاج الى ايجاده وتربيته وتجويده دنيويا كان
او اخرويا لكن متى كان اخرويا يحتاج فيه مع ذلك الى امور ان لم يتم ولا يكمل الا بها وهي
انه يجب ان يتعاطيها قصدا الى المكرمة كما قال تعالى مثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء
مرضات الله الآية وان يتحرى بخلوص طويته كما قال تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله
مخلصين له الدين وان لا يقصد به جلب منفعة دنيوية او دفع مضرة فانه يكون
بفعله ذلك تاجرا ويجب عند بعض المحققين ان لا يطلب به منفعة اخروية ايضا فقد قيل

من عبد الله بعوض فهو لئيم ومن فعل ذلك بانشراح صدر فهو اولى ممن يفعله بمجاهدة نفس
ولهذا قال عم ان استطعت ان تعمل لله في الرضا باليقين فاعمل والا ففي الصبر على ما تكره
خير كثير وقولهم الحق مر فهو باعتبار من لم يتهذب نفسه ولم يزل مرضه فمن يك
ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا فاما من كمل فانه يستطيب الحق وان كان ثقيلا
كما قال عم وجعل قرة عيني في الصلوة ومن اصلح خلقه وهذب نفسه فقد حاز اعظم
الممالك فمن ملك نفسه وقواها وهذبها وزكاها فقد اطلع به على ملكوت السموات
والارض وملك اطوع جيش بلا عطاء يلزمه وقد نبه الله تع على ذلك بقوله اذ جعل
فيكم انبياء وجعلكم ملوكا واتاكم الآية فجعل النبوة مخصوصة فيهم وجعل الملك عاما
لهم تنبيها على المعنى الذي ذكرت وعلى ذلك قوله تع ام يحسدون الناس على ما اتاكم الله
من فضله الآية ونذكر بعد ذلك نعم الله وما يكتسب منها **انواع** نعم الله الموهوبة
والمكسوبة نعم الله تع وان كانت لا تحصى مفصلة كما قال سبحانه وان تعدوا نعمة الله
لا تحصوها فانها بالقول المجمل خمسة انواع الاولى وهو اعلاها واشرفها السعادة الاخروية
واياها قصد بقوله تع واما الذين سعدوا ففي الجنة الآية وذلك هو الخير المحض والفضيلة
الصرف وهو اربعة اشياء بقاء بلا فناء وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل وغنى بلا فقر
ولا يمكن الوصول الى ذلك الا باكتساب الفضائل النفسية واستعمالها كما قال تعالى
ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها الآية واصول ذلك اربعة اشياء العقل وكماله العلم
والعفة وكمالها الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة والعدالة وكمالها الانصاف وهي
المعبر عنها بالدين ويكمل ذلك بالفضائل البدنية وهي اربعة اشياء الصحة والقوة
والجمال وطول العمر ويتم بالفضائل المطيفة بالانسان وهي اربعة اشياء المال والاهل
والعز وكرم العشيرة ولا سبيل الى تحصيل ذلك الا بتوفيق الله عز وجل وذلك باربعة
اشياء هدايته ورشده وتسديده وتاييده فجميع ذلك خمسة انواع هن عشرون

ضربا ليس للانسان مدخل في اكتسابها الا فيما هو نفسه فقط واعلم ان الفضيلة الكاملة والسعادة
الحقيقية هي الخيرات الاخروية وما عداها فتسميته بذلك اما لكونه معاونا في بلوغ ذلك
او نافعا فيه فكل ما اعان على خير وسعادة فهو خير وسعادة والاشياء التي هي معينة
ونافعة في بلوغ السعادة الاخروية متفاوتة الاحوال فمنها ما هو نافع في جميع الاحوال
وعلى كل وجه ومنها ما هو نافع في حال دون حال وعلى وجه دون وجه وربما يكون ضرره اكثر
من نفعه فحق الانسان ان يعرفها بحقايقها حتى لا يقع الخطاء عليه في اختيار الوضيع
على الرفيع وتقديم الخسيس على النفيس والناسخ لتحري ذلك قسمان طالب خير وهارب
من شر كما قيل كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة واجتلاب المنفعة والمرء
تغلط في تصرف حاله فلربما اختار العناء على الدعة لكن قد يحسب السحم فمن شحمه ورم
ويعتقد في الشيء انه رزق نافع وحشو سم ناقع ولذلك يحق على العاقل ان يجلي
بصيرته ويعرف من كل ما يطلب حقيقته لئلا يكون كمن اراد حبلا ينتطق به
فرأى حية فظنها منتطقة فاخذها فلدغته وقد قسم الخيرات على وجه اخرى
فقيل الخيرات ثلث موثرة لذاتها وموثرة لغيرها وموثرة تارة لذاتها وتارة
لغيرها فالموثر لذاتها السعادة الاخروية والنفسية والموثرة لغيرها الدراهم
والدنانير فانا لو تصورنا ارتفاع الضرورات التي تستدفع بها لكانت هي والحصا
سواء والموثرة لذاتها وتارة لغيرها كصحة الجسم فمعلوم ان الرجل وان اريد بها المشي
فالانسان يريد ان يكون صحيح الرجل وان استغنى عن المشي وقد يقال الخيرات ثلث
نافع وجميل ولذيذ والشرور ثلث ضار وقبيح ومولم وكل واحد من ذلك ضربان
احدهما مطلق وهو الذي يجمع الاوصاف الثلثة في الخير كالحكمة فانها نافعة وجميلة
ولذيذة وفي الشر كالجهل فانه ضار وقبيح ومولم وكل واحد من ذلك ضربان احدهما
مطلق وهو الذي لا يجمع الاوصاف الثلثة والثاني مقيد وهو الذي جمع شيئا من اوصاف

الخيرات وشيئا من اوصاف الشرور فرب نافع موذ كجدع قصير انفه فانه ولئن نفعه
في ادراك الثار فقد اذاه ورب نافع قبيح كالحمق فانه وان نفع من حيث ما قيل
استراح من لا عقل له فهو جدا قبيح ورب نافع من وجه ضار من وجه كمن في سفينة
يخاف الغرق فالقى متاعه في الماء فتخلصت السفينة وكل ما نفعه وجماله ولذته اطول
مدة واعم عائدة وهو افضل فحق العاقل ان يرغب الى الله تعالى في ان يعطيه ما فيه
مصلحته مما لا سبيل بنفسه الى اكتسابه وان يبذل جهده مستعينا بالله في اكتساب
ما اليه كسبه وبلوغ الاعلى فالاعلى على الترتيب فبذلك يشرف ومن ضيع اقتناء
المقتنيات مع التمكن من تحصيله فهو دني الهمة راض بخسيس الحال واشرفها ما اذا
حصل لم يغصب ولم يحتج في حفظه الى اعوان وحفظة وكان نافعا عاجلا واجلا ومطلقا
في كل حال وكل زمان وكل مكان وذلك هو الفضايل النفسية ولا سيما العقل والعلم
واما المقتنيات الخارجة من المال والجاه فانها يقال لها الخيرات المتوسطة فانها تجذب
الى الفضيلة مرة والى الرذيلة مرة لانها سبب للخيرات اذا كانت مع العقل وسبب
للشرور اذا كانت مع الجهل وقد نبه الله تعالى على كون ذلك سببا للشرور بقوله انما اموالكم
واولادكم فتنة وقوله فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم ولذلك قيل السعيد هو الخير العاقل
غنيا كان او فقيرا قويا او ضعيفا فان قيل ما الفرق بين الخير والسعادة والفضيلة
والنافع وهل بينها فرق قيل اما الخير المطلق فهو المختار من اجل نفسه والمختار
غيره لاجله وهو الذي يتشوقه كل عاقل بل قد قيل هو الذي يتشوقه الكل بلا مثنوية
فان الكل يطلب بالحقيقة الخير وان كان قد يعتقد انه في الشر خير فيختاره فمقصده
٤٠ الخير ويضاده الشر وهو المحتوى من اجل نفسه والمحتوى غيره من اجله قال النبي
لا خير في خير بعده النار ولا شر في شر بعده الجنة فجعل الخير المطلق الجنة والشر
المطلق النار كما ترى وقد يقال لكل ما يتوصل به الى الخير خير ولذا سمى الله تعالى

المال ضيرا في قوله ان ترك خيرا لكن المال والجاه في الحقيقة قد يكون خيرا لبعض الناس
وشرا لبعضهم فمعلوم انه كان شرا لمن قال الله تعالى فيه الذي جمع مالا وعدده يحسب
ان ماله اخلده واما السعادة المطلقة فحسن الحيوة في الآخرة وهي الاربع التي تقدم
ذكرها من البقاء بلا فناء والقدرة بلا عجز والعلم بلا جهل والغنى بلا فقر وقد يقال
لما يتوصل به الى هذه السعادات الاربع سعادة وهي الستة عشر المتقدمة ويضادها
الشقاوة واما الفضيلة فاسم لما يحصل به الانسان مزية على الغير وهو اسم لما
يتوصل به الى السعادة ويضادها الرذيلة واما النافع فهو ما يعين على بلوغ
الفضيلة والسعادة والخيرة النافع في الشيء ضربان ضروري وهو ما لا يمكن الوصول
الى المطلوب الا به كالعلم والعمل الصالح للمكلفين في البلوغ الى النعيم الدائم وغير
ضروري وهو الذي قد يسد غيره مسده كالسكنجبين في كونه نافعا في قمع الصفراء
فان ذلك قد يسد غيره مسده وكل نافع فقد يسمى فضيلة وسعادة وخيرا لكونه
مبلغا الى ذلك حاجة بعض هذه الفضائل الى بعض قد ثبت بما تقدم ان الخيرات
والفضائل خمسة انواع اخروية ونفسية وبدنية وخارجة وتوفيقية فيجب ان يعلم
ان بعض ذلك يحتاج الى بعض اما حاجة ضرورية بحيث لو لم يوجد ذلك لم يصح وجود
الآخر او حاجة نافعة بحيث لو لم يوجد لاختل حال الآخر وذلك لان السعادة الحقيقية
الاخروية لا سبيل الى الوصول اليها الا باكتساب الفضائل النفسية ولذلك قال تعالى
ومن اراد الآخرة الآية فبين انه لا يطمع لمن اراد الوصول اليها الا بالسعي ولا سبيل
الى تحصيل الفضائل النفسية الا بصحة البدن وقوته ولانه لا غنى لكمال الفضائل
النفسية الا بصحة البدن وقوته والبدنية من الفضائل الخارجة فانه وان امكن
ان يتصور حصولها لمن لا اهل له ولا مال ولا عشيرة فانها لا تكمل الا بها الفضائل
المطيفة بالانسان قد تقدم ان ذلك بالقول المجمل اربعة اشياء المال والاهل والعز

وكرم العشيرة وان هذه الاشياء نافعة في بلوغ الفضيلة الحقيقية والسعادة الاخروية
وجارية مجرى الجناح المبلغ وان لم تكن الحاجة اليها في بلوغ ذلك ضرورية فاما المال
فصاحبه يتمكن من فضائل اذا فقد تنكل بلوغها فمعلوم ان كثيرا من القربات كالزكوة
والحج تنكله الفقر فان الفقير في تحري المكارم كساعي الى الهيجاء بغير سلاح وكباز
متصيد بلا جناح وفضله مغطى كماء تحت ارض ونار كامنة في الصخر وما اصدق
ما قال الشاعر * فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله * ولا مال في الدنيا لمن قل مجده وقال
الآخر والمرء يرفعه الغنى والفقر منقصة وذل وكان النبي صلعم يقول اللهم اني اسألك
الهدى والتقى والعفة والغنى وقال عم نعم العون على تقوى الله المال واما الاهل
فنعم العون على بلوغ السعادة فمن كثر اهله وخالصوه صار له بهم عيون واذان
وايد وقال تعالى حاكيا عن لوط عم لو ان لي بكم قوة او اوي الى ركن شديد قال
الشاعر * الم تر ان جمع القوم يخشى * وان حريم واحدهم مباح وقال عم في نفع
الولد اذا مات الرجل انقطع عمله الا عن ثلثة صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد
صالح يدعو له وقال عم ريح الولد من رائحة الجنة وقال عم نعم العون على الدين
المرأة الصالحة فالمرأة مزرعة للرجل قيضها الله ليزرع فيها زرعه كما قال الله تعالى
نساؤكم حرث لكم واما العز فيه يتأبى عن تحمل الذل ومن لا عز له لا يمكنه ان يذود
عن حريمه ولذلك قيل الدين والسلطان اخوان توامان وقرينان مؤتلفان و
مؤديان الى عمارة البلاد وصلاح العباد وقيل الدين اس والسلطان حارس
فمن لا اس له فمهدوم وما لا حارس له فضائع وسمى الله تعالى الحجة سلطانا لقهرها
اولى البصائر وقال عز اسمه ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت
الارض واما كرم العشيرة فانه يقال له الحسب والشرف والشرف اخص بما ننسب
الآباء والعشيرة ولذلك قيل للعلوية اشراف ومن الناس من لا يعد شرف

الاصل فضيلة ويقول المرء بنفسه واستدل بقول امير المومنين رض الناس ابناء ما يحسنون
وبقوله قيمة كل امرئ ما يحسنه وقول الشاعر كن ابن من شئت واكتسب ادبا يغنيك محموده
عن النسب وقول الحكيم الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية وليس ذلك كما ظنوا فان
كرم الاعمام والاخوال مخيلة لكرم المرء ومظنة له فالفرع وان كان قد يفسد احيانا
فمعلوم ان اصله يورثه الفضيلة والرذيلة وانه لا يكون من النخل الحنظل ولا من الحنظل
النخل ولذلك قال الشاعر • وما يك من خير اتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل • وهل
ينبت الخطي الا وشيجه • ويغرس الا في منابتها النخل • وقيل ان السري اذا سرى فبنفسه
وابن السري اذا سرى اسراهما • وبين ذلك ان الاخلاق نتايج الامزجة ومزاج
الاب كثيرا ما يتادى الى الابن كالالوان والخلق والصور ومن اجل تاديها اليه قال ع
تخيروا لنطفكم وقال عم اياكم وخضراء الدمن وما ذكر من نحو قول امير المومنين رض
الناس ابناء ما يحسنون حث على اقتباس العلم ونهي عن الاقتصار على مآثر الآباء
فان المآثر الموروثة قليلة الغناء ما لم يتضامها فضيلة النفس ولذلك انما يحمد لكي
يوجد الفرع مثله ومتى اخلف الفرع وتخلف فانه يخبر باحد شيئين اما بكذب
من يدعي الشرف لعنصره او بكذبه في انتسابه الى ذلك العنصر وما فيهما حظ لحماد
فالمحمود ان يكون الاصل في الفضل راسخا والفرع به شامخا كما قال الشاعر زانوا
قديمهم بحسن حديثهم • وكريم اخلاق بحسن خصال • ومن لم يجتمع له الامران فلان
يكون المرء شريف النفس دني الاصل اولى من ان يكون دني النفس شريف الاصل
قال الشاعر • فما الحسب الموروث لا در دره • بمحتسب الا باخر مكتسب • اذا الغصن لم يثمر
وان كان شعبة من المثمرات اعتده الناس في الحطب • ومن كان عنصره في الحقيقة
سنيا دني نفسه ودنيا فذلك اتى اما من اهماله نفسه وسوء مرباه واما لتعوده عادات
قبيحة وصحبة اشرار وغير ذلك من العوارض المغيرة للعناصر الكريمة فليس

فليس سبب الرذيلة شيئا واحدا **الفضايل الجسمية** قد استهان قوم بذلك وقالوا
كفى بالمرء ان يكون صحيح البدن بريا من الامراض الشاغلة عن تحري الفضايل العقلية
وليس كذلك فالبدن للنفس بمنزلة الآلة للصانع والسفينة للربان اللتين بهما صار
صانعا وربانا وجميع اجزاء البدن بالقول المجمل اربعة العظام التي تجري للبدن
مجرى الالواح للسفينة والعصب الذي يجري له مجرى الرباط الذي يشد به الالواح
واللحم الذي يجري له مجرى الحشو للرباطات والجلد الذي يجري مجرى الغشاء
لجميعها فاذا اعتدلت هذه الاربعة بان تعتدل فيها القوى الاربع وهي الجاذبة و
الماسكة والهاضمة والدافعة سمي ذلك الصحة ولولا صحة البدن لما حصل الانتفاع
به واما القوة فموجودة تركيب هذه الاركان الاربعة وهي العظام والعصب
واللحم والجلد وما يتبعها وبها يصلح البدن للسعي والتصرف في امور الدنيا والآخرة
واما الجمال فنوعان احدها امتداد القامة الذي يكون عن الحرارة الغريزية فان
الحرارة اذا حصلت رفعت اجزاء الجسم الى العلو كالنبات اذا النجم كلما كان اطلب
للعلو في منبته كان الشرف في جنسه ولاعتبار بذلك استعمل في كل ما جاد في جنسه
العالي والعاتق وكثرة المدح بطول القامة نحو قول القايل كان ذرى القنطرة علقت
علايقها فيه بجذع مقوم وقال آخر اشم طويل الساعدين كانما يناط نجادا سيفه بلواء
الثاني من الجمال ان يكون ممدودا قوي العصب طويل الاطراف قال الشاعر ممتدها
رحب الذراع غير مثقل باللحم والشحم كما قيل فتى قد قد السيف لا متضايل ولا
رهل لباته واباجله ولا نعني بالجمال ههنا ما يتعلق به شهوة الرجال والنساء فذلك انوثية
وانما نعني به الهيئة التي لا ينبو الطباع عن النظر اليها وهو ادل شيء على فضيلة النفس
لان نورها اذا اشرق تادى الى البدن اشراقا فكل شخص فله حكمان احدهما من قبل
جسمه وهو منظره والآخر من قبل نفسه وهو مخبره فكثيرا ما يتلازمان ولذلك

فزع اصحاب الفراسة في معرفة احوال النفس اولا الى الهيئات البدنية حتى قال بعض الحكماء
قل صورة يتبعها نفس ردية ونقش الخواتيم مقروء من الطين فطلاقة الوجه عنوان
ما في النفس وليس في الارض قبيح الا وجهه احسن ما فيه وقال عم اطلبوا الحاجات
من حسان الوجوه وقال عمر رض اذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم فالوجه
والعين يظهر فيهما آثار النفس وكالمرآة يستدل بها عليها ولذلك يظهر فيهما اثر سرور
النفس وحزنها ورضاها وسخطها ولذلك عبر بالوجه عن الجملة وعن نفس القوم فقيل فلان
وجه القوم وعينهم وحتى قال كل شيء هالك الا وجهه وكون الوجه المقبول في دلالته
على فضيلة النفس وان لم يكن حكما لازما فهو على الاعم الاكثر وحكي ان المأمون استعرض
جيشا فمر به رجل قبيح الوجه فاستنطقه فرآه الكن فامر باسقاطه وقال ان الروح
اذا كانت ظاهرة كانت صباحة واذا كانت باطنة كانت فصاحة وارى لا ظاهر له
ولا باطن وكفاك من البيان في فضل كمال الجسم قوله تع ان الله اصطفيه عليكم وزاده
بسطة في العلم والجسم وقال وزادكم في الخلق بسطة واما طول العمر فلولاه لقل حظ الانسان
من السعادات الدنيوية التي لولاها لما نيلت السعادة الاخروية **ما يتولد** من الفضايل
النفسية امهات الفضايل النفسية وان كن اربعا فلها بنات هن امهات لفضايل
آخر وبيان ذلك ان العقل متى تقوى تولد من حسن نظره جودة الفكر وجودة الذكر
ومن حسن فعله الفطنة وجزالة الراي ويولد من اجتماع اربعتها جودة الفهم
وجودة الحفظ والشجاعة متى تقوت يولد منها الجود في حال النعمة والصبر في حال
المحنة والصبر يزيل الجزع ويورث الشهامة المختصة بالرجولية كما قيل خلقنا
رجالا للتجلد والاسى وتلك الغواني للبكاء والمآتم والعفة اذا تقوت ولدت
القناعة والقناعة تمنع عن الطمع في مال الغير فيولد الامانة والعدالة اذا تقوت
يولد منها الرحمة والرحمة هي الاشفاق من ان يفوت من ذا حق حقه لئي يولد الحلم

الفضايل النفسية

والحلم يقتضي العفو والانسانية والكرم مجمع هذه الفضايل وذلك لان الانسانية هي
المختصة بالانسان وبقدر ما يكتسبها الانسان يستحقها وفيها تفاضل كثير كما تقدم
في الفرق بين الانسان والانسان فمنهم من ارتفع حتى لحق بافق الملك فلو تصورناه
ملكا جسمانيا لكان هو اياه لا ارتفاعه عن الانسان الا بالصورة المخططة وعلى
هذا قوله تع ان هذا الا ملك كريم ومنهم من اتضع حتى صار في افق البهايم فلو تصورناه
كلبا او حمارا منتصب القامة متكلما لكان هو اياه لا انسلاخه من الانسانية الا
بالصورة المخططية وعلى هذا قوله تع ان هم الا كالانعام بل هم اضل ومنهم من هو
في اوساط هذين في درجة من درجات لها كثيرة ولهذا صح ان يقال فلان اكثر انسانية
من فلان وما يختص به لفظ الانسانية فهو الافعال والاقوال والاخلاق المحمودة
واما المذمومات من الاخلاق فيشارك الانسان فيها البهايم والشياطين واما المروة
فلها اشتقاقان في احدهما يقتضي ان يكون هي والانسانية متقاربتين وهو ان
يجعل من قولهم مرء الطعام وامرا اذا تخصص بالمرء لموافقته الطبع فكانها اسم
للاخلاق والافعال التي تقبلها النفوس السليمة فعلى هذا يكون اسما للافعال المستحسنة
كالانسانية والثاني ان يكون من المرء فيجعل اسما للمحاسن التي تختص بها الرجل
دون المراة فيكون كالرجولية وذلك اخص من الانسانية اذ الانسانية يشترك
فيها الرجال والنساء والمروة اخص وكثير مما يكون فضيلة للمراة يكون رذيلة
للرجل كالبله والحقد والبخل والجبن ولهذا قيل افضل اخلاق الرجال اذل اخلاق
النساء فالكيس والشجاعة والجود رذيلة لهن وقيل لمعوية ما المروة فقال الطعام الطعوم
وضرب الهام وقيل للاحنف فقال ان لا تفعل في السر ما تستحي منه في العلانية وقيل
لآخر فقال اجمعها في قول الله تع ان الله يامر بالعدل والاحسان الآية واما الكرم فاسم
لجميع الاخلاق والافعال المحمودة اذا ظهرت بالفعل والحرية مثله لكن يقال ذلك فيمن

لا تستعبده المطامع والاعراض الدنيوية وذكر بعض الحكماء ان الحرية تقال في المحاسن
الصغيرة والكبيرة والكرم لا يقال الا في المحاسن الكبيرة كمن ينفق ماله في تجهيز
جيش في سبيل الله او تحمل حماله من دماء قبيله فكل كرم حرية وليس كل حرية
كرما وايضا فالحرية تتعلق بالتلطف عن الاخذ الكثير والكرم يتعلق بالانفاق
الكثير ويضاد الكرم اللوم والحرية العبودية على المذكور في قول القايل
والعبد لا يطلب العلاء ولا يعطيك شيئا الا اذا رهبا وكما ان الكرم اعم من الجود
فاللوم اعم من البخل ولا مدخل في الحرية والكرم النساء فانهن مستخدمات بل
مستعبدات ولذلك لو احز الله مخلوقا بعباده مخلوق لامر النساء بعباده ازواجهن
فان قيل ما حقيقة قول الله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقيكم قيل لما كان الكرم اسما
للافعال المحمودة التي قد تقدم ذكرها وهذه الافعال انما يكون فاضلة اذا كان
فعلها عن علم وقصد بها اشرف الوجوه اي وجه الله تعالى وذلك هو التقوى فليس
التقوى الا العلم وتحري الافعال المحمودة فاذا كل من كان اتقى كان اكرم والونيز
الذي يتأتى تحمل المذلة واشتقاقه من العراز وهو كالمتطلف في الامتناع من
تناول الشهوات المذلة واصله من الطلف اي الارض الصلبة وفرق بعض
الحكماء بين الكريم والعزيز فقال الكريم يابى ان يتفضل والعزيز يابى ان يتفضل
عليه والطرف اسم لحاله تجمع عامة الفضايل النفسية والبدنية والخارجية
تشبيها بالطرف الذي هو الوعاء ولذلك قال اعرابي فلان حاضن الشرف
ومقر الفضل ولكونه واقعا على ذلك قيل لمن حصل له علم وشجاعة ظريف
ولمن حسن لباسه ورياسه واثاثه ظريف فالطرف اعم من الحرية والكرم
واما الفتوة فكالمروة فانه اسم لما يختص من الفضايل الانسانية لكن هي
بالرجولية اشبه وقد استعارت الصوفية لفظ الفتوة للتصوف لكونها

مساويه له في جميع افعالها الا في الغرض فان غرض الفتيان استجلاب محمدة الاقران
وغرض المتصوفة استجلاب محمدة الرحمن بل مجرد مرضاته تعالى واما الحسب فوقع على
فما يختص الانسان به فيعد من مآثره وقد يقال فيما يؤثر عن ابائه والشرف نحوه
لكن اكثر ما يقال فيما يؤثر عن الاباء **الفضايل التوفيقية** التوفيق موافقة ارادة
الانسان وفعله قضاء الله وقدره وهو وان كان موضوعا في الاصل على وجه
يصلح استعماله في السعادة والشقاوة فقد صار متعارفا في السعادة فقط
والاتفاق مطاوعة التوفيق لكن قد يستعمل في السعادة والشقاوة جميعا فيقال
اتفاق جيد واتفاق ردي والتوفيق مما لا يستغني الانسان عنه في كل حال
كما قيل لحكيم ما الذي لا يستغني عنه احد في كل حال فقال التوفيق وانشد
اذا لم يكن عون من الله للفتى فاكثر ما يجني عليه اجتهاده فالسعادة التوفيقية
هي الهداية والرشد والتسديد والتاييد فيجب ان يعلم ان لا سبيل لاحد الى شيء
من الفضايل الا بهداية الله تعالى ورحمته فهي مبدأ الخيرات ومنتهاها كما قال
اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وخاطب الناس فقال ولولا فضل الله عليكم ورحمته
ما زكى منكم من احد ابدا الآية وقال عم ما احد يدخل الجنة الا برحمة الله اي
بهدايته قيل ولا انت يا رسول الله قال ولا انا تنبيها انه لو توهمت رحمته من بعده
ابتدا وانتهاء ما كان لنا سبيل الى ذلك وللهداية منازل في الدنيا الاول تعريف
طريق الخير والشر المشار اليهما بقوله وهديناه النجدين وقد خول الله تعالى
الهدى كل مكلف بعضه بالعقل وبعضه بالسنة الرسل واياه عني بقوله تعالى
واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى والثاني ما يمد به العبد حالا
فحالا بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح واياه عني بقوله والذين
اهتدوا زادهم هدى الثالث نور الولاية التي هي في افق نور النبوة واياه

عنى بقوله تعـ قل ان هدى الله هو الهدى فاضاف ذلك الى لفظ الله تعالى ثم قال
هو الهدى فجعله الهدى المطلق وبقوله يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم
فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم اى نورا تفرقون به بين الحق والباطل وكل ذلك
يسمى النور والحيوة نحو او من كان ميتا فاحيينا. الآيه وقال افمن شرح الله
صدره للاسلام فهو على نور الآيه وبتحرى هذه المنازل الثلثه يتوصل الى
الهداية للجنة المذكورة فى قوله وقالوا الحمد لله الذى هدينا لهذا وما كنا لنهتدى
لولا ان هدانا الله الآيه والرشد عناية الهية تعين الانسان عند توجهه
فى اموره فيقويه مما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده. واكثر ما يكون ذلك
من الباطن نحو قوله تعـ ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل الآيه وكثيرا ما يكون
ذلك بتقوية العزم او بفسخه واليه توجه قوله واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه
والتسديد ان يقوم ارادته وحركته نحو الغرض المطلوب ليهجم اليه فى اسرع
مدة يمكن الوصول فيها اليه وهو المسؤل بقوله تعـ اهدنا الصراط المستقيم
والنصرة من الله معونة الانبياء والاولياء وصالحى العباد بما يؤدى الى
صلاحهم عاجلا وآجلا وذلك تارة يكون من خارج بمن تقيضه الله ويعينه
وتارة من داخل بان يقوى قلوب الاولياء او يلقى رعبا فى قلوب الاعداء
وعلى ذلك قوله تعـ انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحيوة الدنيا الآيه وقوله
ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين الى قوله الغالبون واما ما يختص
بسعادة الدنيا ولا يعتبر فيه العاقبة فيقال لها الدولة والدولة وعلى هذا
قوله وتلك الايام نداولها بين الناس وقوله فى وصف الفى كيلا يكون دولة
والتأييد تقويه امره من داخل بالبصيرة ومن خارج بقوة البطش ومنه
قوله تعـ اذ ايدتك بروح القدس والعصمة فيض الهى يقوى به الانسان

على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه وان لم يكن منعا محسوسا
واياه عنى بقوله ولقد همت به وهم بها لولا ان رآى برهان ربه وقد روى ان يوسف
رآى صورة يعقوب وهو عاض على ابهامه فاحجم وليس ذلك بمانع ينافى التكليف
كما توهمه بعض المتكلمين فان ذلك كان تصورا منه وتذكرا لما كان قد حذره
منه وعلى هذا قال كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء الآيه ومن عصمته تعـ ان يكرر
الوعيد على من يريد عصمته لئلا يغفل ساعة من مراعاة نفسه كقوله تعـ لكيلا ٢٦
ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين واعلم
ان رشده تعـ للعبد وتسديده ونصرته وعصمته يكون بما يخوله من الفهم الثاقب
والسمع الواعى والقلب المراعى وتقييض المعلم الناصح له والتوفيق الموافق
وامداده بالمال بما لا يقعد به عن مغزاه لقلته ولا يشغل فيه كثرته ومن العشيرة
والحزم ما يصونه عن سفه السفهاء وعن الغض منه من جهة الاغنياء وان يخوله
من كبر الهمة وقوة العزيمة ما يحفظ عن التسفف الدنيه والتأخر عن بلوغ
كل منزله سنية في تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضا العقل والشجاعة و
العفة والجود والعدالة وساير الفضايل يتلازم فان العقل اذا استرق عقل
صاحبه عن الاقدام على ما يورثه مذمته ويحمله على الاقدام على المحارب الذى يورث
محمدة وعلى ان يسمح بفضلات ما فى يده لمن يحتاج اليه وان يبذل لكل ذى حق
حقه وذلك هو العفة والشجاعة والجود والعدالة وكذلك اذا كان عفيفا حمله عفته
على ترك تناول ما لا يجوز له تناوله وان لا يحجم عما يلزمه الاقدام عليه وان لا يبخل بفضلات
ما فى يده واذا كان شجاعا لا يقهره شهوته على تناول ما لا يجوز له تناوله وعلى ظلم
غيره ولا يخاف الفقر فيبخل وبهذا النظر جعل بعض الشعراء الشجاعة سماحة والسماحة
شجاعة فقال ايقنت ان من السماح شجاعة تدمى وان من الشجاعة جودا وجعل

النبي صلعم دفع الشهوة جهادا فقال جاهد هواك وجعل العفة جودا فقيل الجود جودان
جود بما في يدك وجود بما في يد غيرك وهو اعظمهما وهذه الفضائل اذا حصلت فضيلة
بها الانسانية والحرية والكرم وعنها يتاصل الاسلام والايمان والاخلاص
البواعث على فعل الخير وتحري الفضائل البواعث على فعل الخيرات الدنيوية
ثلاث ادناها الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره والثاني
رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه الثالث تحري الخير وطلب
الفضيلة فالاول من مقتضى الشهوة وذلك من فعل العامة والثاني من مقتضى
الحياء وهو من فعل السلاطين وكبار ابناء الدنيا والثالث من مقتضى العقل
وذلك من فعل الحكماء ولهذه المنازل الثلثة قيل خير ما اعطي الانسان عقل
يردعه فان لم يكن فحياء يمنعه فان لم يكن فخوف يقمعه فان لم يكن فمال يستره
فان لم يكن فصاعقة تحرقه فتريح منه العباد والبلاد وكذلك البواعث
على الخيرات الاخروية ثلاثة الاول الرغبة في ثواب الله تع والمخافة من عقابه
وذلك منزلة العامة والثاني رجاء حمده ومخافة ذمه وذلك منزلة الصالحين
والثالث طلب مرضات الله تع في المخربات وذلك منزلة النبيين والصديقين
والشهداء وهي اعزها وجودا ولذلك قال بعضهم افضل ما يتقرب به العبد الى
الله ان يعلم انه لا يريد العبد من الدنيا والاخرة غيره قال الله تع واصبر
نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وقيل لرابعة رضه
الا تسالين الله في دعائك الجنة فقالت الجار قبل الدار وبهذا النظر قال بعضهم
من عبد الله بعوض فهو لئيم وقال بعضهم من العلماء هذه المنازل الثلثة منازل
الظالم والمقتصد والسابق واجدر ان يكون منازل هو الثلث ما روي عنه عم
انه قال سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء وقد قال بعض العلماء

مسالة العلماء تدعيك من الله في ثوابه وتخوفك من عقابه ومخالطة الحكماء يقربك
من الحمد وتبعدك من الذم ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل الباري تعالى
الموانع من تحري الفضائل وذلك ضربان قصور وتقصير فاما القصور فان لا يكون
له المعاني العشرة التي قدمناها ولا التمكن من اكتسابها او يكون له ذلك ولكن يعوقه
عن استعماله عائق من مرض او شغل ضروري يعذره لحاجته الى السعي فيما يسد
به جوعته ويستر عورته وهو عدم الوسع المذكور في قوله تع لا يكلف الله نفسا
الا وسعها ودواء الامرين الفزع الى الله والتضرع اليه بان يجبر نقصه بتمام
جوده وسعة رحمته واما التقصير فباربعة اشياء الاول ان يكون انسانا لا يعرف
الحق من الباطل والجميل من القبيح فيبقى غفلا ودواؤه سهل وهو التعليم الصالح
الثاني ان يكون قد عرف ذلك لكن لم يتعود فعل الصالح وزين له سوء عمله فراه
حسنا فتعاطاه وامره اصعب من الاول لكن يمكن ان يقهر على العادة الجميلة
حتى يتعودها وان كان قد قيل ترك العادة شديد والثالث ان يعتقد في الباطل
والقبيح انه حق وجميل وتربى على ذلك ومداواة ذلك صعب جدا فقد صار ممن طبع
على قلبه اذ قد تنقش نقش حسيس ككاغد كتب فيه ما يؤدي صرفه منه الى
حرقه وفساده والرابع ان يكون مع جهله وتربيته على الفساد شريرا في نفسه
يرى الخلاعة وقهر الناس فضيلة وذلك اصعب الوجوه والى نحوه قصد من قال
من التعذيب تاديب الذيب ليتهذب وغسل المسيح ليبيض فالاول من هولاء
الاربعة يقال له الجاهل والثاني يقال له جاهل وضال والثالث يقال له جاهل
وضال وفاسق والرابع يقال له جاهل وضال وفاسق وشرير **الارتقاء في درجات
الفضائل** والانحدار عنها الى اقصى الرذائل للانسان في منازل الفضائل
مرتقى صعب ومنحدر سهل وعلى الارتقاء فيها حث ربنا تع بقوله وسارعوا الى مغفرة

من ربكم وبقوله فاستبقوا الخيرات ومدح قوما بقوله اولئك يسارعون في الخيرات
وهم لها سابقون وعن الانحدار منها نهى تع بقوله اولئك يسارعون في الخيرات وهم
لها سابقون ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين وبقوله ولا تكونوا كالتي
نقضت غزلها الآية وذم قوما شانهم ذلك بقوله تع ان الذين ارتدوا على ادبارهم
من بعد ما الآية وبقوله ومنهم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا الآية
فان الآية يقتضي هذا المعنى وان كان ظاهرها يدل على الجهل الذي يورثه الهرم فالخير اثنتي
يترقى منها فيبلغ الى اشرف المنازل باربع درجات وينحدر عنها فيبلغ الى ارذل
المنازل باربع درجات فاما درجات الارتقاء فاولاها ان يرتدع الانسان عن
المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك معاودتها وذلك اول درجة التائبين
والمطيعين لله ورسوله وثانيها ان يقوم بالعبادات الموظفة عليه ويسارع
فيها بقدر وسعه وذلك درجة الصالحين وثالثها ان يتحرى بفعله الحقيقي تعاطي
الحسنات من غير ان يلتفت منه الى المحظورات بمجاهدة هواه واماتة شهواته وذلك
منزلة الشهداء ورابعها ان يكون مع هذه الاحوال المتقدمة يرضى ظاهرا وباطنا
بقضاء الله وقدره فلا يتزعزع تحت حكمه ولا يتسخط شيئا من امره ويعلم ان الله
اولى به من نفسه وذلك درجة الصديقين وهذه المنازل الاربعة هي المذكورة
بقوله من يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين الآية
واحرى ان يكون هذه المنازل الاربعة هي المامور بها في قوله تع يا ايها الذين آمنوا
اصبروا وصابروا الآية واعلم ان منزلة الرضاء اشرف المنازل بعد النبوة فمن
رضي عن الله فقد رضي الله عنه لقوله تع رضي الله عنهم ورضوا عنه فجعل احد الرضائين
مقرونا بالآخر فمن بلغ هذه المنزلة فقد عرف خساسة الدنيا واطلع على جنة المأوى
وخطب مودة الملاء الاعلى وحظي بمحبتهم المعنية بقوله تع والملائكة يدخلون عليهم

من كل باب سلام عليكم الآية واما درجات الانحدار والارتداد عنها فاولاها الكسل
عن تحري الخيرات ويورثه ذلك الزيغ المعني بقوله فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم الآية
وثانيها الغباوة وهو ترك النظر وبغض العمل فيورثه ذلك رينا على قلبه المعني
بقوله كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وثالثها الوقاحة وهو ان يرتكب
الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة القلب كما قال تع
ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة الآية ورابعها الانهماك
في الباطل وهو ان يستحسنه ويحبه ويحسنه فيورثه ذلك ختما على قلبه واقفالا عليه
كما قال تع ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم الآية وقال ام على قلوب اقفالها فالكسل
سبب الغباوة والغباوة سبب الوقاحة والوقاحة سبب الانهماك في الباطل
كما ان الزيغ اوجب الرين والرين اوجب القساوة والقساوة يوجب الختم والاقفال
فحق الانسان ان يتراعى نفسه في الابتداء ولا يترخص في ارتكاب الصغاير فيؤديه
الى ارتكاب الكباير ان الامور دقيقها مما يهيج لك العظيم وقد قال الله تع فان رجعك
الله الى طايفة منهم فاستاذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا الآية فدل ان قعودهم
اول مرة ادى بهم الى ان صار يحكم عليهم انه لا يتاتى منهم الخروج معه بوجه بيان
عادة الله في تهذيب الدين ترددوا في الرذايل حتى فسدت اخلاقهم الانسان متى
تركوا تعاطي الاحسان والافضال وتحري العدالة فيما بينهم ولا ياتونها لا خلقا
ولا رياء ولا سمعة ولا رغبة ولا رهبة فصاروا في تعاطي الشر سواسية كاسنان الحمار
عدم فيهم الفضايل كما قال عم لن يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا
فحق ان بقي في نفوسهم اثر قبول الخير انشاء الله فيهم من يهذبهم باللسان والسيف
ويحفظ كبعثة النبي عم في العرب لما بقي فيهم من اثر الخير من تعظيم الشهر الحرام والبيت
الحرام والوفاء بالذمام وان قل فيهم اثر قبول الخير سلط الله عليهم سيفا جائرا كما

قال تعالى وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا وكما قال عم ان الله لينتصف من اوليائه باوليائه
ومن اعدائه باعدائه وعاملهم بما عامل بني اسرائيل حيث سلط عليهم بخت نصر
وقد ذكر ذلك في قوله تعالى فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم الآية وان عدم منهم اثر
القبول بعث عليهم عذابا يفنيهم اما طوفانا او صيحة او نارا محرقة او ريحا فيها عذاب
اليم او الجراد والقمل والضفادع والدم ليطهر منهم البلاد فيريح منهم العباد صنع
الله تعالى بعاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط وذلك كالارض اذا استولى عليها الشوك
وهو الدغل لا بد من نسفها وبتسليط النار عليها حتى تعود بيضاء. اصناف الناس
الناس ضربان خاص وعام فالخاص ما قد تخصص من المعارف بالحقايق دون التقليدات
ومن الاعمال بما يتبلغ به الى الجنة المأوى دون ما يقتصر به على الحيوة الدنيا والعام
اذا اعتبر من ذلك فالذين يرضون من المعارف بالتقليدات ومن اكثر الاعمال بما
يؤدي الى منفعة دنيوية فاذا اعتبرنا امور الدنيا فالخاص من يتخصص بامور البلد
بما يتحرم احدى السياسات البدنية والعام من لا يتحرم باقتاد شيء منها وهم من وجه
آخر ثلثة خاصة وعامة واوساط والاوساط هم المسمون في كلام العرب بالسوقة
فالخاص هو الذي يسوس ولا يساس والعام الذي يساس ولا يسوس والوسط الذي
يسوسه من فوقه وهو يسوس من دونه ومن وجه آخر ثلثة اضرب اصحاب الشهوات
وهمهم اللذات والفساد والاكل والشرب والبعال واصحاب الكرامة والرياسة وهمهم
المدح واستجلاب الحمد والصيت واصحاب الحكمة ولكل واحد منهم من يستعظم من هو
من جنسه ولذا احتاج السلطان ان يتخصص بكل ذلك ويستبد به ليكون معظما
عند كل ضرب من الناس فيعظمه اصحاب الحكم لحكمته واصحاب الكرامة والرياسة
لرياسته واصحاب الشهوات بماله وكثرة قنياته ومن وجه آخر ثلثة اضرب ملكي وشيطاني
وانسي فالملكي الذي يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده وهم المؤمنون حقا والشيطاني

خلط
هو الذي يستعمل القوة الشهوية من غير تلفت منه الى مقتضى العقل والانسي الذي
عملا صالحا وآخر سيئا وهم المذكورون في قوله تعالى وكنتم ازواجا ثلثة الى قوله اولئك
المقربون ومن وجه آخر ضربان ابرار وفجار فالابرار ثلثة اضرب ظالم ومقتصد
وسابق وهم المذكورون في قوله تعالى ثم اورثنا الكتاب وهم ايضا اعني الابرار ثلثة
اضرب انبياء للمشاهدة والهداية كقوله تعالى لقد ارسلنا رسلنا الى قوله بالقسط
وحكماء وهم الاولياء للمراقبة والرعاية كقوله الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم
يحزنون الى قوله تعالى ذلك هو الفوز العظيم وعوام للمجاهدة والكفاية وهم المذكورون
في قوله تعالى يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم وهم ايضا ضربان عبد
بالطبع وان كان مملكا وملك بالطبع وان كان عبدا مسترقا والملك من حصل الفضائل
النفسية التي بها يصير الانسان بحيث يصح ان يوصف بانه رباني او الهي او ملكي
ويصلح ان يكون خليفة الله تعالى والعبد من قال النبي عم فيه تعس عبد الدرهم تعس عبد
الدينار تعس فلا انتعش واذا شيك فلا انتقش قال بعض العلماء ما من انسان الا وفيه
خلق من اخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات لكون الانسان مشاركا لهما
في الجنسية وان كان مباينا لهما في نوعيه فمن الناس غشوم كالاسد وغايظ كالذئب
وخب كالثعلب وشره كالخنزير وخاضع كالكلب ووقح كالذباب وبليد كالحمار
والوف كطير الوفاء وصنيع كالسرفة وانف كالاسد وغيور كالديك وهاد كالحمام
ومنهم حسن المنظر والمخبر كالاترج ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبلوط ومنهم قبيح
المنظر حسن المخبر كالجوز واللوز ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلى
والمؤمن الخيّر هو في الحيوانات كالنحل ياخذ اطايب الاشجار فلا تعطف ثمرا ولا تكسر
شجرا ولا يؤذي بشرا ثم تعطي الناس ما يكثر نفعه ويحلو طعمه ويطيب ريحه وفي الاشجار
هو كالاترج يطيب حملا ونورا وعودا وورقا ورايحة وطعما والمنافق والشرير هو

في ارضه الحيوانات كالنمل في ارضه وفي الاشجار كالكشوث فلا اصل ولا زرع ولا ورق
ولا نسيم ولا ظل ولا زهر يفسد الثمار وييبس الاشجار وكالسمرة التي قل ورقها وكثر
شوكها وصعب مرتقاها فيها **الفصل الثاني** في العقل والعلم والنطق وما يتعلق
بها وما يضادها العقل اول جوهر اوجده الله تعالى واشرفه بدلالة ما روي عن النبي عم
اول ما خلق الله العقل فقال له اقبل فاقبل ثم قال له ادبر فادبر ثم قال وعزتي
وجلالي ما خلقت خلقا اكرم علي منك بك اخذ وبك اعطي ولو كان على ما توهمه قوم
انه عرض لما صح ان يكون اول مخلوق لانه محال وجود شيء من الاعراض قبل وجود جوهر
يحله وقال عم لا عقل لمن لا دين له وقوله لا يعجبنكم اسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة
عقله ومن هذا الوجه الذي اشار النبي عم قالت الحكماء من لم يكن عقله اغلب
خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب خصال الخير عليه وبالعقل صار الانسان خليفة
الله تعالى ولو توهم مرتفعا لارتفعت الفضائل عن العالم فضلا عن الانسان وما
عني الله تعالى عنه في الانسان اهتدى من وفقه الله لتزكية نفسه المذكور في قوله
قد افلح من زكاها وحصل به حرث الآخرة المذكورة في قوله من كان يريد حرث الآخرة
نزد له في حرثه وثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة اشياء بقاء بلا فناء وقدرة
بلا عجز وعلم بلا جهل وغنى بلا فقر وامن بلا خوف وراحة بلا شغل وعز بلا ذل
والى العقل اشار بقوله تعالى الله نور السموات والارض والنور هو العقل وقد تقدم
فيه ضرب هذا المثل والعقل يقال على ضربين احدهما بغير اضافة وهو المذكور
بانه اول مخلوق والثاني بالاضافة الى احاد الناس فيقال عقل فلان. وهذا من
الاول بمنزلة الضوء من الشمس **انواع العقل** العقل عقلان غريزي وهو القوة
المتهيئة لقبول العلوم ووجوده في الطفل كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحبة
ومستفاد وهو الذي يتقوى به تلك القوة وهذا المستفاد ضربان ضرب يحصل

للانسان حالا فحالا بلا اختيار منه فلا يعرف كيف حصله ومن اين حصله وحصوله
بقدر اختياره في تحصيله ولكون العقل غريزيا ومستفادا قال امير المؤمنين علي
العقل عقلان مطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع اذا لم يكن مطبوعا كما لا ينفع
الشمس وضوء العين ممنوع والى الاول اشار النبي عم بقوله ما خلق الله تعالى خلقا
اكرم عليه من العقل والى الثاني اشار بقوله عم لعلي رض اذا تقرب الناس الى
خالقهم بابواب البر فتقرب انت اليه بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند
الله والناس في الدنيا والآخرة وقال ما كسب احد شيئا افضل من عقل يهديه الى
هدى او يرده عن ردى ولاختلاف النظرين قال قوم العقل مبدع وقال قوم
هو مكتسب وكلا القولين صحيح من وجه والعقل الغريزي للنفس بمنزلة البصر
للجسد والمستفاد بها بمنزلة النور فكما ان الجسد متى لم يكن له بصر فهو اعمى كذلك
النفس متى لم يكن لها بصيرة فهي عمية وكما ان البدن متى لم يكن له نور من الجو
لم يفد بصره كذلك النفس متى لم يكن لها نور من العلم مستفاد من العلم لم يجد
بصيرتها ولذلك قال الله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور وقد جعل الله
للعقل نظرا وادراكا ورؤية وابصارا وجعل له اضداده من العمى وغيره قال
الله تعالى وتريهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وقال ما كذب الفؤاد ما رأى وقال
وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض ولما كان فقدان البصيرة اشنع
من فقدان البصر لان بارتفاع البصيرة ارتفاع النفع بالنفس قال الله تعالى فانها
لا تعمى الابصار فذمهم بفقدان البصيرة تنبيها ان فقدانها اختياري اذ هو بتركهم
استفادة العلم واكثر فقدان البصر ضروري قال الله تعالى الذين كانت اعينهم في
غطاء عن ذكري فلولا ان العين اريد بها البصيرة لما قال عن ذكري لان الذكر
لا يدرك بحاسة العين وقال ابن عباس رض لمن عيره بفقدان البصر انا نعاب في ابصارنا

وانتم تصابون في بصائركم وكيف لا يكون فقدان البصيرة اعظم ضررا من فقدان
البصر وقد تعلم ان البدن بمنزلة فرس والنفس بمنزلة راكبه وضرر عمى الراكب بنفسه
اشد عليه من ضرر عمى فرسه **المكتسب من العقل** الدنيوي والاخروي العقل المكتسب
ضربان احدهما التجارب الدنيوية والمعارف الكسبية والثاني العلوم الاخروية
والمعارف الالهية وطريقاهما متنافيان وقد ضرب امير المؤمنين علي رضي الله عنه
لذلك بلله امثلة فقال ان مثل الدنيا والآخرة ككفتي الميزان لا ترجح احداهما
الا بنقصان الاخرى وكالمشرق والمغرب كل من قرب من احدهما بعد عن الآخر
وكالضرتين اذا ارضيت احداهما اسخطت الاخرى ولذلك يرى اقواما اكياسا
في تدبير الدنيا وسياستها بلهًا في امور الآخرة وقوما بلها في امور الدنيا
اكياسا في امور الآخرة حتى قال عم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت
وقال لمن نسب بعض الصالحين الى البله اكثر اهل الجنة البله ولاختلاف
طريقيهما قال الحسن رح لقد ادركنا قوما لو رايتموهم لقلتم مجانين ولو راوكم
لقالوا شياطين ولقلة الاعتداد بالمعارف الدنيوية قال رجل لمن وصف
نصرانيا بالعقل مه انما العاقل من وحد الله وعمل بطاعته وقال تع حكاية
عن اهل النار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير ومن تصور اختلاف
الطريقين اعني طريق الدنيا والآخرة لم يعترض الشبهة التي اعترضت لقوم
قالوا ان ههنا حمقا جهلة الذين لا يلحق شاوهم في تدبير الدنيا ودقائق
الصناعات وواضعو الحكم والسياسات وذلك انه كما ان من المحال ان يظفر
سالك طريق المشرق بما لا يوجد الا في المغرب او يظفر سالك طريق المغرب
بما لا يوجد الا في المشرق كذلك من المحال ان يظفر سالك طريق معارف الدنيا
بمعارف طريق الآخرة وقد نبه الله تع على ذلك بقوله ولكن اكثر الناس لا يعلمون

يعلمون ظاهرا الآية ولا يكاد يجمع بين معرفة طريق الدنيا والآخرة معا على التحقيق
والتصديق الا من رشحهم الله تع لتهذيب الناس في امر معاشهم ومعادهم
جميعا كالانبياء وبعض الحكماء ولما كان العقل هو الذي يردع الانسان
عن الذنب واكتسابه على التمام والكمال في الورى عسير لم ينفك احد من ذنب
يرتكبه ولذلك قال النبي م ما منا نبي الا اذنب او هم **معاني العقل** واختلاف
اساميها بحسبها العقل اسم عام لما يكون بالقوة وبالفعل ولما يكون غريزيا
ومكتسبا وهو في اللغة عبارة عن قيد البعير لئلا يند وسمي هذا الجوهر
تشبيها على عادتهم في استعارة اسماء المحسوسات للمعقولات وخص بناء
المصدر به لما كان يستعمل مرة للحدث ومرة للفاعل نحو عدل وصوم وزور
ومرة للمفعول نحو خلق وامر كلي يتصور منه كونه سببا لتقييد الانسان به وكونه
مقيدا له عن تعاطي ما لا يحل وكونه مقيدا به من بين الحيوان والنهى في الاصل
جمع نهية او اسم مفرد نحو جعل وصرد او وصف نحو دليل خشع وسابق حطم
وجعل اسما للعقل الذي انتهى من المحسوسات الى معرفة ما فيه من المعقولات
ولذا احيل اربابه على تدبر معاني المحسوسات نحو قوله تع اولم يهد لهم كم
اهلكنا الآية وقال وانزلنا من السماء ماء فاخرجنا به ازواجا من نبات
شتى الى قوله لاولي النهى والحجر اصله من الحجر اي المنع وهو اسم لما يلزم الانسان
من حظر الشرع والدخول في احكامه وعلى ذلك قوله تع هل في ذلك قسم لذي حجر
ويسمى حجى من حجا اي قطعه ومنه الاحجية فكانه سمي بذلك لكونه قاطعا
للانسان عما يقبح واما اللب فهو الذي خلص من عوارض الشبه وترشح لاستفادة
الحقائق من دون الفزع الى الحواس ولذلك علق الله تع في كل موضع ذكره
بحقائق المعقولات دون الامور المحسوسة نحو قوله تع ان في خلق السموات

والارض واختلاف الليل والنهار الآية فوصفهم بهداية الله اياهم وقد سمى الله تعالى
العلم نورا والجهل ظلمة فقال الله ولي الذين آمنوا الآية وسماه روحا في قوله تعالى
وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا وسماه حيوة والجهل موتا فقال او من كان
ميتا فاحييناه الآية وقوله وما يستوي الاحياء ولا الاموات الى قوله ان انت
الا نذير وسماه ماء بقوله انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها والايمان
زبد العقل والعمل ولذلك قال تعالى في مواضع ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون فعلق
به ما علق بها وسمى القلب العقل وذلك انه لما كان القلب مبدأ تأثير الروحانيات
والفضايل سميت به ولذلك عظم الله تعالى امره لاختصاصه بما قد اوجد لاجله
وقال تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم وقال ومن خشي
الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب وقال ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او
القى السمع وهو شهيد فنبه ان القلب انما يكون قلبا في الحقيقة اذا كان متخصصا
بما اوجد لاجله وما اوجد لاجله هو المعارف الحقيقية وقال عم ان في البدن
مضغة اذا استقامت استقام البدن واذا اعوجت اعوج البدن ولما كان
اشرف المعارف هو ما يختص به القلب قال الله تعالى نزل به الروح الامين على
قلبك فخصه بالذكر جلالة العقل وشرف العلم العقل حيث ما وجد كان محتشما
حتى ان الحيوان اذا رأى انسانا احتشمه بعض الاحتشام وانزجر بعض الانزجار
ولذلك ينقاد الابل للراعي ولذلك جماعة الرعاة اذا راوا منهم من كان ازيد
عقلا واعز فضلا فما هم بصدده انقادوا له والعلماء اذا لم يعاندوا انقادوا
ضرورة لاكثرهم علما وافضلهم تقاوا واوفرهم عقلا ولا ينكر فضله الا كل متدنس
بالمعايب متطلب لرياسته محافظ على غرض دنياوي قد جعل عقله خادما
لشهوته فالمحافظة على رياسته ينكر فضل الفاضل ولفضيلة العقل الوافر

كان كثير ممن كانوا يعاندون النبي عم ليقتلوه فلما كان الان وقع طرفهم عليه فقدر الله
لهم نور الله معربا عنه فالقى في قلوبهم منه رعبا فما نوء محمد عنه طايعا من حيث
لا يشعر بعد الا جاحدا ولهذا المعنى قال الشاعر لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت
بداهته تنبئك عن خبره وقد تقدم ان الانسان لم يتميز عن الحيوان والبهايم الا
بالعقل ولم يشرف الا بالعلم ومن شرف العلم ان كل حيوة انفكت منه وهي غير
معتد بها بل ليست في حكم الموجود فان الحيوة الحيوانية لم تحصل ما لم يقارنها
الاحساس فيتلذذ بما يوافقه ويطلبه ويتالم بما يخالفه فيهرب منه وذلك
احسن المعارف فمعنى الحيوة الانسانية انما اذا تعرت عن المعارف المختصة
بها ان لا يعتد بها ولهذا سمى الله تعالى الجاهل ميتا في غير موضع من كتابه فقال او
من كان ميتا فاحييناه ولاجل ان الحيوة تقارن العلم سمى الله تعالى العلم روحا
قوله وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا وقد ذكرنا ان حاجة الانسان الى العلم اكثر
من حاجته الى المال لان العلم نافع لا محالة والمال قد ينفع وقد يضر واذا نفع
فنفعه منقطع فمن استفاد علما ام ضيعه او تمكن من استفادته فاهمله فقد خسر
انتباه خسرانا مبينا كما قال تعالى واتل عليهم نبأ الذي آتيناه الآية

الفرق بين العلم والعقل

والعلم والمعرفة والدراية والحكمة العلم ادراك الشيء بحقيقته وهو ضربان احدهما
حصول صور المعلومات في النفس والثاني حكم النفس على الشيء بوجود شيء له هو موجود
او نفي شيء عنه هو غير موجود له نحو الحكم على زيد بانه خارج او ليس هو طايرا
فالاول هو الذي قد يسمى في الشرع وفي كلام الحكماء العقل المستفاد وفي النحو المعرفة
ويتعدى الى مفعول واحد والثاني يسمى العلم دون العقل ويتعدى الى مفعولين ولا يجوز
الاقتصار على احدهما من حيث ان القصد اذا قيل علمت زيدا منطلقا اثبات العلم
بانطلاق زيد دون العلم بزيد واعلم ان العلم والعقل بقياس احدهما الى الآخر على

ثلثة اوجه احدها عقل ليس بعلم وهو العقل الغريزي والثاني علم ليس بعقل وهو المتعدي
الى مفعولين والثالث عقل هو علم وعلم هو عقل وهو العقل المستفاد والعلم الذي
يقال له المعرفة ولم يصح ان يعدى العقل الى مفعولين فيقال عقلت زيدا منطلقا
كما يقال في علمت لكون العقل موضوعا للعلم البسيط دون المركب وسمي عقلا
من حيث انه مانع لصاحبه ان يقع افعاله على غير نظام وسمي علما من حيث
انه علامة على الشيء وهذا اذا اعتبر حقيقته مما تتبين به شرف اللغة العربية
واما الفرق بين العلم البسيط اعني المتعدي الى مفعول واحد وبين المعرفة فهو ان
المعرفة قد تقال فيما يدرك آثاره وان لم يدرك ذاته والعلم لا يكاد يقال الا فيما يدرك
ذاته ولهذا يقال فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله لما كانت معرفته تعالى ليست
الا بمعرفة آثاره دون معرفة ذاته وايضا فالمعرفة تقال فيما لا يعرف الا كونه موجودا
فقط والعلم اصله ان يقال فيما يعلم وجوده وجنسه وكيفيته وعلته ولهذا يقال
الله تعالى عالم بكذا ولا يقال عارف لما كان العرفان يستعمل في العلم القاصر وايضا
فالمعرفة تقال فيما يتوصل اليه بتفكر وتدبر والعلم قد يقال في ذلك وفي غيره ويضاد
العرفان الانكار والعلم الجهل واما الدراية فالمعرفة المدركة بضرب من الحيل وهو
تقديم المقدمة واجالة الخاطر واستعمال الروية واصله من دريت الصيد والدرية
يقال لما يتعلم عليه الطعن والناقة التي يسيبها الصائد ليانس الصيد بها فيرميه
من ورائها والمدرى يقال لما يصلح به الشعر ولقرن الشاة ولا يصح ان يوصف
بذلك البارئ تعالى لان معنى الحيل لا يصح عليه ولم يرد بذلك سمع فيتبع وقول الشاعر
لاهم لا ادري وانت تدري من تعجرف اجلاف الاعراب واما الحكمة فاسم
لكل علم حسن وعمل صالح وهو بالعلم العملي اخص منه بالعلم النظري وفي العمل اكثر
استعمالا منه في العلم واركان العمل لا يكون محكما من دون العلم به ومنها قيل

احكم العمل احكاما وحكم بكذا حكما والحكمة من الله تعالى اظهار الفضائل المعقولة والمحسوسة
ومن العباد معرفة ذلك بقدر طاقة البشر وقد حدت الحكمة بالفاظ مختلفة على
نظرات مختلفة فقيل هي معرفة الاشياء الموجودة بحقائقها ونعني كلياتها
فاما جزئياتها فلا سبيل للبشر الى الاحاطة بها وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعلم
وقيل هي اماتة الشهوات على ما يجب وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعمل فيما هو غاية
المدرك بالانسان وقيل هي الاقتداء بالخالق في السياسة بقدر طاقة البشر وذلك
بان يجتهد ان ينزه علمه عن الجهل وعدله عن الجور وجوده عن البخل وحلمه عن السفه
وبنحو هذا الفعل يقرب العبد من خالقه في الدنيا ونسبة العلوم الى الحكمة من وجه
كنسبة الاعضاء الى البدن في كونها ابعاضا لها ومن وجه كنسبة الاولاد الى
الام في كونها مولدة لها وهي في معارف الشرع اسم للعلوم العقلية المدركة بالعقل
وقد افرد ذكرها في عامة القرآن عن الكتاب فجعل الكتاب اسما لما لا يدرك الا من
جهة النبوات والحكمة لما لا يدرك من جهة العقل وجعلا منزلين وان كان انزالهما
من الله تعالى قد يكونان مختلفين وجمع بينهما في الذكر لحاجة كل واحد منهما الى الاخر
فقد قيل لولا الكتاب لاصبح العقل حائرا ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب وقد جعل
الكتاب بمنزلة اليد والحكمة بمنزلة الميزان ولا يعرف المقادير الا بهما ولذلك عبر
عن الحكمة بالميزان في قوله تعالى الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان ولا يبلغ الحكمة
الا احد رجلين اما مهذب في فهمه موفق في فعله ساعده معلم ناصح وكفاية وعمر
واما الذي يصطفيه الله فيفتح عليه ابواب الحكمة بفيض الهي ويلقي اليه
مقاليد جوده فيبلغ ذروة السعادة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو
الفضل العظيم **توابع العقل** العقل المشرق في الانسان يحصل عنه العلم والمعرفة
والدراية والحكمة وقد تقدم ذكرهن ويحصل عنه ايضا الذكاء والذهن والفهم

الفطنة وجودة الخاطر وجودة الوهم والتخيل والبديهة والروية والكيس والخبر واصابة
الظن والفراسة والزكانة والكهانة والعرافة والالهام والرؤية والنظر والراى والتدبير
وصحة الفكر وسرعة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة فاما الذكاء فاستعداد
في الامور وسرعة القطع بالحق واصله من ذكت النار وذكت الريح وشاة مذكاة
مدرك ذبحها بحدة السكين وذكى الرجل اذا تم فيه قوة الذكاء لكن لما كان اكثر ما
يوجد ذلك فيمن تمت سنه صار يعبر به عن تمام السن واما الذهن فقريب من
الذكاء لكن يقال في ادراك ما وقع فيه التنازع واما الفطنة فسرعة ادراك ما يقصد
اشكاله ولهذا يكثر استعماله في استنباط الاحاجى والرموز واما الفهم فمقدمة
العقل فمن لا يعرف معنى الشيء فما لم يتحققه عقلا وقد يسمى الفهم عقلا وان كانت منزلته
دون منزلة العقل فقوة الفهم ان يدرك به الاشياء الجزئية والعقل يدرك كلياتها
ومعنى ذلك ان العقل يدرك ان العدالة حسنة والظلم قبيح والفهم يميز بين كل واحد
من الفعل هل هو عدل او جور وقد يوصف بالفهم من لا يوصف بالعقل كالحاذق في لعب
الشطرنج وكل من يوصف بالعقل فانه يوصف بالفهم فاما الخاطر فحركة الفهم نحو الشيء
يقال خطر الشيء ببالي ولا يقال خطر بالي بالشيء فيجوز ان يكون ذلك من المقلوب كقولهم
عين ناصب وقد قيل في قولهم عقلت الشيء واحسب انه ايضا من المقلوب فالشيء
هو المؤثر في الحاسة والعقل لا اثر فيه واما الوهم فانقياد النفس لقبول اثر ما يرد
عليها من قولهم جمل وهم وطريق وهم والفرق بينه وبين الخاطر ان الخاطر يقال
فيما لا تقبله النفس والوهم فلا يقال الا فيما تقبله واما الخيال فنحو الوهم لكن يقال اعتبارا
بما يكون من جهة الحاسة وفيما له صورة ما ومنه سمى اللطيف الوارد من جهة
المحبوب خيالا والخيال قد يقال لتلك الصورة في المنام وفي التيقظ والطيف لا يقال
الا فيما كان في حال النوم ولهذا ينسب الطيف الى الخيال لما كان ذلك من حواليه

قال الشاعر فعاد ادركي الخيال وليكتفي بالعلو زند بطيف الخيال واما البديهة فمعرفة
ثاقبة يجىء بلا فكر ولا قصد فالبديهة في المعرفة كالبديع في الفعل واما الروية فما كان
من المعرفة بعد فكر كثير وهو من رويت واما الكيس فالقدرة على جودة استنباط
ما هو اصلح في بلوغ الخير ولهذا قال عم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت
من حيث انه لا خير بفضل الله الثبات افضل مما بعد الموت وقول العرب الكيس من
الحيل لتصورها بصورة الكيس لانها ذات كيس في الحقيقة وكاس في مشيته اى
اظهر الكيس برفع احدى رجليه وتسميتهم الغادر كيسان اما على طريق التهكم او سهما
ان الغادر يعد ذلك كيسا او لان كيسان في الاصل اسم الغادر ثم كل غادر كيسان
كتسميتهم كل صلف ناكيا واما الخبر فالمعرفة والتوصل اليها من قولهم خبرته اى
اصبت خبره وقيل هو من قولهم ناقة خبرة اى غزيرة فكان الخبر هو غزارة
المعرفة ويجوز ان يكون قولهم ناقة خبرة هي المخبرة عن غزارتها كقولهم ناقة تاجرة
واما الظن فاصابة المطلوب بضرب من الامارة ولما كانت الامارات مترددة
بين يقين وشك فيقرب تارة من طرف اليقين وتارة من طرف الشك صار يعبر
اهل اللغة بها متى راى الى طرف اليقين اقرب استعمل معه المثقلة والمخففة منها
مثل قوله الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم لا عرض احدها تنبيه ان علم اكثر الناس
في الدنيا بالاضافة الى علمه به في الآخرة كالظن في جنب العلم والثاني ان العلم
الحقيقي في الدنيا لا يكاد يحصل الا للنبيين والصديقين المعنيين بقوله تع
الذين امنوا بالله ورسوله الآية والظن متى كان عن امارة قوية فانه يمدح به ومتى
كان عن تخمين لم يعتمد ذم به كما قال الله تعالى ان بعض الظن اثم واما الفراسة
فالانسان بهيئات الانسان واشكاله والوانه واقواله على اخلاقه وفضائله ستدلال
ورذائله وربما يقال هي صناعة صيادة لمعرفة اخلاق الانسان واحواله وقد نبه

الله تعالى صدقها بقوله ان في ذلك لآيات للمتوسمين وبقوله تعرفهم بسيماهم
وبقوله ولتعرفنهم في لحن القول ولفظها مشتق من قولهم فرس السبع الشاة وكان
الفراسة اختلاس المعارف وذلك ضربان ضرب يحصل للانسان عن خاطر لا يعرف
سببه وذلك ضرب من الالهام بل ضرب من الوحي واياه عنى بقوله عم المؤمن ينظر
بنور الله وهو الذي يسمى صاحبه وهو المروع والمحدث وقال عم ان يكن في
هذه الامة محدث فهو عمر وقيل في قوله تعالى وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او
من وراء حجاب الآية ان ما كان من صاحبه بالقائه في الروع وذلك يكون للانبياء
كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وقد يكون بالالهام في حال اليقظة وقد يكون
في حال المنام ولذلك قال عم الرؤيا الصادقة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة
والضرب الثاني من الفراسة يكون بصناعة متعلمة وهي معرفة ما بين الالوان و
الاشكال وبين الامزجة وما بين الامزجة والاخلاق والافعال الطبيعية ومن عرف
ذلك كان ذا فهم ثاقب قوي في الفراسة وقد عمل في ذلك كتب من تتبع الصحاح
منها اطلع منها على صدق ما ضمنوه والفراسة ضرب من الظن وقد سئل بعض
محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال الظن بتقلب القلب والفراسة بنور الرب
قال ومن قوي فيه الروح المذكور في قوله ونفخت فيه من روحي كان ممن وصفه بقوله تعالى
افمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه وكان ذلك النور شاهدا عدلا
فيما حكم به ومن الفراسة قال صلعم في المتلاعنين ان امرهما بين لولا الحكم ابته ومن
الفراسة علم الرؤيا وقد عظم الله تعالى امره في جميع كتبه المنزلة وقال لنبيه عم وما
جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس الآية وقال تعالى اذ يريكهم الله في منامك
قليلا الى قوله والى الله ترجع الامور وقال في قصة ابراهيم الخليل عم يا بني اني
ارى في المنام اني اذبحك وقال تعالى حكاية عن يوسف عم يا ابت اني رايت

احد عشر كوكبا الآية والرؤيا من فعل النفس الناطقة ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لايجاد
هذه القوة في الانسان فائدة والله تعالى عن الباطل وهي ضربان ضرب وهو الاكثر
اضغاث احلام واحاديث النفس من الخواطر الرديئة لكون النفس في تلك الحال
كالماء المتموج الذي لا يقبل صورة وضرب وهو الاقل صحيح وذلك قسمان قسم
لا يحتاج الى تاويل وقسم يحتاج الى تاويل ولهذا احتاج المعبر الى مهارة ليفرق
بين الاضغاث وبين غيرها وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ويعرف
بين طبقات الناس اذ كان فيهم من لا يصلح له رؤيا ومنهم من يصح رؤياه
ثم من يصح له ذلك منهم من يرشح ان يلقى اليه في المنام الاشياء العظيمة الخطيرة
ومنهم من لا يرشح لذلك ولهذا قال اليونانيون يجب للمعبر ان يشتغل بعبارة رؤيا
الحكماء والملوك دون الطغام وذلك لان لهم حظا من النبوة وقد قال النبي عم
الرؤيا الصادقة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة وهذا العلم محتاج الى
مناسبة بين مخبره وبينه فرب حكيم لا يرزق حذاقة فيه ورب نزر الحظ من
الحكمة وسائر العلوم يوجد له فيه قوة عجيبة فاما الزكانة فضرب من الفراسة
وهو معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم وقد زكنت وازكنت
والقيافة ضرب من الزكانة لكنه ادق وهو ضربان احدهما تتبع اثر الاقدام
والاستدلال به على السالكين والثاني الاستدلال بهيئة الانسان وشكله
على نسبه وخص من العرب بالقيافة بنو مدلج وقيل ان ذلك مناسبة طبيعية
لا تتعلم وهي محكوم بها في الشرع وقال بعض الحكماء خص الله تعالى بذلك العرب لتكون
سببا لارتداع نسائهم عما يورث شوب نسبهم وخبث حسبهم وفساد
بذورهم وزروعهم صيانة لنسب النبوة وليكون ذلك شرفا للنبي عليه السلام
ولاجل حفظه تعالى نسبهم بذلك قال وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا اي ليعرف

بعضكم بعضاً بمعرفة اصلية واما الكهانة والعرافة فان الكهانة مختصة بالامور المستقبلة
والعرافة مختصة بالامور الماضية وكان ذلك في العرب كثيراً وآخر من وجد وروي
عنه الاخبار العجيبة سطيح وسواد بن قارب وقيل كان وجود ذلك في العرب احد
اسباب معجزات النبي عم لما كان يخبر به ويحث على اتباعه ثم نزع عنهم ذلك بعد النبوة
حتى روي لا كهانة بعد النبوة وقال عم من اتى عرافاً او كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر
بما انزل على محمد تنبيهاً على انه قد رفع ومما يجري مجراها الطيرة وهو تشاؤم الانسان
بشيء يقع تحت المناظر والمسامع مما ينفر منه النفس ما ليس بطبيعي فاما ما يتفاداه مما هو
طبيعي في الانسان كتفاديه عن صرير الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا واشتقاقه
من الطير واصله في زجر الطير وما سواه ملحق به على ذلك قول الشاعر وما انا ممن
يزجر الطير همه اصاح غراب ام تعرض طاير ثم كثر في غيره حتى قال تعالى
حكاية عمن اخبر عنه قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله اي السبب الذي
يسعدكم ويشقيكم عند الله وقال تع وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الآية
وسمي عمل الانسان الذي يعاقب عليه طايراً قال تع وكل انسان الزمناه طايره في
عنقه والنظر هو اجالة الخاطر نحو المودى لادراك البصيرة اياه فللقلب عين
كما ان للبدن عيناً لمن صح عين قلبه واعانه نور الله اطلع على حقايق الاشياء
وادرك العالم العلوي وهو في الدنيا فيرى ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر
على قلب بشر ولكون الاطلاع عليه قال امير المؤمنين علي كرم الله وجهه لو كشف
الغطاء ما ازددت يقيناً والروية اجالة الخاطر في رؤية ما يريده وقد يقال للقضية
التي يثبت عن الروية راي والراي للفكرة كالآلة للصانع التي لا يستغني عنها
ولا يكون الا في الامور الممكنة دون الواجبة والممتنعة ويكون في جملة الممكنات
مما يكون الينا فالطبيب لا يجيل رايه في بقاء البدن دائماً انما يجيله في كيفية الوصول

اليه ويحتاج الراي الى اربعة اشياء اثنان من جهة الزمان في التقديم والتاخير
احدهما ان يعيد النظر فيما يرتئيه ولا يعجل امضاءه حتى يختمر فقد قيل اياك والراي
الفطير وقد قيل دع الراي يختمر واكثر من يستعجل في ذلك ذوو النفوس الشهمة
والامزجة الحادة والثاني ان لا يدافع به بعد احكامه فقد قيل روّ فتحزم واذا
استوضحت فاعزم وقيل احزم الناس من اذا وضح له الامر صدع فيه وقال تعالى
فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين واكثر من يدافع ذوو النفوس المهينة
والامزجة الباردة واثنان من جهة الناس احدهما ترك الاستبداد بالراي فالمستبد
بالراي من فعل المعجب بنفسه وقد قيل الاحمق من قطعه العجب بنفسه عن الاستشارة والاستبداد
عن الاستخارة والثاني ان يتخير من يجوز مشاورته فما كل ذي لب بموتيك نصحه
وما كل موت نصحه بلبيب ولكن اذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب
ومن دخل في امر بعد الاحتراز عن هذه الاربعة فقد احكم تدبيره فان لم ينجح عمله
لم يلحقه مذمة واما التدبير فنحو الراي لكن يقال لما استعمل في النظر في عواقب
الامور واشتقاقه يقتضي ذلك لانه تامل دبر الامر وعليه حث الشاعر ومن ترك
العواقب مهملات فاكثر سعيه ابداً تباب واما الفكرة فقوة مطرقة للعلم الى المعلوم
وهو تخيل عقلي موجود في الانسان والتفكر جولان تلك القوة بين الخواطر بحسب
نظر العقل وقد يقال للتفكر الفكر وربما ضل الفكر واخطا لضلال الرايد
وخطائه والتفكر لا يكون الا فيما له مايئة مما يصح ان يجعل له صورة في القلب
مفهوماً ولاجل ذلك قال النبي عم تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في الله وقال تع
اولم يتفكروا في ملكوت السموات والارض وقال كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم
تتفكرون الآية وسئل بعض العلماء عن الفكر والعبرة فقال الفكر ان يجعل
الغايب حاضراً والعبرة ان يجعل الحاضر غايباً واما الذكر فوجود الشيء في القلب

او في اللسان وذلك ان الشيء له اربع درجات وجود في ذاته ووجود في وقلب الانسان
ووجود في لفظه فوجوده في ذاته هو سبب لوجوده في قلب الانسان ووجوده
في قلبه هو سبب الوجود في لسانه ولوجوده في كتابته ويقال للوجودين اعني
الوجود في القلب والوجود في اللسان الذكر ولا اعتداد بذكر اللسان ما لم يكن
ذلك عن ذكره بالقلب بل لا يكون ذلك ذكرا والذكر بالقلب ضربان احدهما سهو عن
ما قد استثبته القلب فانمحى عنه بنسيان او غفلة وهذا هو في الحقيقة التذكر
والثاني اثبات وجود الشيء في القلب من غير نسيان او غفلة وذكر الله تعالى
على نحو الاول غير مرضي عند الاولياء وانما يحمد اذا كان على نحو الثاني
واعلم ان ذكر الله تعالى تارة يكون بعظمته فيتولد منه الاجلال والهيبة وتارة
يكون بقدرته فيتولد منه الخوف والحزن وتارة بفضله ورحمته فيتولد منه
الرجاء وتارة بنعمته فيتولد منه الشكر ولذلك قيل ذكر النعم شكرها وتارة بافعاله
الباهرة فيتولد منه العبادة العبرة فحق المؤمن ان لا يعرى ابدا من ذكره على
احد هذه الوجوه وعليها دل قول الله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف
الليل والنهار الى قوله فقنا عذاب النار اي يذكرونه في كل حال لا يعرى الانسان
من هذه الاوجه الثلاثة فان قيل ما حقيقة ذكر الله تعالى عند ابتداء الاعمال
حتى قال عم كل امر ذي بال لم يبدا فيه بذكر الله فهو ابتر قيل تنبيه بذكره ان
الامور كلها يجب ان يقصد بها وجه الله تعالى وان كل امر لا يقصد به ذلك فهو ابتر
وشرع ذكره باللسان ليكون سببا لتذكره بالقلب فيتحرى بفعله وجه الله
ولا يعمل ما ينافي رضاه وعلى ذلك قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت اي اذا عرض
لك نسيان لما يلزمك فاذكر ربك يتذكر به انه مطلع عليك ولهذا قال عم
اعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك واما الحفظ فالمواظبة على مراعاة

الشيء وقلة الغفلة عنه ومنه محافظة الحرم حتى قيل للغضب المقتضي لذلك حفيظة
ويقال لثبات صورة الشيء في القلب حفظ ويقال للقوة الحافظة ايضا حفظ وفلان
جيد الحفظ اي القوة الحافظة والحفظ للنفس جار من وجه مجرى الخزانة للملك
يضع فيها الذخاير الى وقت الحاجة ومن وجه جار مجرى الكتاب الذي يكتب فيه
الشيء ليرجع اليه فيتذكر به والناس يتفاوتون فيه بحسب امزجتهم فمنهم من
قوى الله تعالى ذلك فيه كما جعله لنبيه عم فلذلك كان كونه اميا شرفا له اذ كان له من
الحفظ ما يغنيه عن الاستعانة بالكتابة ولهذا قال تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به
ان علينا جمعه وقرآنه فضمن انه يحفظ عليه بما جعل له من القوة الالهية وروي
انه لما نزل قوله تعالى وتعيها اذن واعية قال النبي صم لعلي سالت الله تعالى ان يجعلها
اذنك فلم يسمع بعد ذلك شيئا الا وعاه ومن الناس من يسرع اليه النسيان
فما يسمعه يكون كالخط يكتب في بسط الماء واما البلاغة فاجادة اختيار الالفاظ
والاصابة في ما يبنيها وقدرها ومعناها وتحري الصدق فيها ولا يكون الكلام تام
البلاغة ما لم يجمع هذه المعاني فانه متى قبح اللفظ او قبح التاليف او كان
اكثر مما يجب او اقل مما يجب او لم يطابق اللفظ المعنى اما حقيقة او استعارة رايقة
او كان المعنى محالا او كذبا خرج الكلام بقدر ما اختل منه من باب البلاغة وقد
وصفت البلاغة باوصاف مختلفة بحسب انظار مختلفة فقال بعضهم البلاغة هي
الايجاز من غير عجز والاطناب من غير خطل وقيل ما فهمه العامة ورضيه الخاصة
وقيل ما اختيار فساده الى غير ذلك من الاوصاف واما الفصاحة فاشتقاقها
من فصح اللبن اذا خلص وهي الاصابة في اللفظ بغير اختصار والايتلاف دون
اعتبار الصدق وصواب المعنى وكل كلام جزل اللفظ حسن التركيب فموصوف
بالفصاحة صدقا كان او كذبا فالبلاغة ترجع الى اللفظ والمعنى والفصاحة الى

اللفظ دون المعنى **ثمرة العقل** من معرفة الله تعالى الضرورية والمكتسبة وغاية ما يبلغ
الانسان من ذلك اشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته
وعلى ذلك دل قوله عليه السلام العقل ثلثة اجزاء جزء معرفة الله وجزء طاعة الله وجزء الصبر
عن معصية الله وقال عليه السلام الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء
وماله الفقه وثمرته العلم فمعرفة الله تعالى العامة مركوزة في النفس وهي معرفة كل
احد انه مفعول وان له فاعلا فعله ونقله في الاحوال المختلفة واليه اشار بقوله تعالى
فطرة الله التي فطر الناس عليها وقوله صبغة الله ومن احسن من الله صبغة
وقوله واذ اخذ ربك من بني آدم الآية فهذا القدر من المعرفة في نفس كل احد و
ينبه الغافل عنه اذا نبه عليه فيعرفه كما يعرف ان من هو مساو لغيره فذلك الغير
مساو له ومن هذا الوجه قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقال في
مخاطبة المؤمنين والكافرين ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون ثم قال بعده
ثم اذا كشف الضر عنكم الآية واما معرفة الله تعالى المكتسبة فمعرفة توحيده وصفاته
وما يجب ان يثبت له من الصفات وما يجب ان ينفى عنه وهذه المعرفة هي التي
دعا الانبياء عليهم السلام اليها وحثوا عليها ولذا قال كلهم قولوا لا اله الا الله ولم
يدع احد الى معرفة الله تعالى بل دعا الى توحيده وهذه المعرفة اعني المكتسبة
على ثلثة اضرب ضرب لا يكاد يدركه الا نبي او صديق او شهيد ومن داناهم
وذلك معرفته بالنور الالهي من حيث لا يعتري فيه شك بوجه كما قال تعالى انما
المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وضرب يدرك بغلبة الظن
الذي يغني اهل اللغة باليقين كما قال الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم
الآية وضرب يدرك بخيالات ونقل وتقليدات واياه عني بقوله تعالى وما يؤمن
اكثرهم بالله الا وهم مشركون فالاول يجري مجرى ادراك الشيء من قريب

ولذا قال تعالى في وصفهم ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد
والثاني يجري مجرى ادراك الشيء من بعيد وقد يعتري فيه شبهة ولكن تزول
بادنى تامل كما قال تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان الآية والثالث
يجري مجرى من يرى الشيء من وراء ستر من بعيد ولا ينفك من شبهات
كما اخبر تعالى عن هذه حاله بقوله ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين ولاجل
صعوبة معرفة الله تعالى على الحقيقة حتى يتخلص الانسان من آفات الشرك
قال تعالى وما يؤمن اكثرهم الا وهم مشركون قال تعالى وما يؤمن قل اني امرت ان
اعبد الله مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه وقال عليه السلام من قال لا اله الا الله
مخلصا دخل الجنة وغاية معرفة الانسان بربه ان يعرف اجناس الموجودات
جواهرها واعراضها المحسوسة والمعقولة ويعرف اثر الصنعة فيها وانها محدثة
وان محدثها ليس اياها ولا مثلا لها بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع بقائه
ولا يصح بقاؤها وارتفاعه وبهذا النظر قال الصديق رضه سبحان من لم يجعل
لخلقه سبيلا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته بل لذا قال النبي عليه السلام تفكروا في
آلاء الله ولا تفكروا في الله ولما كان معرفة العالم كله يصعب على الانسان الواحد
لقصور افهام بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التي تعرفنا منهم جعل
لكل انسان من بدنه ونفسه عالما صغيرا اوجد فيه مثال كل ما هو موجود في العالم
الكبير ليجري ذلك من العالم مجرى مختصر من الكتاب البسيط مع كل احد نسخة يتا ملها
في الحضر والسفر والليل والنهار فان نشط وتفرغ المتوسط في العلم نظر في
الكتاب الكبير الذي هو العالم فيطلع منه على الملكوت ليغزر علمه ويتسع
فهمه والا فليقنع بالمختصر الذي معه ولذا قال تعالى وفي انفسكم افلا تبصرون ولشرف
منافع ذلك قال تعالى اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وقال

ان في خلق السموات والارض الى قوله فقنا عذاب النار فنبه على انهم حيث قالوا
ربنا ما خلقت هذا باطلا انهم عرفوا الغرض المقصود بخلقه وذلك هو آخر الابحاث
لان الابحاث اربعة بحث عن وجود الشيء بهل هو وبحث عن جنسه بما هو وبحث
عما يباين به غيره باي شيء هو وبحث عن الغرض بلم هو وهذه الابحاث يبتني
بعضها على بعض فلا يصح معرفة الثاني الا بمعرفة الاول ولا معرفة الثالث الا
بمعرفة الثاني ولا معرفة الرابع الا بمعرفة الثالث وقوله ربنا ما خلقت هذا
باطلا يقتضي انهم عرفوا الابحاث الاربعة والا شهدوا بما لم يتحققوا ومن
شهد بما لا يتحقق كذب وان كان ما شهد به على ما شهد به الا ترى ان الله تعالى
كذب المنافقين حيث قالوا انك لرسول الله وان كان هو رسوله فدلت هذه
الآية على ان البحث الذي يؤدي الى معرفة حقائق الموجودات الذي يقتضي معرفة
الله تعالى هو من العلوم الشرعية بخلاف قول الصم البكم العمي الذين لم يجعل الله
لهم نورا حيث يدعوا من اشتغل بمعرفة ذلك **وجوب بعثة الانبياء عم** و
قلة الاستغناء عنهم بعثة الانبياء الى الناس من الضروريات التي لا بد لهم منها
وذلك ان جل الناس تقصر عن معرفة منافعهم ومضارهم الاخروية جزئياتها
وكلياتها وبعضهم وان كان لهم سبيل الى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة
فليس لهم سبيل الى معرفة جزئياتها ولا يمكنهم ان يعرفوا كيف يجب ولا في اي
وقت يجب وكم يجب فلما كان كذلك من الله تعالى على كافة عباده خاصتهم وعامتهم
برسل بعثهم فيهم من انفسهم يتلون عليهم آياته ويزكونهم ويعلمونهم الكتاب
والحكمة لكن اذا تمسكوا بذلك صلح معادهم ومعاشهم وسهل عليهم ادراكهم
ولذا ازاح الله تعالى عللهم ببعثة الانبياء فقال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا
ما يعرف به صحة النبوة لكل نبي آيتان احدهما عقلية يعرفها اولوا البصائر

من الصديقين والشهداء ومن يجري مجراهم والثانية حسية يدركها اولوا البصائر
من العامة فالاولى ما لهم من الاصول الزكية وصورهم المرضية وعلومهم الباهرة
ودلايلهم المتقدمة عليهم والمتصحبة لهم وانوارهم الساطعة التي لا تخفى على اولي
البصائر كما قال الشاعر في مدح النبي صلعم لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته
تنبيك عن خبره وذلك ان حق النبي عم ان يكون من اكرم بيت في العالم وحيث يكون
عقل اربابها اوفر ولهذا لم يبعث نبي من الاطراف التي تضعف عقول اربابها و
يجب ان يكون من عنصر كريم من منبت الفضل ولهذا قال تعالى ان الله اصطفى آدم ونوحا
وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض انه جعل النبوة في اهل
بيت واحد لا تخرج عنهم لكونهم اشرف ويجب ان يكون عليه انوار بروق من بداياته
واخلاق بملك من ابتلائه كما قال تعالى والقيت عليك محبة مني وقال للنبي عم وانك
لعلى خلق عظيم ويجب ان يكون كلامه ذا حجة وبيان يشفي سامعه اذا كان مختصا
بنور العقل ولذلك قال تعالى وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا الآية وهذه الاحوال
اذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها الى معجزة ولا يبطلها كما لا يبطل الانبياء
من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة ولهذا لما عرض النبي صلعم على الصديق ابي بكر
الاسلام تلقاه بالقبول حتى قال عم لما عرضت عليه الاسلام الا كانت له كبوة
غير ابي بكر فانه لم يتلعثم فيه واما الآية الثانية فهي المعجزة التي يدركها الخواص
من الانبياء وذلك يطلبه احد رجلين اما ناقص عن معرفة الفرق بين الكلام الالهي
وبين الكلام البشري وعن ادراك سائر ما تقدم ذكره فيحتاج الى ما يدركه حسه لقصوره
٢ عن ادراك ذلك واما ناقص وهو مع نقصه معاند فيقصد بما يطلبه العناد كما قال
حكاية عن الكفار وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله تعالى قل سبحان
ربي هل كنت الا بشرا رسولا **كون الرسل** والعقل هادين للخلق الى الحق تعالى عز وجل

رسولان الى الخلائق احدهما من الباطن وهو العقل والثاني من الظاهر وهو الرسول
ولا سبيل لاحد الى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه الانتفاع بالباطن فبالباطن
يعرف صحة دعوى الظاهر ولولاه لما كانت تلزم الحجة بقوله ولهذا احال الله من تشكك
في وحدانيته وصحة نبوة انبيائه على العقل وامره بان يفزع اليه في معرفة صحتها
فالعقل قائد والدين مسدد ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيا ولو لم يكن الدين
لاصبح العقل حائرا واجتماعهما كما قال تعالى نور على نور **في تعذر ادراك العلوم النبوية**
على من لم يتهذب في الامور العقلية المعقولات تجري مجرى الادوية الجالبة للصحة
والشرعيات تجري مجرى الاغذية الحافظة للصحة كما ان الجسم متى كان مريضا لم ينتفع
بالاغذية بل يستضر بها كذلك من كان مريض النفس كما قال تعالى في قلوبهم مرض لم ينتفع
بسماع القرآن الذي هو موضوع الشرعيات بل صار ذلك ضارا له مضرة الغذاء
للمريض ولهذا قال تعالى واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه الآية وايضا
فالقلب بمنزلة مزرعة للمعتقدات والاعتقاد فيه بمنزلة البذر ان خيرا وان شرا
فكلام الله تعالى بمنزلة الماء الذي يسقيه ولهذا سماه ماء على ما تقدم ذكره فكما ان الماء
اذا سقي الارض يختلف نباته بحسب اختلاف بذوره كذا القرآن اذا ورد على الاعتقادات
في القلوب تختلف تأثيراته والى ذلك اشار بقوله تعالى وفي الارض قطع متجاورات
الآية وقال تعالى والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا
وايضا فالجهل بالمعقولات جار مجرى ستر مرخى على البصر وغشاء على القلب ووقر
في الاذن والقرآن لا يدرك حقائقه الا من كشف غطاؤه ورفع غشاؤه وازيل وقره
ولهذا قال تعالى واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون الآية وايضا
فالمعقولات كالحيوة التي بها الابصار والاستماع والقرآن كالمدرك بالسمع والبصر وكما
انه من المحال ان يبصر ويسمع الميت قبل ان يجعل الله فيه الروح ويجعل له السمع والبصر

كذلك من المحال ان يدرك من لم يحصل المعقولات حقائق الشرعيات ولهذا قال تعالى انك لا تسمع الموتى
ولا تسمع الصم الدعاء الآيتين يعني آيات السموات والارض وغيرها **الايمان والاسلام**
والتقوى والبر الايمان هو الاذعان للحق على سبيل التصديق تولّه باليقين ولهذا وصف
الله تعالى العلم والايمان بوصف واحد فقال انما يخشى الله من عباده العلماء وقال
انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل القلق هو الخشية للحق على سبيل
التصديق تولّه باليقين هذا اصل الايمان لكن صار اسما لشريعة نبينا محمد عم كالاسلام
وصح ان يطلق على من يظهر ذلك وان لم يختص به اعتقادا عن يقين وثلج صدر كاليهودي
فان اصله منسوب الى يهود والنصراني فان اصله منسوب الى نصران وهي قرية ثم صارا
اسمين للمختصين بالشريعتين على ان اشتقاق الايمان لا يمنع من ان يطلق على من يظهر
فان معنى المؤمن هو من صار ذا امن وباظهار الشهادتين يأمن الانسان من ان يراق
دمه او يباح ماله في الحكم ولهذا قال صلعم من قال لا اله الا الله فقد عصم مني دمه وماله
الا بحق وروي شهادة ان لا اله الا الله كلمة جعلها الله بيننا فمن قالها من قلبه فهو مؤمن
ومن قالها بلسانه ولم يكن في قلبه كان له ما لنا وعليه ما علينا وحسابه على الله
وذلك انه لا يطلع على القلوب الا خالقها والشريعة واردة بان يطلق اسم الايمان
على من يظهر ذلك من نفسه من غير تمحيص عن قلبه فلا يتحاشى من اطلاق ذلك عليه ما لم
يظهر منه ما ينافي الايمان بخلاف ما ادعاه بعض المعتزلة بانه لا يصح اطلاق اسم المؤمن
على الانسان ما لم يختبر في الاصول الخمسة ويوقف منه على حقيقة ما عنده والاسلام
هو الاستسلام لما يدعو اليه الشرع من فعل ما يقتضي فعله والملة القود الى الطاعة
والدين الانقياد له وهما بالذات واحد لكن الدين هو الطاعة فيقال اعتبارا بفعل
المدعو في انقياده الى الطاعة والملة من امللت الكتاب فيقال اعتبارا بفعل الداعي
اليها والشارع لها ولكونهما بالذات واحدا قال تعالى دينا قيما ملة ابراهيم فابدل الملة

الا في الحق
من الدين والدين اعم من الاسلام اذ هو يستعمل في الحق والباطل والاسلام لا يستعمل
ولهذا قال الله تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقال ومن يبتغ غير الاسلام دينا
فلن يقبل منه والاحسان تحري الحسنى في الايمان والاسلام ولهذا قال عم لما قيل له
ما الاحسان فقال ان تعبد الله كانك تراه والتقوى جعل النفس في وقاية من سخط
الله وذلك بقمع الهوى والبر السعة في علم الحق وفعل الخير مشتق اي السعة في الارض
وهو المعبر عنه بانشراح الصدر واطمئنان القلب وقال النبي صم البر ما سكنت
اليه نفسك واطمان اليه قلبك والاثم ما حاك في نفسك وتردد في صدرك وقال البر
طمانينة والشر ريبة ومن البر الجود ولذلك جعل الجود من الايمان قال تعالى فمن يرد الله
ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن بره الاخلاص والاخلاص قصد الانسان فيما
يفعل وجه الله تعالى متبريا عن الالتفات الى غيره ولذلك قال تعالى وما امروا الا ليعبدوا
الله الآية ولعله وجود ذلك قال تعالى وما يؤمن اكثرهم الا وهم مشركون ولما كان الايمان
يقال باعتبار العلم وهو متعلق بالقلب والاسلام بفعل الجوارح والتقوى بقمع الهوى
قال صم الاسلام علانية والايمان في القلب والتقوى ههنا واشار الى صدره ولما
كان الصدر مقر قوى الانسان من الفكرة والشهوة والغضب قال ولا يستقيم ايمان
عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه وقال الايمان قايد والعقل
سايق والنفس حرون فان ابى قايدها لم يستقم لسايقها وان ابى سايقها لم تطع قايدها
ولما كان الايمان والاسلام والتقوى متلازمة قال في الجنة اعدت للمتقين وقال
في موضع آخر وجنة عرضها السموات والارض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله وقال
بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه **في الايمان** اختلف في الايمان
هل هو الاعتقاد المجرد ام الاعتقاد والعمل معا واختلافهم بحسب اختلاف نظرهم
فمن قال هو الاعتقاد المجرد نظر منه الى اشتقاق اللفظ والى انه قد فصل بينهما

في عامة القرآن فعطف العمل عليه كقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولان النبي عم
فرق بينهما في خبر جبرائيل حين ساله عن الاسلام وعن الايمان ففسر الاول بالاعمال والثاني
بالاعتقاد ومن قال هو الاعتقاد والعمل فلقوله عم الايمان معرفة بالقلب واقرار
باللسان وعمل بالاركان ولذلك اختلفوا هل يكون في الايمان زيادة ونقصان فقال
قوم يكون ذلك فيه لقوله تعالى فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا الآية وقوله واذا تليت
عليهم آياته زادتهم ايمانا وقوله ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ومن خالفهم قال الشيء
انما يزيد بغلبته على ضده وينقص بغلبة ضده عليه قالوا والايمان لا يحصل الا
بعد ان يكون غالبا على الكفر فلا يضامه حتى يقال انه غلب عليه ولذلك اختلفوا في
جواز اطلاق اسم الايمان على من اقر بالشهادتين فقال بعضهم يجوز ذلك نظرا منه
الى قوله عم في الجارية التي سالها عن الله فاشارت نحو السماء وعن النبوة فاشارت
اليه عم فقال اعتقها فانها مؤمنة ولان الايمان ليس بذي منزلة واحدة ومن قال
لا يجوز فنظر منه الى قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ولما روي
عنه عم انه من قال انا مؤمن فهو فاسق ومن قال انا عالم فهو جاهل فان قيل ما معنى
قوله صم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مومن
قيل الايمان ذو منازل كما وصفه الله وانما يكون الانسان مؤمنا بلا مثنويه اذا
استوعب منازله كلها فتحرى من جميع الشرور وتخصص بجميع الخيرات على قدر
طاقة البشر ومتى انخرم بعض ذلك خرج هو عما هو كقولهم عشرة في كونه اسما للعدد
المخصوص اذا سقط بعضه سقط ذلك الاسم عنه ومن شرط الايمان الكامل
ان لا يكون زانيا ولا سارقا **في معنى قول النبي عم** الايمان بضع وسبعون بابا ثبت
الحديث عن رسول الله صم انه قال الايمان بضع وسبعون بابا اعلاها شهادة ان
لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق وهذه لفظ من تاملها وعرف

حقيقتها علم بالواجب ان الايمان هو اثنان وسبعون درجة لا يصلح ان يكون اكثر منها
ولا اقل ولا يوجد من الايمان ما هو خارج عنها بوصفه وانه عم فيما يورده كما وصفه عز وجل
بقوله وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى وبيان ذلك ان الايماني
شيئان اعتقاد واعمال فالاعتقاد على منازل يقيني لا يعتريه شك ولا شبهة بوجه
كما قال تع الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا الآية وظني وذلك ما كان عن امارات
قوية واعني بالظن ما يفسره اهل اللغة باليقين نحو قوله تع الذين يظنون انهم ملاقوا
ربهم وتقليدي وذلك ما يعتقد عن راى اهل البصاير كما وصفه تع بقوله ولو ردوه
الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم والاعمال ثلثة عمارة الارض
المعينة بقوله تع واستعمركم فيها وعبادة الله تع المعينة بقوله وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون وخلافة المعينة بقوله تع ويستخلفكم فيها وقوله اني جاعل في الارض
خليفة وذلك بتحري مكارم الشريعة فهذه ستة ولكل واحد من هذه اما ان يتحراه
الانسان عن رهبة او رغبة كما قال تع يدعوننا رغبا ورهبا او يتحراه على اخلاص
تطوع واهتزاز نفس كما قال تع واخلصوا دينهم لله فهذه اثنتي عشرة منزلة ولكل
واحد من هذه المنازل اما ان يكون الانسان في مبداها او وسطها او منتهاها الى
كل فضيلة ورذيلة لا ينفك الانسان فيها عن هذه الاحوال الثلث ولذا قال تع في الفضيلة
ولذا قال تع في الفضيلة ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا الآية
وقال في الرذيلة الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا فجعل منازل الايمان ومنازل
التقوى ثلثة كما ترى فهذه اثنتي عشرة في ثلثة يكون ستة وثلثين ولكل واحد من
هذه الستة والثلثين فاما ان يتوصل اليه الانسان من طريق الاجتباء
او من طريق الهداية فالاجتباء للانبياء ومن يليهم من الاولياء وهو ايثار
الله تع بعض عباده بفيض الهي ياتيهم الحكمة بلا سعي منهم وعلى هذا قوله

وكذلك يجتبيك ربك وقوله تع ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء والاهتداء
للحكماء والعلماء وهو توفيق الله تع العبد ليطلب بسعيه وجهده الحكمة فيحصل
له منها بقدر ما يتحمل من المشقة واما بهما عنى بقوله تع الله يجتبي اليه من يشاء
ويهدي اليه من ينيب وقوله تع ممن هدينا واجتبينا فهذه اثنان وسبعون درجة
لا يمكن الزيادة عليها ولا النقصان منها وكل ما ورد من الاخبار فليس بخارج
منها والله الموفق فما هو من جملة العبادة قوله ع م الوضوء نصف الايمان وقوله ع م
الايمان الصلوة ومن فرغ لها قلبه واقامها بحدودها ووقتها وسنتها وما هو
من مكارم الشريعة قوله ع م الحياء من الايمان ولا يجتمع شح وايمان في قلب عبد
وقوله ع م ثلث من جمعهن فقد جمع الايمان الانفاق من الاقتار والانصاف من
نفسه وبذل السلام وقوله ع م اكمل المومنين ايمانا احسنهم خلقا والطفهم باهله وقوله ع م
لاناس من اصحابه ما ايمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر في الرخاء ونرضى بالقضاء
فقال مؤمنون ورب الكعبة **في انواع الجهل** الانسان في الجهل على اربعة منازل
الاول من لا يعتقد اعتقادا لا صالحا ولا طالحا فامره في ارشاده سهل اذا كان له
طبع سليم فانه كلوح ابيض لم يشغله نقش وكارض بيضاء لم يلق فيها بذر ويقال
باعتبار النظري غفل وباعتبار العلم العملي غمر ويقال له سليم الصدر والثاني
معتقد لراى فاسد لكنه لم ينشا عليه ولم يتربت به واستزالة عنه سهل وان كان
اصعب من الاول فانه كلوح يحتاج فيه الى محو وكتابة وكارض يحتاج فيها الى
تنظيف وزراعة ويقال له غاو وضال والثالث معتقد لراى فاسد قد ران
على قلبه وقد تراءت له صحته فركن اليه بجهله وضعف بصيرته فهو ممن وصفه الله
بقوله ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون فهذا ذو داء عياء
عياما طاما فلكل دواء له داء فلا سبيل الى تهذيبه وتنبيهه كما قيل لحكيم يغط نخا

جاهلا ما تصنع به فعال اغسل مسح الحلة ببيض الرابع معتقدا اعتقادا فاسدا
عرف فساده او تمكن من معرفته لكنه اكتسب دنية لرياسة وكرسيا لرياسته
فهو يتحامى عليها مجادل بالباطل ليدحض به الحق ويذم اهل العلم ليجر الى نفسه
الخلق وتعالى فاسق ومنافق وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر في قوله تعالى
واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله الآية وقوله والذين لا يؤمنون بالآخرة
قلوبهم منكرة وهم مستكبرون فنبه تعالى انهم ينكرون ما يقولونه ويفعلونه لمعرفتهم
ببطلانه ولكن يستكبرون عن التزام الحق وذلك حال ابليس فيما دعي اليه من السجود
لآدم عم والجنون هو عارض يغم العقل والحمق قلة التنبه لطريق الحق وكلاهما
يكون تارة خلقة وتارة يكون عارضة وقد عظم الحمق ما لم يعظم الجنون وقد صدق
الشاعر في قوله لكل داء دواء يستطب به الا الحماقة اعيت من يداويها وقد ذكر
حكاية هي وان لم تصح فنافع ذكرها وهي ان عيسى عم اني داويت ... فقال اعياني
مداواة الاحمق ولم يعيني مداواة الاكمه والابرص ومما يفرق به بينهما ان المجنون يكون
غرضه الذي يريده ربما فاسدا ويكون سلوكه الى غرضه صوابا والاحمق يكون
غرضه الذي يريده صحيحا وسلوكه الذي اليه خطاء لا يعرف بمرامه بل بسلوكه
ولذا متى صحت ارادة المجنون صح فعله حتى تتعجب كثيرا من فلتات صوابه والاحمق
لا يكاد يصيب في شيء من مسالكه واما البله فقلة التنبه على الامور ويضاده
الكيس وقد تقدم ان البله والكيس قد يتعلقان تارة باعتبار الامور الدنيوية وتارة
تكون بالامور الاخروية فمن كان في احديهما كيسا كان في الاخرى ابله وقد قال
الصديق ره اكيس الكيس التقى واحمق الحمق الفجور واما الرقيع فالذي يصلو ... بعقله
كل محال كانه رقع بذلك والا عن الذي ياتي بما يخرج عن الصواب تشبيها بدعن
الخيل وهو الجيد منه والاحمق هو الناقص العقل من قولهم الحمقت السوق اي نقصت

واما العمارة ولد التجربة في الامور العملية مع تخيل سليم وقد يكون الانسان غمرا في شيء
غير غمر في شيء آخر والحرف يقال في الجاهل بالعلوم العملية وذلك هو ان يفعل اكثر
مما يجب او اقل او على غير النظام المحمود فسادا كل عمل لا يجده وهذه الوجوه الثلثة
ويضاده الحذق والغي اتباع الهوى وترك ما تقتضيه العقل والضلال ان يقصد
لاعتقاد الحق او فعل الجميل او قول الصدق فيظن بتقصيره وسوء تصوره فيما كان
باطلا انه حق او فيما كان كذبا انه صدق فيقوله او فيما هو قبيح انه جميل فيفعله
والجهل عام في كل ذلك والخب استعمال الدهاء في الامور الدنيوية صغيرها وكبيرها
والجربز مثله لكنه يقال في الامور العظام اذا ادرك غاياتها ولهذا قالوا الدهاة
في الاسلام اربعة فذكر والمتوجهين في الاحتيالات في الامور الدنيوية
الذي بلغوا بها امور الكبار ومن الجهل الكفر وهو عناد الانسان للحق على سبيل
التكذيب له لا بيقين واصله ستر ما جعل الله تعالى للانسان بفطرته وصبغته
من المعارف بما يستعمله ويتحراه من عناد الحق ومن ترك النظر والاخلال بتزكية
النفس المعني بقوله تعالى قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها **كون العلوم مركوزة**
مركوزة في نفوس الناس يعين الانسان معدن الحكمة والعلوم وهي مركوزة فيها بالقوة
مجعولة لها بالقوة كالنار في الحجر والنخلة في النواة والذهب في الاحجار وكالماء تحت
الارض لكن كما ان من الماء ما يجري من غير فعل بشري ومنه ما يعاين تحت الارض
لكن لا يتوصل اليه الا بدلو ورشاء ومنه ما كامن يحتاج في استنباطه الى حفر وتعب
شديد فان عني به ادرك والا بقي غير منتفع به كذا العلم في نفوس البشر منه ما يوجد
من غير تعلم بشري وذلك حال الانبياء فانه يفيض عليهم المعارف من جهة الملأ الاعلى
ومنه ما يوجد بادني تعلم ومنه ما يصعب وجوده كحال اكثر عوام الناس ولكن
العلوم مركوزة في النفوس قال تعالى واذ اخذ ربك من بني آدم الى قوله بما فعل المبطلون

فنبه انهم اقروا ان الله هو الذي بدأهم ويغذيهم ويرزقهم ويكلأهم من الطفولية
فهذا اقرار نفوسهم في كلهم بما ركز في عقولهم فاما الاقرار باللسان فلم يحصل في كلهم
وكذا المعنى بقوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله اي لو اعتبرت احوالهم لرأيت
في نفوسهم وجوارحهم ينطق بذلك وعلى هذا قوله تعالى فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة
الله التي فطر الناس عليها الاية فبين ان الدين الحنيف وهو المستقيم قد فطر
الناس عليها اي خلقهم عالمين به وان المعاندين وان قصدوا تبديله وازالة
الناس عنه لم يقدروا عليه وعلى ذلك قوله تعالى صبغة الله ومن احسن من الله
صبغة وقال تعالى فمن قويت فيه الصبغة والفطرة اولئك كتب في قلوبهم الايمان
فسمى ذلك كتابا وقال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة واما الشهادة التي اخذت
عليهم فالناس فيه ضربان ضرب اجالوا خواطرهم فيها حتى ادركوا حقائقها
فصاروا كمن حمل الشهادة فنسيها ثم تذكرها ولذلك قال تعالى في غير موضع لعلكم
تذكرون وليتذكر اولوا الالباب وضرب اهملوا انفسهم ولم يشتغلوا بتذكر
ما حملوا من الشهادة كما قال واذا ذكروا لا يذكرون فهم في الجهالة يتسكعون
وعلى هذا حثنا الله تعالى على التذكر بقوله واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه
الذي واثقكم به الآية وقال ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر اي
يسرنا القرآن ليكون سببا يتوصلون به الى تذكر ما سبق من عهدكم والتذكر
على ثلاثة اضرب الاول ان يكون في اللسان عن صورة ما حصل في القلب الثاني
ان يكون بالقلب كصورة حصلت عن شيء معهود اما بالبصر او بالبصيرة او غير
من المشاعر الثالث ان يكون عن صورة متعينة بالفطرة في الانسان وهو
المشار اليه بهذه الآيات ومن هذا الوجه قال الحكماء التعلم ليس يجلب الى
الانسان من خارج في الحقيقة انما يكشف الغطاء عما حصل في النفس فيثور

بجلائه فمثله كمثل الحافر المستنبط للماء من تحت الارض وكالصيقل الذي يبرز الجلاء
في المرآة وهذا ظاهر لمن نظر بقلبه بعين عقله **حصر انواع المعلومات** انواع المعلوم
ثلاثة نوع يتعلق باللفظ ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ونوع يتعلق بالمعنى دون اللفظ
فاما المتعلق باللفظ فهو ما يقصد به تحصيل الالفاظ بوساطة المعاني وذلك ضربان
احدهما حكم ذوات الالفاظ وهو علم اللغة والثاني حكم لواحق الالفاظ وذلك ضربان
شيء يشترك فيه النظم والنثر وهو علم الاشتقاق وعلم النحو وعلم التصريف وشيء
يختص به النظم وهو علم العروض وعلم القوافي واما النوع المتعلق باللفظ والمعنى
فخمسة اضرب علم البراهين وعلم الجدل وعلم الخطابة وعلم البلاغة وعلم الشعر
واما النوع المتعلق بالمعنى فضربان علمي وعملي فالعلمي ما يقصد به ان يعلم فقط
وذلك معرفة الباري تعالى ومعرفة النبوة ومعرفة الملائكة ويوم القيامة ومعرفة العقل
ومعرفة النفس ومعرفة مبادي الامور ومعرفة الاركان ومعرفة الآثار العلوية
من الفلك والنيرين والنجوم ومعرفة طبايع النبات ويقال له علم الفلاحة
ومعرفة طبايع الحيوانات ومعرفة طبايع الانسان ويقال له علم الطب واما
العملي وهو ما يجب ان يعلم ثم يعمل به ويسمى تارة السنن والسياسات وتارة الشريعة
وتارة احكام الشرع ومكارمه وذلك حكم العبادات وحكم المعاملات وحكم
المطاعم وحكم المناكح وحكم المزاجر والطرق التي يستفاد منه العلوم اربعة
اضرب الاول المستفاد من بديهة العقل ومبادي الحس وذلك يحصل لكل من لم
يكن مؤوف الآلة وان اختلفت احوالهم في ذلك الثاني المستفاد من جهة النظر
اما بمقدمات عقلية او بمقدمات محسوسة الثالثة المستفاد بخبر الناس اما
بسماع من افواههم او بالقراءة من كتبهم ولا يكون الخبر علما الا اذا كانت
الطرق عن المخبر به متيقنة الرابعة ما كان عن الوحي اما بلسان ملك مرئي

كجال

كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك واما بسماع كلامه تعالى من غير وساطة معين
موسى عم واما بالالقاء في روع في حال اليقظة كما قال عم ان يكن في هذه الامة محدث
فهو عمر واما بالمنام وهو المعنى بقوله عم الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزءا
من النبوة وينطوي على ذلك قوله تعالى وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء
حجاب **ما يعرف فضيلة العلم** فضيلة العلم تعرف بشيئين احدهما بشرف ثمرته
والآخر بوثاقة دلالته وذلك كشرف علم الدين على علم الطب فان ثمرة علم الدين الوصول
الى الحيوة الابدية وثمرة علم الطب الوصول الى الحيوة الدنيوية المنقطعة وعلم الدين اصوله
ماخوذة عن الوحي واصول الطب اكثرها ماخوذة من التجارب ورب علم يرقى على غيره
باحد جهتين وذلك الغير يرقى عليه بالوجه الآخر كالطب مع الحساب فالطب
شريف الثمرة اذ هو يفيد الصحة والحساب وثاقة الدلالة اذا كان العلم به ضروريا
غير مفتقر الى التجربة وليس يجب ان يحكم بفساد علم لخطاء وقع من اربابه كصنيع
العامة اذا وجدوا من اخطاء في مسئلة حكموا على صناعته بالفساد وذلك عادتهم
في الطب والتنجيم فيعتبرون الصناعة بالصانع خلاف ما قال امير المؤمنين علي رضه
يا حارث ملبوس عليك الحق لا تعرف بالرجال اعرف الحق تعرف اهله وليس يدرؤن
ان الصناعة مبنية على شيء روحاني والمتعاطي لها يباشرها بجسم وطبع يضادانها
العجز فهو خليق بوقوع الخطاء منه ثم ان الانسان قد ينتحل ما لا يحسنه ويتدرع
بدعوى ما لم يخبره ثم كثير ممن يتخصص بصناعة يدعي لصناعته ما ليس في طبعها
كالكثير من المنجمين المدعين ما لا يوجد في التنجيم فاذا الاعتبار بدعاوي الناس
استحسان معرفة انواع العلوم حق الانسان ان لا يترك شيئا من العلوم امكنه
النظر فيه واتسع العمر له الا ويأخذ بسهمه عرفه وبذوقه طبعه ثم ان ساعده القدر
على التغرب والتزود منه فيها ونعمت والا لم يظهر لجهله بمحله وغباوته عن منفعته

معاديا له بطبعه **شعر** ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا ومن جهل شيئا
عاداه فالناس اعداء ما جهلوا بل قال تعالى واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك
قديم وحكي عن بعض فضلاء القضاة انه رأى بعد ما طعن في السن وهو يتعلم
اشكال الهندسة فقيل له في ذلك فقال وجدته علما نافعا فكرهت ان اكون
لجهلي به معاديا ولا ينبغي للعاقل ان يستهين بشيء من العلوم بل يجب ان يجعل
لكل واحد حظه الذي يستحقه ومنزلته الذي يستوجبه ويشكر من هداه لفهمه
وصار سببا لعلمه فقد حكي عن بعض الحكماء انه قال يجب ان نشكر آباء الذين ولدوا
لنا الشكوك اذ كانوا اسبابا لمن حرك خواطرنا للنظر في العلم فضلا عن شكر من افادنا
طرفا من العلم ولولا فكر من تقدمنا لاصبح المتأخرون حيارى قاصرين
عن معرفة مصالح دنياهم فضلا عن مصالح آخرتهم فمن تأمل حكمة الله تعالى في اقل
آلة يستعملها الناس كالمقراض حيث جمع بين سكينين مركبا على وجه يتوافى
حداهما على نمط واحد للقرض اكثر تعظيم نعمة الله وشكره ويقول سبحان الذي سخر لنا
هذا وما كنا له مقرنين **معاداة بعض الناس** لبعض العلوم العلم طريق الى الله تعالى
ذو منازل وقد وكل الله تعالى بكل منزل منها حفظة الرباطات والثغور في طريق
الحج والغزو فمن منازله معرفة اللغة التي عليها مبنى الشرع ثم حفظ كلام رب العزة
ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك
من الوسائط من معرفة اصول البراهين والادلة ولهذا قال هم درجات عند الله
وقال تعالى يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات وكل واحد من هؤلاء
الحفظة اذا عرف مقدار نفسه ومنزلته وفي حق ما هو بصدده فهو في جهاد
يستوجب من الله تعالى بحفظ مكانه ثوابا على قدر عمله لكن قل ما ينفك كل منزل
منها من شرير في ذاته وشر في مكسبه وطالب لرياسته وجاهل معجب بنفسه يصير

لاجل تنفيق سلعته صارفا عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم وعايبا له فلهذا ترى
كثيرا ممن حصل في منزل من منازل العلوم دون الغاية عايبا لما فوقه وصارفا عنه من
رامه فان قدر ان يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل والا نفر الناس عنه بوجه آخر
فحل محل من قال الله تعالى فيهم وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن الآية وما ارى من هذا
صنيعه الا من الذين وصفهم الله تعالى بقوله الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة الآية
وذكر الترمذي هذه المسئلة وقال اذا كان من يقطع على الناس طريق مكاسبهم الدنيوية
يستحقون ما ذكره الله تعالى بقوله انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الآية فما الظن
بما يستحقه من العقوبة من يقطع الطريق على المسافرين الى الله تعالى وحكي عن عيسى عم
انه قال يا علماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها ولم تدعوا غيركم يدخلها مثلكم
كمثل الصخرة وقعت في طريق الماء لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص الى الزرع
وكشجر الدفلى زهره حسن وثمره يقتل من اكله **الحث على تناول العلوم من كل علم** و
الاقتصار عليه ممن كان قصده الوصول الى جوار الله تعالى والتوجه نحوه كما قال تعالى ففروا
الى الله وكما اشار اليه النبي عم بقوله سافروا تغنموا فحقه ان يجعل انواع العلوم
كزاد موضوع في منازل السفر فيتناول منه في كل منزل قدر البلغة ولا يعرج على
تفصيه واستفراغ ما فيه فتتقضي الانسان نوعا واحدا من العلوم على الاستقصاء
يستفرغ عمرا بل اعمارا ثم لا يدرك قعره ولا يسبر غوره وقد نبهنا الباري سبحانه
على ان نفعل ذلك بقوله الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه وقال علي كرم الله وجهه
العلم كثير فخذوا من كل شيء احسنه وقال الشاعر قالوا خذ العين من كل فقلت لهم
في العين فضل ولكن ناظر العين وقيل حل طبعك بالعيون والفنون فالشجرة لا يشينها
قلة الحمل اذا كانت ثمرتها نافعة ويجب ان لا يخوض الانسان في فن حتى يتناول من
الفن الذي قبله على الترتيب بلغته ويقضي منه حاجته فازدحام العلم في السمع مضلة

للفهم وعلى هذا قال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اي لا يتجاوزونه
حتى يحكموه علما وعملا ويجب ان يقدم الاهم فالاهم من غير اخلال بالترتيب فان كثيرا
من الناس يخلوا الوصول بتركهم الاصول وحقه ان يكون قصده من كل علم يتحراه
التبلغ الى ما فوقه حتى يبلغ النهاية والنهاية من العلوم النظرية معرفة الله تعالى على الحقيقة
والمصدوقة والعلوم كلها خدم لها وهي حرة وقد روي انه رئي صورة حكيمين من
القدماء المتألهين في بعض مساجدهم وفي يد احدهما رقعة فيها ان احسنت كل شيء فلا تظن
انك احسنت شيئا حتى تعرف الله تعالى وتعلم انه مسبب الاسباب وموجد الاشياء وفي يد
الآخر كنت قبل ان اعرف الله تعالى اشرب واظمأ حتى اذا عرفته رويت بلا شرب بل
قد قال الله تعالى ما اشار به الى ما هو ابلغ من حكمة كل حكيم قل الله ثم ذرهم اي اعرفه
حق المعرفة ولم يقصد بذلك ان يقول ذلك قولا باللسان اللحمي فذلك قليل الغناء ما لم
يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية وعلى ذلك قوله عم من قال لا اله الا الله مخلصا
دخل الجنة ويجب ان لا يتعرى علمه عن مراعاة العمل فبه ينتفع الا ترى انه ما اخلى ذكر
الايمان في عامة القرآن من ذكر العمل الصالح نحو قوله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات
والى ذلك اشار بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وقيل كثرة العلم
من غير عمل مادة الذنوب وقيل العلم اس والعمل بناء والاس بلا بناء باطل وقال حكيم
لرجل من العلم دون العمل يا هذا اذا افنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل به قال الشاعر
ما يصلح ان يكون اشارة الى هذا المعنى علام ان لم اسف نفسا حرة يا صاح جمعي اجيد
حمل سلاحي **احوال الناس** في استفادة العلم وافادته كان للانسان في معتنيات اربع
احوال حال استفادة فيكون مكتسبا او حال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن المسئلة
وحال انفاق على نفسه فيصير به منتفعا وحال افادة لغيره فيصير به سخيا كذا ايضا
له في العلم اربعة احوال حال استفادة وحال تحصيل وحال استبصار وحال تبصير

وتعليم ومن اصاب مالا وانتفع به ونفع مستحقيه كان كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة
والمسك الذي يطيب وهو طيب وهذا اشرف المنازل ثم بعده من استفاد علما فاستبصر به
فاما من افاد غيره علمه ولم ينتفع هو فهو كالدفتر يفيد غيره الحكمة وهو عادم لها
وكالمسن يشحذ ولا يقطع وكالمغزل يكسو ولا يكتسي وكذبالة المصباح تحرق نفسها وتضيء
لغيرها ومن استفاد علما ولم ينتفع به هو ولا غيره فانه كالنخل يشرع شوكا لا يذوده
عن جمله كف جاني وهو منتهب **ما يجب على المتعلم ان يتحرى** حق المترشح لتعلم الحقائق ان
يراعي بلثه من الاوامر الاول ان يطهر نفسه من ردي الاخلاق تطهير الارض للبذر من خبائث
النبات وقد تعلم ان الطاهر لا يسكن الا بيتا طاهرا وان الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب
الثاني ان يقلل من الاشتغال الدنيوية ليتوفر فراغه على العلوم الحقيقية فاصحاب
التطواف يعدم منهلا وربعا اذا لم يكن تخلل ربعا ومنهلا وقد قال الله تعالى ما جعل الله
لرجل من قلبين في جوفه والفكرة متى توزعت تكون كجدول يفرق ماؤه فينشفه الجو
ويتشربه الارض فلا ينتفع به نفع وان جمع بلغ المزروع فانتفع به والثالث ان لا يتكبر
على معلمه ولا عن العلم فالحرب فالعلم حرب للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي ولهذا
قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا اعطيته كلك فانت من اعطائه اياك
بعضه على خطر وكان ثمانيا عن من قال خدم العلى لخدمته وهي التي لا تخدم الاقوام
ما لم تخدم وحتى لم يكن المتعلم من معلمه كارض دمثة نالت مطرا غزيرا فتلقته بالقبول
لم ينتفع به فحقه ان يصغي له كما قال تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو
شهيد اي لمن له بنفسه علم يستغني به او تنزل للاستماع الحق واقتباسه ممن عنده العلم
وقال بعض العلماء في قوله عم اليد العليا خير من اليد السفلى اشارة الى فضل المعلم
على المتعلم وفي تبيين فضل المعلم حث للمتعلم على الانقياد له وكما ان من حق المريض
ان يكل الى الطبيب الناصح الذي وقف على دائه ليطلب الطبيب دواءه فانه ان يلتمس

لم يتشهه الا ما فيه دواء ولم يحتو الا ما فيه شفاؤه فمن يك ذا فم مر مريض يجد مرا
به الماء الزلالا كذلك من حق المتعلم اذا وجد معلما ناصحا ان يأتمر له ولا يتآمر عليه
ولا يرى لهم فيما ليس بصدده تعلمه وكفى على ذلك تنبيها ما حكى الله تعالى عن العبد الصالح
انه قال لموسى عم حيث قال له هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا قال فان اتبعتني
فلا تسألني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا فنهاه عن مراجعته وليس ذلك نهيا عما
حث تعالى عليه بقوله فاسألوا اهل الذكر الآية وانما هو نهي عن نوع من العلم الذي
لم يبلغه منزلته بعد والحث انما هو على السؤال عن تفاصيل ما خفي عليه من النوع الذي
هو بصدده تعلمه وحق من هو بصدد تعلم علم من العلوم ان لا يصغي الى الاختلافات
المشككة والشبه الملتبسة ما لم يتهذب في قوانين ما هو بصدده لئلا يتولد له شبهة
تصرفه عن التوجه فيه فيؤدي ذلك الى الارتداد ولذلك نهى الله تعالى من لم يكن يقوى في
الاسلام عن مخالطة الكفار فقال يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم الآية
ومن اجل ذلك كره للعامة ان يجالسوا اهل الاهواء والبدع لئلا يغويهم فالعامي اذا
خلا بذوي البدع كالشاة اذا خلا بها السبع قال بعض الحكماء انما حرم الله تعالى
في الابتداء لحم الخنزير لانه اراد تعالى ان يقطع العصمة بين العرب وبين الذين كانوا
يشاكلونهم باجتماعهم معهم من اليهود والنصارى فحرم على المسلمين وكذا اذ هو معظم
ماكولاتهم وعظم الامر في تناوله ومسه لينتهي المسلمون عن الاجتماع معهم في المواكلة
والانس وقال عم في المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما لذلك فاما الحكيم فانه لا باس
بمجالسته اياهم فانه جار مجرى سلطان ذي عدة واجناد وعتاد لا يخاف غلبة العدو
حيث ما توجه ولهذا جوز له الاستماع الى الشبهة بل اوجب عليه ان يتتبع بقدر جهده
كلامهم ويسمع شبههم ليجاهدهم ويدافعهم فالعالم افضل المجاهدين الذابين عن الدين
فالجهاد جهادان جهاد بالسنان وجهاد بالبيان ولما تقدم سمى الله تعالى الحجة سلطانا

في غير موضع في كتابه كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام اني آتيكم بسلطان مبين
ما يجب للمتعلم ان يجرا مع المتعلمين حق المعلم ان يجري مع متعلميه مجرى بنيه فانه في
الحقيقة لهم اشرف الابوين كما قال الاسكندر وقد سئل أمعلمك اكرم عليك ام ابوك
فقال بل معلمي لانه سبب حياتي الباقية ووالدي سبب حياتي الفانية وقد نبه النبي
على ذلك بقوله انما انا لكم مثل الوالد اعلمكم فحق معلم الفضيلة ان يقتدي بالنبي ع م
اذ هو في ارشاد الناس خليفته ويشفق عليه اشفاقه ويتحنن عليه تحننه كما قال تعالى
في وصفه ع م حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم واي عالم لم يكن له من يفيده العلم
صار كعاقر لا نسل له فيموت ذكره بموته ومتى استفيد علمه كان في الدنيا موجودا وان
فقد شخصه كما قال علي رضه والعلماء باقون ما بقي الدهر اعيانهم مفقودة واثارهم
في القلوب موجودة وقال بعض الحكماء في قوله تعالى هب لي من لدنك وليا يرثني ويرث
من آل يعقوب انه ساله نسلا يورثه علمه لا من يورثه مالا فاعراض الدنيا ادون عند
الاولياء ان يشفقوا عليها وكذا قوله واني خفت الموالي من ورائي اي خفت ان لا يرعوا
العلم وعلى هذا قال ع م العلماء ورثة الانبياء وكما ان من حق اولاد الاب الواحد ان
يتحابوا ويتعاضدوا ولا يتباغضوا كذلك حق بني العلم بل بني الدين الواحد ان يكونوا
كذلك فاخوة الفضيلة فوق اخوة الولادة ولذلك قال تعالى انما المؤمنون اخوة وقال تعالى الاخلاء
يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وحق العالم ان يصرف من يريد ارشاده
عن الرذيلة الى الفضيلة بلطف في المقال وتعريض في الخطاب فالتعريض ابلغ من التصريح
لوجوه احدها ان النفس الفاضلة لميلها الى استنباط المعنى تميل الى التعريض شغفا باستخراج
معناه بالفكر ولذلك قيل رب تعريض ابلغ من تصريح الثاني ان التعريض لا يهتك
حجاب الهيبة ولا يرتفع به ستر الحشمة الثالث انه ليس للتصريح الا وجه واحد وللتعريض
وجوه فمن هذا الوجه يكون ابلغ ومن هذا الوجه حذف اجوبة كثيرة من الشروط المقتضية

للثواب والعقاب ونحو قول الله تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام
عليكم طبتم فادخلوها خالدين والرابع ان للتعريض عبارات مختلفة فيمكن ابداله على
وجوه مختلفة ولا يمكن ايراد التصريح الا على وجه واحد اذ ليس له الا عبارة واحدة
والخامس ان صريح النهي داع الى الاغراء ولذلك قيل اللوم اغراء وقال الشاعر
دع اللوم ان اللوم يغري وانما اردت صلاحا من يلوم فافسدا وقال النبي ع م لو نهي
الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه الا وفيه شيء وكفى لذلك شاهدا
ما كان من امر آدم وحواء في نهي الله تعالى اياهما عن اكل الشجرة ومن حق المعلم مع من
يفيده العلم ان يقتدي بالنبي ع م فيما علمه الله تعالى حيث قال قل لا اسألكم عليه اجرا
فلا يطمع في فائدة من جهة من يفيده على ثوابا لما يوليه والمعلم ان من باع علما بعرض
دنيوي فقد صادم الله تعالى في حكمه وذلك ان الله تعالى جعل المال خادما للمطاعم والملابس
وجعل المطاعم والملابس خادما للبدن وجعل البدن خادما للنفس وجعل النفس خادما
للعلم فالعلم مخدوم غير خادم والمال خادم غير مخدوم فمن جعل العلم ذريعة الى اكتساب
المال فقد جعل ما هو مخدوم غير خادم خادما لما هو خادم غير مخدوم وجوب منع الجهلة
عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر افهامهم واجب على الحكيم والعالم النحرير
ان يقتدي بالنبي ص م فيما قال انا معاشر الانبياء امرنا ان ننزل الناس منازلهم ونكلم
الناس على قدر عقولهم وان يتصور ما قال امير المؤمنين علي كرم الله وجهه حيث قال لكميل
بن زياد واومى بيده الى صدره ان ههنا علوما جمة لو وجدت لها حملة بلى اصبت لقنا غير
مامون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا فيستظهر بنعم الله على عباده وبحجته على كتابه
او منقادا لاهل الحق لا بصيرة له ينقدح الشك في قلبه باول عارض من شبهة وروي
هو عن النبي ع م انه قال كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون اتريدون ان
يكذب الله ورسوله وقال ع م ما احد يحدث قوما قولا لا تبلغه عقولهم الا كان ذلك

فسنه على بعضهم وقال عيسى بن مريم عم لا تضعوا الحكمة في غير اهلها فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم وكن كالطبيب الحاذق يضع دواءه حيث يعلم انه وقد قيل تصنع طلاب حكمك كما يصنع حطاب حرمك وبهذا الم ابو تمام فقال وما انا بالغيران من دون جارتي اذا انا لم اصبح غيورا على العلم وقيل لبعض الحكماء ما بالك لا تطلع كل احد على حكمة يطلبها منك فقال اقتدا بالباري جل وعلا حيث قال ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم الاية فبين انه منعهم لما لم يكن فيهم خير وبين ان في اسماعهم ذلك مفسدة لهم وسال جاهل حكيما مسئلة من الحقائق فاعرض عنه ولم يجبه فقال اما سمعت قول النبي عم من سئل عن علم يعلمه وكتمه جاء ملجما بلجام من نار يوم القيامة فقال بلى سمعته اترك اللجام ههنا واذهب فاذا جاء من ينفعه ذلك وكتمته فليلجمني به وقال بعض الحكماء في قوله تعالى ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما انه نبه به على هذا المعنى وذلك انه لما منعنا عن تمكين السفيه من المال الذي هو عرض حاضر ياكل منه البر والفاجر تفاديا انه ربما يؤديه الى هلاك دنيوي فلان يمنع من تمكينه من حقايق العلوم التي اذا عرفها السفيه ادته الى ضلال واضلال وهلاك واهلاك اولى فانه اذا ما فتلني العلم ذو شرة تقتضي عقيب ذم من محنق وصادف من علمه قوة يصول بها الشر في جوهره وكما انه وجب على الحكام اذا وجدوا من السفهاء رشدا ان يرفعوا عنهم الحجر ويدفعوا اليهم اموالهم لقوله عز وجل فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم فوجب على الحكماء اذا وجدوا من المسترشدين قبولا ان يبذلوا العلوم لهم بقدر استحقاقهم فالعلم قنية يتوصل بها الى الحيوة الابدية كما ان المال قنية في المعاونة على الحيوة الدنيوية وباذل العلم لمن لا يستحقه يستوجب عقوبة ومانعه عن اهله يستوجب عقوبات ولذلك قال تعالى واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه وقال تعالى ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم في الاخرة

الاية واذا ثبت ذلك وجب ان يكون من يقيد من العامة بقيد الشرع بحسب حاله لا يصرف عما هو بصدده فيؤدي ذلك الى انحلاله عن قيده ثم لا يمكن ان يقيد بقيد الخواص فيرتفع السد الذي بينه وبين الشرور ومن كان اشتغاله بعمارة الارض من بين تجار او مهنة فحقه ان يقتصر به من العلم على مقدار ما يحتاج اليه من هو في مرتبته في عبادات الله تعالى وان علا نعفيه من الرهبة والرغبة الواردة بها القرآن ولا تولد له الشبه والشكوك فان اتفق لبعضهم اضطراب نفس اما بانبعاث شبهة تولدت له او ولدها ذو بدعة دفع اليه فتاقت نفسه الى معرفة حقيقتها فحقه ان يختبر اولا فان وجد ذا طبع للعلم موافق وفهم ثاقب وتصور صايب خلى بينه وبين التعلم وسوعد عليه بما يوصله من السبيل اليه وان وجد شريرا في طبعه او ناقصا في فهمه منع اشد المنع فان في اشتغاله بما لا سبيل له الى ادراكه مفسدتين تعطله عما يعود بنفع منه الى العباد والبلاد واشتغاله بما يكثر منه شبهة وليس فيه له منفعة وقد كان بعض الامم المتقدمة اذا ترشح احد منهم ليتخصص بمعرفة الحكم والحقايق العلوم والخروج من جملة العامة الى الخاصة اختبر فان لم يجد خيرا في خلقه او غير متهيئ للتعلم منعه اشد المنع وان وجد خيرا ومتهيئا للتعلم شرط ان يقيد بقيد في دار الحكمة ويمنع ان يخرج حتى يحصل له العلم او ياتي عليه الموت ويزعمون ان من شرع في حقايق العلوم ثم لم يتبحر فيما تولدت له الشبهة وكثرت فيصير ضالا مضلا فيعظم على الناس ضرره وبهذا النظر قيل نعوذ بالله من نصف متكلم

وجوب ضبط المتصدين

للعلم ومضرة اهمال ذلك لا شيء اوجب على السلطان من مراعاة احوال المتصدين للرياسة بالعلم فمن الاخلال بها ينتشر الشر ويكثر الاشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر وذلك ان السواس اربعة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة من ظاهرهم وباطنهم والولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والحكماء وحكمهم

على بواطن الخاصة والوعاظ وحكمهم على بواطن العامة وصلاح العالم بمراعاة
هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة وفساده في عكس
ذلك ولما ترك مراعاة المتصدين للحكمة والوعظ وترشح قوم للزعامة في العلم من غير
استحقاق لها فأحدثوا بجهلهم بدعا استغووا بها عامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة
فوجدوا من الغاغة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم وكل قرين إلى شكله كأنس
الخنافس بالعقرب وفتحوا بذلك طرقا منسدة ورفعوا ستورا مسبلة وطلبوا منزلة
الخاصة فوصلوا إليها بالوقاحة وبما فيهم من الشر فبدعوا العلماء وكفروهم اغتناما
بسلطانهم ومنازعة في مكانهم فأغروا بهم أتباعهم حتى وطئوهم بأظلافهم فتولد
من ذلك البوار والجور العام

ذكر من يصلح لوعظ العامة

لا يصلح الحكيم لوعظ
العامة لا لنقص في الحكيم بل لنقص في العامي ولن ترى الشمس أبصار الخفافيش وأيضا
فبين الحكيم والعامي من تنافي طبعيهما وتنافر شكلهما من البعد قريب مما بين
الماء والنار والليل والنهار وقد قيل لسلمة بن جميل ما لعلي رض رفضه العامة وله
في كل فضيلة ضرس قاطع فقال لأن ضوء عيونهم قصر عن نوره والناس إلى أشكالهم
أميل وبهذا النظر لما قال جاهل لحكيم إني أحبك فقال له نعيت إلي نفسي فقيل له
ولم ذلك فقال لأنه إن صدق فليس ميله إليّ إلا لنقيصة بدت من نفسي لنفسه
فآنست بها وعلى هذا قول الشاعر لقد زادني حبا لنفسي أنني بغيض إلى كل امرئ
غير عاقل فحق الواعظ أن يكون له مناسبة إلى الحكماء ليقدر على الاقتباس عنهم
والاستفادة منهم ومناسبة إلى الدهماء حتى يقدرون على الأخذ منه كالوزير
للسلطان الذي يجب أن يكون فيه أخلاق الملوك وتواضع السوقة ليصلح أن يكون
واسطة بينه وبينهم وكالنبي الذي جعله الله من البشر وأعطاه قوة الملك ليمكنه
أن يأخذ من الملك ويمكن للبشر أن يأخذوا منه وإلى هذا أشار تعالى بقوله ولو جعلناه

ملكا لجعلناه رجلا الآية تنبيها أنه ليس في وسعهم التلقف عن الملك ما لم يتجسم فيصير
في صورة رجل فإذا حق الواعظ أن يكون له نسبة إلى الحكيم ونسبة إلى العامة يأخذ
منه ويعطيهم كنسبة الغضاريف إلى اللحم والعظم جميعا ولولاها لما أمكن للعظم
أن يكتسب الغذاء من اللحم وهذا مما إذا تأمل اطلع منه على حكمة عجيبة وصنعة غريبة

الحال التي يجب أن يكون الواعظ عليها

حق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ ويتبصر
ثم يبصر ويهتدي ثم يهدي ولا يكون كدفتر يفيد ولا يستفيد ومسن يشحذ ولا يقطع
بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده وكالنار التي تحمي الحديد
ولها من الحماء أكثر مما تفيد ويجب أن لا يخرج فعاله بمقاله ولا يكذب لسانه بحاله
فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله ومن الناس من يعجبك قوله في الحيوة الدنيا إلى قوله
والله لا يحب الفساد ونحو ما قال علي كرم الله وجهه قصم ظهري رجلان جاهل متنسك
وعالم متهتك فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه والواعظ
ما لم يكن مع مقاله فعاله لا ينتفع به وذلك أن عمله يدرك بالبصر وعلمه يدرك بالبصيرة
وأكثر الناس أصحاب الأبصار دون البصائر فيجب أن يكون عنايته بإظهار عمله الذي
يدركه جماعته أكثر من عنايته بالعلم الذي لا يدركه إلا ذو البصيرة ومنزلة الواعظ
من الموعوظ كمنزلة المداوي من المداوى فكما أن الطبيب إذا قال للناس لا تأكلوا
هذا فإنه سم قاتل ثم رأوه أكله عد سخرة وهزؤا كذلك الواعظ إذا أمر بما لا يعمله
وبهذا النظر قيل للطبيب يا طبيب طب نفسك بل قد قال الله لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا
عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إلى غير ذلك من الآيات وأيضا فالواعظ من الموعوظ
يجري مجرى الطابع من المطبوع فكما أنه محال أن ينطبع الطين عن الطابع بما ليس منتقشا
به في الطابع كذلك محال أن يحصل في نفس الموعوظ ما ليس بموجود في الواعظ فإذا
لم يكن الواعظ إلا ذا قول مجرد من الفعل لم يتلق منه الموعوظ إلا القول دون الفعل

وايضا فان الواعظ يجري من الناس مجرى الظل من ذي الظل فكما انه محال ان
يعوج ذو الظل والظل مستقيم كذلك من المحال ان يعوج الواعظ والموعوظ مستقيم
فكل شيء له حالة يختص بها فانه يجر غيره الى نفسه بقدر وسعه بل لا منه
ابتغى غيره لقن كالماء الذي يحيل ما يتلقاه من الغبار الى نفسه بقدر وسعه
وكذلك النار والارض والهواء فالواعظ اذا كان غاويا جر بغيه غيره
الى نفسه ولهذا حكى الله تعالى عن الكفار بقوله ربنا هؤلاء الذين اغوينا
اغويناهم كما غوينا وقال تعالى فاغويناكم انا كنا غاوين ومن ترشح للوعظ
ثم فعل فعلا قبيحا اقتدي به عليه فعليه حمل وزره فوزرهم كما قال تعالى ليحملوا
اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم وقال تعالى
وليحملن اثقالهم الآية وقد قال عم من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها
الى يوم القيامة **صعوبة الميزان الذي** يدرك بها حقائق العلوم كما ان للدراهم و
الدنانير ميزانا قد عرف اهلها صحته فلكل علم ميزان يعرف به نحو الحساب للمعدودات
والهندسة للممسوحات والعروض للشعر والنحو لالفاظ العرب والى هذا اشار بقوله
لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان الآية واوضح الذين
اعطاهم الموازين فقال وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس الآية فكل شاك
ومنازع عنيت في مقدار حقه ان يعتمد ميزانه ان عرفه ويقلد اربابه ان لم يعرفه
فان من يترك ذلك واخذ يخرص ويحزر ويظن ويخمن لم يزل شكه ولم يسقط خلافه
فالخرص قل ما يصدق والظن قل ما يوافق ويحقق ولذلك عبر عن الخرص بالكذب
فقال تعالى ان هم الا يخرصون وقال تعالى قتل الخراصون وقال في ذم الظن ان يتبعون صوابه
الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا ومعلوم ان ميزان الدين الذي يوصل
الى الثواب العظيم وخطاؤه يفضي الى العذاب الاليم اصعب الموازين واشرفها

وأولاها بالمعرفة وكثير في زماننا ممن تحلى بعلم الكلام وترشح فيه الجدال والخصام
ورام الزعامة فيه قبل اوانها وطلب تحقيق موزوناته بغير ميزانها اخذ كل واحد منهم
يخرص خرصا ويظن ظنا ويسلك بظنه طريقا غير نهج فاذا وقع بينهم خلاف
جعل كل واحد منهم ميزانه خرصه واتبع فيما اعتقد ظنه فاذا تحاكموا الى ما
اتخذوه ميزانا صار خلافهم في الميزان اكثر من خلافهم في الموزون فهم في ذلك
كمن غص بطعام فاستغاث بماء فشرق به كمتق لفح نار يستعين بالجهل
دنّ عبين من قار وكبريت لا جرم ان كثيرا من مناظراتهم لا تولد الا شبهة ولا
تثمر الا حيرة ولا يقوم عنها اثار الاختلاط مذبذب بماء او كظلمات بعضها
فوق بعض ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور **كراهية الجدال للعوام** وذمه على
كل حال اباحة تعاطي الجدال للعامة الذين لم يتدربوا في تحصيل القوانين ولم
يتهذبوا في سبيل البراهين يجري مجرى حل قيد الشياطين ورفع سد ياجوج
وماجوج فانه يثير سلطان قوتهم السبعية خالعة من يد قايد العقل وقيد
الشرع فالجدال مكروه للعلماء الالباء فكيف للجهال الاغبياء الا ترى انه تعالى قال
لنبيه عم وجادلهم بالتي هي احسن فلم يطلق له جدال مخالفيه حتى قيده بالاحسن
هذا مع وصفه عم بقوله تعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال في ذم الجدال ما ضربوه لك
الا جدلا الآية وقال ومن الناس من يجادل في الله بغير علم الآية وقال واذا رايت
الذين يخوضون في آياتنا الآية وللجدال مع كونه مكروها شرايط وقوانين في
تعاطيه ولم يكن متدربا بها كان خصما لا جدلا والخصومة عديمة الفايدة وقليلة
العايدة فان الجدال مع ما فيه قد يوقظ الفهم ويثير الانفة لاقتباس العلم
والخصومة لا تثمر الا العداوة وانكار الحق ولهذا جعل الله تعالى شرا من الجدال
فقال تعالى بل هم قوم خصمون وقال فاذا هو خصيم مبين ولم يذكر الخصام في موضع

تجاربا

الاعانه وايضا فالمتحاولان يجريان مجرى نخليين تعاديا وكبشين تناطحا وديكين
فكل واحد منهما يجتهد ان يكون هو الفاعل وصاحبه هو المنفعل وان يكون هو الطابع و
صاحبه هو المنطبع والقايل كالموثر والسامع كالمتاثر ومتى لم يتخضع المتاثر
لقبول اثر الموثر لم يتولد منهما خير بوجه وقد قال حكيم المجادل المدافع يجعل في نفسه
عند الخوض في الجدال ان لا يقنع بشي من لا يقنعه الا ان لا يقنع في الى اقناعه سبيل
ولو اصفق عليه الحكما بكل بينه بل لو اجتمع عليه الانبيا بكل معجزة كما قال تعالى
ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة الى آخر الآيه **ما يجب ان يعامل به** الجدل المماحك اذا ابتليت
بمجادل ممار ومساجل مناوش قصده اللجاج لا الحجاج ومرامه مباهاة العلما
ومماراة السفها كما قال النبي صم من تعلم العلم ليباهي به العلما او يماري به السفها
وقد قال الشاعر في مثله ترا معد الليحاق كانه يرد على اهل الصواب موكل
فحقك ان تعرض عنه فرارك من الاسد والاساود فان لم تجد بدا من مزاولته فقابل
انكاره الحق بانكارك الباطل ودفاعه الصدق بدفاع الكذب معتبرا في ذلك قوله تع
ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم وقوله ومكروا
ومكر الله والله خير الماكرين وقوله حكاية عن المنافقين انا معكم انما نحن مستهزئون
الله يستهزئ بهم وقوله فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم الآيه وتتبلغ معه بذلك واياك
وان تعرج معه الى بث الحكمه وان تذكر له شيئا من الحقايق مالم تتحقق ان له قلبا طاهرا
لا نعافه الحكمه وقد قال عم لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب وان لكل تربة غرسا ولكل
بناء اسا وما كل راس يستحق التيجان ولا كل طبيعه تستحق افادة البيان وان كان
لا بد فاقتصر معه على اقناع تبلغه فقد قيل كما ان لب التبن معد للانام
فالتبن مباح للانعام فلباب الحكمه معد لذوى الالباب وقشورها مبذوله للانعام
وكما انه من المحال ان يشم الاخشم ريحانا فمحال ان يعقل الحمار بيانا واعلم ان سبيل الانكار

الحجج والسعي في افسادها اسهل من سبيل المعارضه بمثلها والمقابله لها ولهذا يتحرى
الجدل الخصم ابدا الدفاع لا المعارضة وذلك ان الافساد هدم وهو سهل والاتيان
بمثله بناء وهو صعب فان الانسان كما يمكنه قتل النفس الزكيه وذبح الحيوانات
واحراق النبات ولا يقدر على ايجاد شي منها يمكنه افساد حجه قويه بنوع من
الشبه المزخرفه ولا يمكنه الاتيان بمثلها ولاجل ما قلنا دعى الله سبحانه وتعالى
الناس في الحجج على الاتيان بمثلها لا الى السعي في افسادها فقال تع فاتوا بسورة
من مثله وقال فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ورضي ان ياتوا بما فيه مشابهه له
وان كان ذلك مفتريا وقال ابراهيم عم فان الله ياتي بالشمس من المشرق فات بها من
المغرب **الوجوه التي تقع من اجلها** الشبه والخلاف السبب الموقع للشبهة والمولد
للخلاف على القول المجمل شيئان المعنى واللفظ فاما ما كان من جهة المعنى فاما
ان يكون من جهة الناظر او من جهة المنظور فيه وهو الحجه او من جهة الاله التي
يستعمل في النظر فان الناظر في الشي المعتبر له جار مجرى وزان والحجه كالميزان
والمنظور فيه كالموزون فمتى كان الناظر غير تام العقل كان اعمى البصيرة فيجري
مجرى وزان اعمى البصر فلا سبيل له الى الوزن ومتى لم يكن اعمى البصيرة لكنه غير
عارف بقوانين البراهين والحجج والادله كان جاريا مجرى وزان عدم الميزان
فاخذ يخمن والمخمن قلما ينفك من غلط بل ما وقع منه من الصواب فغير معتد
به اذ لا اصل له يسكن اليه النفس ومتى لم يكن اعمى البصيرة ولكنه لا يعرف اي
حجه يستعمل فيما هو بصدده فطلب المعقول من جهة المحسوس والمحسوس من جهة
المعقول كان جاريا مجرى وزان بصير لكنه يزن الدنانير بسنج الدراهم والدراهم
بسنج الدنانير واما ما كان من جهة اللفظ فاما ان يكون من حيث ان اللفظ
مشترك بين معنيين كالعين واليد ونحوهما او يكون اللفظ عاما موضوعا

موضع خاص او خاصا موضع عام او يكون اللفظ مستعملا على سبيل المثل
والاشارة والرمز او يكون اللفظ مستعملا لشيء لم يتقرر صورة ذلك الشيء في نفس
السامع فيتخيل اليه وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادات فاسدة
في الملائكة والجن والشياطين والجنة والنار والميزان والصراط والكرسي واما ما كان
من جهة التركيب فاما ان يكون من جهة الكمية وذلك بان يكون اللفظ اكثر مما يجب
ان يكون او اقل مما يجب ان يكون واما من جهة الكيفية وذلك ان يتقدم ما حقه ان يتأخر
او يؤخر ما حقه ان يتقدم ومن اجل ما وقع في الالفاظ من الشبه قال الحكماء يجب ان
يكون نظر الانسان من المعنى الى اللفظ اكثر من نظره من اللفظ الى المعنى فان اللفظ
في الحقيقة لا يدل على معنى الا بواسطة صورة ذلك المعنى في القلب ومتى لم تثبت صورة
المعنى في القلب لم يفهم من اللفظ المعنى **بيان جميع الخلايق** بين الناس في الاديان والمذاهب
جميع الاختلافات بين اهل الاديان والمذاهب على اربع مراتب الاول الخلاف
بين اهل الاديان النبوية وبين الخارجين عنها من الثنوية والدهرية وذلك في
حدوث العالم وفي الصانع ثم في التوحيد والثانية الخلاف بين اهل الاديان
النبوية بعضهم مع بعض وذلك في الانبياء كاختلاف المسلمين والنصارى
واليهود والثالثة الاختلاف المختص في اهل الدين الواحد بعضهم مع بعض في
الاصول التي تقع فيها التبديع والتكفير كالاختلاف في شيء من صفات الله تعالى
وفي القدر وكاختلاف المجبرة الرابعة الاختلاف المختص باهل المقالات في فروع
المسائل كاختلاف الشافعية والحنفية فالاختلاف الاول يجري مجرى متنافيين
في مسلكهما كآخذ طريق المشرق وآخذ طريق المغرب او آخذ ناحية الشمال وآخذ
ناحية الجنوب والثاني يجري مجرى آخذ نحو المشرق وآخذ يمينه او شماله فهو وان
كان اقرب من الاول فليس يخرج احدهما ان يكون ضالا ضلالا بعيدا واياه قصد

بقوله ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا والثالث جار مجرى آخذين
في جهة واحدة ولكن احدهما سالك للمنهج والآخر تارك للمنهج وهذا التارك للمنهج
ربما يبلغ وان كان يطول عليه الطريق والرابع جار مجرى جماعة سلكوا منهجا واحدا
لكن اخذ كل واحد شعبة غير شعبة الآخر وهذا هو الاختلاف المحمود بقوله عليه السلام
الاختلاف في هذه الامة رحمة ونحوه نظر من قال كل مجتهد في الفروع مصيب ولاجل
الطرق الثلث امرنا ان نستعيذ بالله ونتضرع اليه بقوله اهدنا الصراط المستقيم
وقال وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية وجميع الخلاف
الواقع في هذه الامة اثنان وسبعون على ما ورد من الخبر لا زايدا ولا ناقصا
وقد روي الخبر في ذلك على وجهين احدهما ستفترق امتي على ثنتين وسبعين فرقة
كلها في النار الا واحدة وفي الخبر الآخر كلها في الجنة الا فرقة واحدة وهم الزنادقة
وهذان خبران لا يمتنع ان يكونا صحيحين ولكن على نظرين ومعنيين وقد ذكرت ذلك
في رسالة مفردة **النطق والصمت** النطق اشرف ما خص به الانسان فانه صورته
المعقولة التي بها باين ساير الحيوان ولذا قال تعالى خلق الانسان علمه البيان ولم يقل
وعلمه البيان اذ جعل قوله علمه تفسيرا لقوله خلق الانسان تنبيها ان خلقه اياه
هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعا عنه لكانت الانسانية مرتفعة ولذلك
قيل ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة وقيل المرء مخبوء تحت
لسانه وقال الشاعر لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم
والدم اي اذا توهم ارتفاع النطق الذي هو اللسان والقوة الناطقة التي هي
المعقولة اذ لم يبق الا صورة اللحم والدم فاذا كان الانسان هو الانسان فلا شك
ان من كان اكثر منه حظا كان اكثر انسانية والصمت من حيث هو صمت مذموم فذلك
من صفة الجمادات فضلا عن الحيوانات وقد جعل الله تعالى بعض الحيوانات بلا صوت

وجعل لبعضها صوتا بلا تركيب ومن مدح الصمت فاعتبارا بما يسبق في الكلام من فيقع منه
جنايات عظيمة في امور الدين والدنيا كما روي ان الانسان اذا اصبح امرت اعضاؤه
لسانه فتقول اتق الله فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا فاما اذا
اعتبر ابلغهما فان الصمت فضل فضلا ان يحاذي بينه وبين النطق وقد سئل
حكيم عن فضلهما فقال الصمت افضل حتى يحتاج الى النطق وسئل آخر فقال الصمت
عن الخنا افضل من الكلام بالخطاء وعنه اخذ الشاعر فقال الصمت اجمل بالفتى
من منطق في غير حينه والفرق بين الصمت والسكوت والانصات والاصاخة ان الصمت
ابلغ لانه قد يستعمل فيما لا قوة فيه للنطق وفيما له قوة النطق ولهذا قيل لما لا نطق له
الصامت والمصمت والسكوت يقال لما له نطق فترك استعماله والانصات سكوت
مع استماع ومتى انفك احدهما عن الآخر لا يقال له في الحقيقة انصات وعلى ذلك
قال تعالى واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا فقوله وانصتوا بعد قوله وانصتوا
فاستمعوا يدل على ان الانصات بعد الاستماع ذكر خاص بعد عام والاصاخة الاستماع
الى ما يصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان البعيد **الصدق ومدحه** والكذب
وذمه اصلهما في القول ولا يكون بالقصد الاول من القول الا في الخبر دون غيره
من اصناف الكلام فاما بالعرض فقد يدخل في انواع الكلام من الاستفهام والامر
والدعاء وذلك ان قول القائل ازيد في الدار في ضمنه اخبار بكونه جاهلا بحال زيد
وكذلك اذا قال واسني في ضمنه انه محتاج الى المواساة واذا قال لا تؤذني ففي ضمنه
انه يؤذيه وكلاهما اعني الصدق والكذب يستعمل في الاعتقاد ايضا كقوله صدق ظنه
واعتقاده وكذبا ويستعمل ايضا في اعمال الجوارح نحو صدقوهم القتال وكذبوهم
وصار الصدق هو مطابقة القول والضمير والمخبر عنه ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن
صدقا تاما بل اما ان لا يوصف بالصدق والكذب او يوصف تارة بالصدق وتارة

بالكذب على نظرين مختلفين كقول الكافر اذا قال من غير اعتقاد محمد رسول الله فان هذا
يصح ان يقال فيه كذب لمخالفة قوله ضميره ولهذا اكذبهم الله تعالى حيث قال اذا جاءك
المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين
لكاذبون وكذلك اذا قال من يعلم كون زيد في الدار انه في الدار يصح ان يقال صدق
وان يقال كذب باعتبار نظرين مختلفين ولهذا قال عليه السلام من قال في القرآن برأيه فاصاب
فقد اخطأ وفي لفظ آخر فقد كذب على الله والمتوسم لا قصد له فاذا قال زيد في الدار
لا يقال انه صدق ولا كذب فالصدق احد اركان بقاء العالم حتى لو توهم مرتفعا
لما صح نظامه وبقاؤه وهو اصل المحمودات وركن النبوات ونتيجة التقوى ولولاه
لبطلت احكام الشرائع ولذلك قال تعالى يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين
والاختصاص بالكذب انسلاخ عن الانسانية لخصوصية الانسان بالنطق ومن
عرف بالكذب لم يعتمد نطقه واذا لم يعتمد نطقه لم ينتفع واذا لم ينتفع نطقه صار هو
والبهيمة سواء بل يكون شرا من البهيمة فان البهيمة ان لم تنفع بلسانها فانها
لا تضر والكاذب يضر ولا ينفع وقد قال تعالى ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا
واعلم ان كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الاخبار فليس بكذب في الحقيقة
ولهذا لا يتحاشى المتحرزون من التحدث به كقولهم في الحث على مداراة العدو والتلطف
في خدمة الملوك ان سبعا وذئبا وثعلبا اجتمعن فقلن نشترك فيما نتصيد فظفرت
بظبي وعير وارنب فقال الاسد للذئب اقسم فقال الذئب هو مقسوم العير لك
والظبي لي والارنب للثعلب فوثب السبع فادماه ثم قال للثعلب اقسم فقال هو مقسوم
العير لغدائك والظبي لقائلتك والارنب لعشائك فقال السبع من علمك هذه القسمة
المليحة فقال علمني السراويل الارجواني الذي على الذئب وعلى المثل حمل قوله ان هذا
اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة الآية وقوله كمثل حبة انبتت سبع سنابل

الآية فقالوا يصح هذا لما كان مثلا وان لم يجر تعلى العادة في وجود جنبه هكذا
ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب ذهب كثير من المتكلمين ان الصدق يحسن لعينه
والكذب يقبح لعينه وقال كثير من الحكماء والمتصوفة ان الكذب يقبح لما يتعلق به من
المضار الحاصلة منه والصدق لما يتعلق به من المنافع الحاصلة منه وذلك ان
الاقوال من جملة الافعال وشيء من الافعال لا يحسن ولا يقبح لذاته بل انما يحسن ما يحسن
لما يتعلق به من المنافع ويقبح ما يقبح لما يتعلق به من الضرر الموفي على ما فيه من النفع
الا يرى ان اعظم ما يجري في العالم القتل والغضب وقد يقع كل واحد منهما على وجه يحسن
وعلى وجه يقبح فكذا المقال من الصدق والكذب ولذلك قال عم لا يحسن الكذب الا
في ثلث اصلاح ذات البين وكذب الرجل لامرأته ليرضيها وكذب الرجل في الحرب
فانها خدعة وقد روي عنه عم اذا اتاكم عني حديث يدل على هدى او يرد عن ردى
فاقبلوه قلته او لم اقله واذا اتاكم عني حديث يدل على ردى او يصد عن هدى فلا تقبلوه
فاني لا اقول الا حقا قالوا والكذب يكون قبيحا بثلاث شرائط ان يكون الخبر بخلاف
المخبر عنه وان يكون المخبر قد اختلقه قبل الاخبار به وان يقصد ايراد ما في نفسه لا يرفع
ضررا اعظم من ضرر ذلك الكذب مع شرط ان لا يمكن الوصول الى ذلك النفع بغيره مع انه
اذا ظهر كان للكاذب عذر واضح عاجلا وآجلا قالوا ولا يلزم على هذا ان يقال
جوزوا الكذب فيما يرجى منه نفع دنيوي فالمنفعة الدنيوية ولو كانت ملك الدنيا
بحذافيرها لا يوازي الضرر الحاصل عن ادنى كذب وانما هذا الذي قلنا يتصور في
نفع اخروي يكون الانسان فيه عاجلا وآجلا معذورا لكن سألك عن مسلم استتر
في دارك وهو يريد قتله ويقول هل فلان في دارك فتقول لا فهذا يجوز فان نفع هذا الكذب
موف على ضرره وهو فيه معذور ولا خلاف ان المعاريض حيث يضطر الانسان اليها
يجوز ولذلك قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب ولم يزل الانبياء والاولياء يفزعون

اليها كقول النبي صم لمن سأله من انت فقال من الماء وقول ابراهيم عم اني سقيم وقوله هذه
اختي وقوله بل فعله كبيرهم هذا واما الصدق فانما يحسن حيث يتعلق به نفع ولا يلحق
ضررا باحد فمعلوم قبح قول من يقعد ويقول السماء فوقي والارض تحتي من غير ان يريد
ان يجعل ذلك مقدمة دليل او افادة معنى يعلقه وكذا يقبح النميمة والغيبة والسعاية
وان كان ذلك صدقا ولذلك كفى بالسعاية ذما انه يقبح فيها الصدق واقبح الكذب مع قبح
كله او جله ما لا يتعلق به رجاء نفع عاجل او آجل ويجلب الى المقول له ضررا كرجل يأتيك من بلد
بعيد فيقول ان ملك ذلك البلد يرغب فيك ويتشوق اليك ويسألك ان يأتيه ليعطيك مالا
وجاها فاذا وردت عليه لم يجد لذلك القول حقيقة بل ذلك الملك حنقا عليك **انواع الكذب
والسبب الداعي اليه** الكذب اما ان يكون اختراعا لقصة لا اصل لها او زيادة في القصة
او نقصانا يغير المعنى او تحريف بتغيير عبارة فما كان اختراعا يقال له الافتراء
والاختلاق وما كان من زيادة او نقصان تمين وكل من اراد كذبا في غيره فاما ان
يقول بحضرة المقول فيه او بغير حضرته واعظم الكذب ما كان اختراعا بحضرة المقول فيه
وهو المعبر عنه بالبهتان وكل من اورد حديثا فاما ان يخبر عن علم او عن غلبة ظن
او عن غلبة ظن وتخمين واه فما يقال عن علم فمحمود بلا شك وما كان عن غلبة ظن فقد يحسن
وقد يقبح وما كان عن ظن واه فمذموم ولذلك قال تع يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من
الظن ان بعض الظن اثم واعلم ان الداعي الى الكذب محبة النفع الدنيوي وحب
الترؤس وذلك ان المخبر يرى ان له فضلا على المخبر بما علمه فهو يتشبه بالعالم الفاضل
فيظن انه يجلب بما يقول فضيلة ومسرة وهو يجلب به نقيصة وفضيحة ففضيحة كذبة
واحدة لا توازي مسرات دهر قال كذب عار لازم وذل دائم وحق الانسان ان
يتعود الصدق ولا يترخص كذب فمن استحلاه عسر عليه فطامه وقد قال بعض
الحكماء كل ذنب يرجى تركه بتوبة او انابة ما خلا الكذب فان صاحبه يزداد على الكبر

فقد رأينا شارب خمر أفلح ولصاً نزع ولم نر كذاباً رجع وعوتب كذاب في كذبه فقال
لو تغرغرت به وتطعمت حلاوته لما صبرت عنه **الذكر الحسن من المدح والثناء**
محبة الذكر الحسن أشرف مقاصد أبناء الدنيا وهي في جبلة الناس من خصائصهم
ولا توجد في غيره من الحيوان كما قال الشاعر حب الثناء طبيعة الإنسان
ولولا الكلف به لما ظهرت العدالة من أكثر الناس ومن لا يخوفه الهجاء ولا يسره
الثناء فلا يردعه عن سوء الفعال إلا سوط أو سيف وقد قيل الذي ينفر عن القبيح
ويحث على الجميل خمسة أشياء العقل ثم الحياء ثم المدح والهجاء ثم الترغيب والترهيب
وقد قيل من لم يردعه الذم عن سيئته ولم يستدرعه المدح إلى حسنة فهو جماد أو بهيمة
ولأجله ينازع الناس الرياسة والمنازل الرفيعة وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا
مذموم وإنما يحمد ويذم بحسب المقاصد فمن قصد طلب ما يستحق به الثناء على
الوجه الذي يستحب فذلك محمود وهو طريقة إبراهيم الخليل عم حيث قال واجعل
لسان صدق في الآخرين أي اجعلني بحيث أفعل ما إذا مدحت بشيء يكون مادحي
صادقاً ومن هذا الوجه ندب الإنسان إذا مدح أن يقول اللهم اجعلني خيراً مما يظنون
والمذموم منه أن يميل من غير تحريه لفعل ما يقتضيه وذلك من أعظم الآفات لمن تحراه
فإنه ينتج الحسد والحسد ينتج الكذب والكذب رأس كل مذموم وقد توعد الله تعالى
من طلب المحمدة من غير فعل حسنة يقتضيها فقال تعالى لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا
ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب وبالنظر إلى ما تقدم قال عم
من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن وقال المؤمن إذا مدح في وجهه ربا الإيمان
في قلبه وبالنظر إلى ما تأخر سمع النبي عم رجلاً وقد أثنى على آخر فقال عم قطعت مطاه
لو سمعها ما أفلح والفاضل يكره الثناء عليه في وجهه سيما إذا كان من مادح مطر
وجليس مغرد وممن يعرف قبل أن يعرف وممن إذا وجد قادحاً قدح فإذا وجد مادحاً

مدح وأما ثناء الإنسان على نفسه فشناعة وفضاعة فقد قيل لحكيم ما الذي لا يحسن وإن كان
حقاً فقال مدح الرجل نفسه وقال معوية لرجل من سيد قومك فقال أنا فقال لو كنته لما
قلته فإنما لم يستقبح ما كان من يوسف عم حيث قال اجعلني على خزائن الأرض إني
حفيظ عليم لأنه قصد بذلك التنبيه على استقلاله بما سأل أن يفوض إليه وقد أحسن
ابن الرومي حيث اعتذر من مدح نفسه قاصداً إلى الدلالة على مكانه وعزيز علي مدحي
لنفسي غير أني جشمته للدلالة وهو عيب يكاد يسقط فيه كل حر يريد إظهاراً له **الشكر** هو
تصور المنعم عليه النعمة وإظهارها قيل وهو مقلوب عن الكشر وهو الكشف ويضاده
الكفر وهو من كفر الشيء أي تغطيته ومنه دابة شكور أي مظهر بسمنته إسداء صاحبها
إليه وقيل أصله من عين شكرى أي ممتلئة فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه و
من هذا الوجه قيل هو أبلغ من الحمد لأن الحمد ذكر الشيء بصفاته المحمودة والشكر ذكره
بصفاته ونعمه والشكر ثلثة أضرب شكر بالقلب وهو تصور النعمة وشكر باللسان
على المنعم وشكر بساير الجوارح وهو مكافاته بقدر استحقاقه وهو أيضاً باعتبار
الشاكر والمشكور ثلثة أضرب شكر الإنسان لمن فوقه وهو بالخدمة وشكره لنظيره
وهو بالمكافاة وشكره لمن دونه وهو بالثواب وقد وصف الله تعالى نفسه بالشكر
لصالحي عباده وشكر العبد لربه وهو معرفة نعمته وحفظ جوارحه عن استعمال
ما لا ينبغي ومعناه بالفارسية سپاس دارم خداي را أي أنا حارس له على جوارحي
وشكر المنعم على الجملة واجب بالعقل كما هو واجب بالشرع وأوجبها شكر الباري تعالى
ثم شكر من جعله سبباً لوصول خير إليك على يده ولهذا قال عم لم يشكر الله من لم
يشكر الناس وقال عم اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك فإنه لا زوال
للنعم إذا شكرت ولا ثبات لها إذا كفرت وقال بعض أهل العلم كل نعمة يمكن شكرها
إلا نعمة الله فإن شكر نعمة نعمة منه فيحتاج العبد أن يشكر الثاني كشكره الأول

وكذلك الحال في الثالث والرابع وهذا يؤدي الى ما لا يتناهى ولذلك قال موسى عم اللهم
امرتني بالشكر على نعمتك وشكري اياك نعمة من نعمك ومن هذا اخذ الشاعر فقال
اذا كان شكري نعمة الله نعمة علي له في مثلها يجب الشكر فكيف بلوغ الشكر الا بفضله
وان طالت الايام واتصل العمر ولهذا قيل غاية شكر الله الاعتراف بالعجز عنه
بل قد قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وايضا فكل ما يفعل الله لعبده فلو هو
نعمة وان كان قد يعد ذلك بلية ولذلك قال بعض الصالحين يا من منعه عطاء وبلاؤه
نعماء ولاجل صعوبة شكره قال تعالى وقليل من عبادي الشكور ولم يثن بالشكر على اولياءه
الا على اثنين منهم قال لابراهيم شاكرا لانعمه مخصص الله تعالى لفظ الانعم الدالة على القلة
العدد وقال في نوح انه كان عبدا شكورا واعلم ان الشكر والصبر جماع الايمان
كما روي في الخبر وقد روي الصبر نصف الايمان لكن قد قال بعض المتصوفة ان الشكر
افضل من الصبر فان الصبر حبس النفس على مسالمة البلاء والشكر ان لا يلتفت الى
البلاء بل يراه من النعماء فمن صبر فقد ترك اظهار الجزع ومن شكر فقد تجاوز
الى اظهار السرور بما جرى له الصابر وايضا فالصبر هو ترك للفعل السيئ والشكر
اظهار الفعل الحسن وليس من ترك قبيحا كمن فعل حسنا وجميلا وقابل الصبر بالاجر
فعل المستاجر باجيره فقال انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب وابن
الاجر فان كثيرا وان كثر حتى صار بغير حساب من الجزاء ثم قال في الصبر يوفى فلم
يسم فاعله وقال في الشكر وسنجزي الشاكرين وسيجزي الله الشاكرين فانظر
الى هذا اللطف في المقال قبل الانتهاء الى الفعال ولم يذكر من انبيائه بالشكر الا اثنين
كما تقدم ووصف جماعتهم بالصبر فقال كل من الصابرين وقال ان في ذلك لايات
لكل صبار شكور فجعل الصبر مبدأ والشكر منتهى ولان الصبر مجبول عليه قهرا
والشكر يؤدى تطوعا **الغيبة والنميمة** الغيبة ان يذكر الانسان غيره بما فيه من عيب

من غير ان احوج الى ذكره وقد عظم الله تعالى امرها فقال ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم
ان ياكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه وقال تعالى هماز مشاء بنميم وقال عم لا يدخل الجنة
قتات وروي النميمة تفطر الصائم وتنقض الوضوء وقل من وجد عائبا الا كان
معيبا وقال قتيبة لرجل رآه يغتاب آخر لقد تلمظت بما يعافه الكرام وحق الانسان
ان لا يتعودها فان لها ضراوة ولذلك عير انسان بالغيبة فقال لو تلمظت بها لما
صبرت عنها ثم ان من اغتاب اغتيب ومن عاب عيب فنحته عن عيوب الناس
يحمل الناس على البحث عن عيوبه وكما يجب ان يتحاماها بقوله يجب ان يجتنب من سماعها وسماع
كل قبيح من الكذب لئلا تعلق وضره ووسخه بفكرته فوضر كل كلمة عوراء لا يمكن
تطهير القلب عنه الا بزمان مديد وعلاج شديد وسماع القبيح قد يصير سببا لفساد
الكبير المحتنك وغواية العالم المستبصر فضلا عن فساد الحدث الغر والناشئ الغمر
ولذلك قال تعالى في مدح قوم واذا مروا باللغو مروا كراما وقد اجاد من قال وسمعك
صن عن سماع القبيح كصون اللسان عن النطق به ويقبح الغيبة والنميمة المسابة
قال امير المؤمنين علي رضه ما تساب اثنان الا غلب الامهما والا انحط الاعلى الى
رتبة الاسفل منهما وقد قيل اذا سمعت كلمة تؤذيك فطأطئ لها حتى تتخطاك **الكلام
المستقبح** البذاء الكلام القبيح ويكون من القوة الشهوية طورا كالرفث في النحو
ويكون من القوة الغضبية طورا ومتى كان معه استعانة بالقوة المفكرة يكون فيه
السباب ومتى كان من مجرد الغضب كان صوتا مجردا لا يفيد نطقا كما يرى كثيرا ممن
ثار غضبه وهاج هائجه والرفث فواحش الكلام في باب النكاح واوصاف النساء
وهو قبيح قال بعضهم اني لاستقبح من الرجل ان يكون وصافا لبطنه وفرجه
ومن حق الانسان ان يصون عن ذكره سمعه كما يصون عن التفوه به فمه ولذلك قال تعالى
في مدح قوم واذا مروا باللغو مروا كراما واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا

اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين والسباب بلثة الاول قدح في نسب
المنسوب والثاني في نفسه او بدنه بعاهة به وآفة والثالث في شئ فعله او فعل
به والسفه التشريح الى القول القبيح او الفعل القبيح **المزاح والضحك** المزاح اذا كان
على الاقتصاد محمود فقد روي عنه عم انه قال لا امزح ولا اقول الا حقا وروي عنه
صم كلمات مازح بها وقال سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فالافراط
فيه يذهب بالبهاء ويجرى عليك السفهاء وتركه يغيض الموانسين ويوحش المخاطبين
ولكن الاقتصاد فيه صعب صار لا يكاد يوقف عليه ولذلك تحرج عنه اكثر الحكماء
حتى قيل المزاح مسلبة للبهاء ومقطعة للاخاء ومحل لا ينتج الا الشر فاما الضحك
فمن خصايص الانسان وذاك انه يكون من التعجب والتعجب لا يكون الا عن فكرة والفكرة
يتميز الانسان عن البهايم والاقتصاد فيه ومعرفة ما يحسن منه عسير فهو من
المزاح وقيل اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويورث النسيان وقيل كثرة
الضحك من الرعونة وحكي عن عيسى عم انه قال ان الله يبغض الضحك من غير عجب
والمشي الى غير ارب واما ايراد المضحكات على سبيل السخف فنهاية القباحة
وقد قال عم ويل للذي يحدث ويكذب ليضحك القوم ويل له ويل له **الحلف**
اقبح الكذب اليمين الفاجرة فغيها مع الكذب الاستهانة بالمقسم به وحق المسلم
ان يتحاشى من الاستعانة باليمين في الحق فكيف بالباطل وان يتحقق بعد يد القسم
وما يدله به ليعلم ان الاعراض الدنيوية او نح امرا واخس قدرا من ان يعرض فيها الى
الحلف بالله ويعتد بذلك قول القايل اذا قال ان لي عليك كذا اى كون ذلك لي عليك حق
كان وجود الله حق وهذا الكلام يتحاشى منه من كان في قلبه مثقال حبة خردل
من تعظيم الله وقد قال تع ولا تشتروا باياتي ثمنا قليلا وقال ولا تجعل الله عرضة
لايمانكم الايه وقال على رض الحلف ينفق السلعة ويمحق البركة ولم يحضر عنها من يمين

واما قول النبي صم من لم يحلف على ماله فلا مال له وان كان بنظر الفقهاء يتصور انه
فسح في الحلف صادقا فانه بنظر الحكماء حث على ايثار تعظيم الله تع ولتقديمه على
ايثار المال وتعريض بان الذي فاته هو عرض حاضر لا الدين ولا المروة وحق العاقل
اذا اضطر اليه ان يسلك سبيل التعريض فيه دون التصريح وما لا يضطر اليه تركه
تعريضا وتصريحا وان بدر منه سهوا شفعه بالاستثنا كما قال عم من كان حالفا
فليقل انشاء الله فانه يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة ويدفع اللجاجة
وقيل العاقل اذا تكلم اتبع كلامه مثلا والاحمق اذا تكلم اتبع كلامه حلفا وعلامة
الكاذب جوده بيمينه بغير مستحلف قال الشاعر وفي اليمين على ما انت واعده
ما دل انك في الميعاد متهم وقال بعض الحكماء اللغة في الحلافة تدل على خلاف ان بابها
فان ذلك لقلة الركون الى قولهم وكما جوز عم الكذب حيث يضطر اليه جوز الحنث
في اليمين فقال اذا حلف احدكم صح على شئ فراى غيره خيرا منه فليات الذي هو خير وليكفر
عن يمينه والله اعلم بالصواب **الفصل الثالث فيما يتعلق بالقوى الشهوية** الحياء
الحياء انقباض النفس عن القبايح وهو من خصايص الانسان واول ما يظهر من قوة
الفهم في الصبيان وجعل الله تع في الانسان ليرتدع عما ينزع اليه الشهوة من القبايح
فلا يكون كالبهيمة وهو مركب من جبن وعفة ولذلك لا يكون المستحي فاسقا ولا الفاسق
مستحيا لتنافي اجتماع العفة والفسق وقل ما يكون الشجاع مستحيا والمستحي شجاعا
لتنافي اجتماع الجبن والشجاعة ولعزة وجود ذلك يجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة
والمدح بالحياء يجرى الحياء الخفر من سماتهم وحين يجرى من الغيم دم وقال اخر
كريم يغض الطرف فضل حيائه ويدنوا واطراف الرماح دواني ومتى قصد به الانقباض
فهو مدح الصبيان دون المشايخ ومتى قصد به ترك القبيح فمدح للكل وبالاعتبار
الاول قيل الحياء بالافاضل قبيح ومن هذا الوجه قيل خزي يجزي خزيا من الهوان

وجرى خراته في الاستحياء فجعلا من منبع واحد وبالاعتبار الثاني قيل ان الله يستحي
من ذي الشيبة في الاسلام ان يعذبه اي يترك تعذيبه واما الخجل فحيرة النفس لفرط
الحياء ويحمد في النساء والصبيان ويذم بالاتفاق من الرجال والوقاحة مذمومة
بكل انسان اذ هي انسلاخ من الانسانية وحقيقتها لجاجة النفس في تعاطي القبيح واشتقاقه
من حافر وقاح اي صلب ولهذه المناسبة قال الشاعر يا ليت لي من جلد وجهك رقعة
فاقد منها حافرا للاشهب وما اصدق قول الشاعر صلابة الوجه لم تغلب على احد
الا تكمل فيه الشر فاجتمعا فاما مواد اكتساب الحياء فهو ان الانسان اذا هم بقبيح
ان يتصور اجل من عنده نفسه حتى كانه يراه فالانسان يستحيي ممن يكبر في نفسه
ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الاطفال ولا من الذين لا يميزون ويستحي من العالم
اكثر مما يستحي من الجاهل ومن الجماعة اكثر مما يستحي من الواحد والذين يستحي منهم الانسان
ثلثة البشر وهم اكثر من يستحي منه ثم نفسه ثم الله عز وجل ومن استحي من الناس
ولم يستحي من نفسه فنفسه عنده اخس من غيره ومن استحي منهما ولم يستحي من الله
فلعدم معرفته بالله عز وجل فان الانسان يستحي ممن يستعظمه ويعلم انه يراه او يسمع
بخبره فيبكته ومن لا يعرف الله فكيف يستعظمه وكيف يعلم انه مطلع عليه وقول النبي عم
استحيوا من الله حق الحياء وفي ضمنه حث على معرفته وقال تع الم تعلم بان الله يرى
تنبيها ان العبد اذا علم ان الله يراه استحيا من ارتكاب الذنب وقد سئل الجنيد رح
عما تولد منه الحياء فقال رؤية العبد الاء الله عليه ورؤية تقصيره في شكره
فان قيل كيف قال النبي عم من لا حياء له فلا ايمان له قيل الحياء اول ما يظهر في الانسان
من امارة العقل والايمان اخر مرتبة العقل ومحال حصول اخر مرتبة العقل لمن لم يحصل
له المرتبة الاولى فبالواجب اذا كان من لا حياء له فلا ايمان له وقال عم الحياء
شعبة من الايمان وقال الايمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء

كبر الهمة

واما كبر الهمة فمختص بالانسان فاما الحيوانات فكل جنس يتحرى الفعل بقدر
ما في طبعه وهو حال من التبجح وصغر الهمة فالتبجح تاهل الانسان لما لا يستحقه
وهو البذخ وصغر الهمة تركه لما يستحق وهو الدناءة وكلاهما مذمومان لكن
المتبجح الجاهل احمق والصغير الهمة جاهل غير احمق وليس لكبر الهمة افراط مذموم
في الحقيقة وانما الافراط يدخل في كل فعل يتصوره بعض الناس بصورة علو الهمة
له وليس كذلك واعلم انه قد يقال فلان كبير الهمة وفلان صغير الهمة اذا كان احدهما
يطلب مقتنى اكثر او اشرف مما يطلبه الاخر فالكبير الهمة على الاطلاق هو من لا يرضى
بالهمم الحيوانية قدر وسعه ولا يصير عبد عاديه بطنه وفرجه بل يجتهد ان
يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من خلفاء الله واوليائه في الدنيا ومن مجاوريه
في الاخرة والصغير الهمة من كان على الضد من ذلك وقال اعرابي فلان عظمه
صغر الدنيا في عينه وكان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر اذا
وجد وخارجا من سلطان فرجه فلا يستخف له رايا ولا بدنا وحق الانسان ان يتطلف
عن ذلك فانه وان كان بعنصره حيوانا فبعقله وفكره ملك واذا ضيع نفسه صار
شرا من البهيمة وذلك هو الخسران المبين وقد قيل من عظمت همته لم يرض بقنية
مسترجعة وحيوة مستعارة فان امكنك ان تقتني قنية مؤبدة وحيوة مخلدة فافعل
فلا اعتداد بما له فناء والكبير الهمة على الاطلاق من يتحرى الفضائل لا للجاه ولا للثروة
ولا للذة ولا للاستشعار نخوة واستعلاء على البرية بل يتحرى مصالح العباد شاكرا
بذلك نعمة الله ومتوخيا به مرضاته غير مكترث بقلة مصاحبيه فانه اذا عظم
المطلوب قل المساعد وطرق العلا قليلة الايناس

الوفاء والغدر

الوفاء اخو الصدق والعدل
والغدر اخو الكذب والجور وذلك ان الوفاء صدق اللسان والفعل معا والغدر
كذب بهما فان فيه مع الكذب نقض العهد والوفاء يختص بالانسان فمن فقد فيه

الناس
انسلخ من الانسانية كالضديد وقد جعل الله تعالى العهد من الايمان وصيّره قواما لامور
الناس مضطرون الى التعاون ولا يتم تعاونهم الا بمراعاة العهد والوفاء ولولا ذلك
لتنافرت القلوب وارتفع المعاش ولذلك عظم الله امره فقال تعالى واوفوا بعهدي
اوف بعهدكم وقال تعالى واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم وقيل في قوله تعالى وثيابك فطهر اي
نزّه نفسك عن الغدر وقال تعالى والموفون بعهدهم اذا عاهدوا وقال تعالى والذين هم
لاماناتهم وعهدهم راعون وقد عظم حال السموئل فيما التزم من الوفاء بدروع امرئ
القيس ولقلة وجود ذلك في الناس قال الله تعالى وما وجدنا لاكثرهم من عهد وقد ضرب به
المثل في العزة فقيل هو اعز من الوفاء قال الشاعر ابى الناس الا ذميم الفعال اذا
جربوا وقبيح الكذب **المشاورة** اشتقاقها من شرت الدابة اذا استخرجت جريها
وهي استنباط المرء الراي من غيره فيما يعرض من مشكلات الامور ويكون ذلك
في الامور الجزئية التي يتردد المرء فيها بين فعلها وتركها ونعم العدة هي قال امير المؤمنين
علي رضه المشاورة حصن من الندامة وامن من الملامة وقيل الاحمق من قطعه العجب عن
الاستشارة والاستبداد عن الاستخارة والراي الواحد كالخيط السحيل والرايان
كالخيطين والثلثة امرار لا ينتقض وكفاك مدحها قوله تعالى لنبيه عم وشاورهم
في الامر وقد احسن الحكماء قول بشار اذا بلغ الراي المشورة فاستعن بحزم نصيح
او نصاحة حازم ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فريش الخوافي تابع للقوادم
لكن اعتبار من يجوز ان يعتمد مشاورته صعب جدا فانه يحتاج ان يكون صديقا امينا
مجربا حاذما ناصحا رابط الجاش غير معجب بنفسه ولا متلون في رايه ولا كاذب في مقاله
فمن كذب لسانه كذب رايه ويجب ان يكون فارغ البال وقت ما يستشار وقد
احسن بشار حيث قال وما كل ذي لب بموتيك نصحه ولا كل موت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب **النصح** اصله من نصحت الثوب

اذا خطته وهو اخلاص المحبة لغيره في اظهار ما فيه صلاحه وهو دون المحبة المختصة
بالفضيلة وفوق محبة النفع واللذة وقد عظم النبي عم امره فقال الدين النصيحة
فقيل لمن يا رسول الله فقال لله ولرسوله ولائمة المسلمين ولعامتهم فبين عم ان
النصح واجب لعامة الناس وذلك بان يتحرى مصلحتهم في جميع امورهم بقدر وسعه
واول النصح ان ينصح الانسان نفسه فمن غشها فقلما ينصح غيره وحق من
استنصح ان يبذل غاية النصح وان كان ذلك في شيء يضره ويتحرى فيه قول الله تعالى
يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم وقال تعالى واذا
قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وقال ابن عباس رضه لا يزال الرجل يزداد في صحة رايه
ما نصح لمستشيره فاذا غشه سلبه الله صحة رايه ولا يلتفتن الى من قال اذا نصحت
الرجل فلم يقبل منك فتقرب الى الله بغشه فذلك قول القاء الشيطان على لسانه
اللهم الا ان يريد بغشه السكوت عنه فقد قيل كثرة النصيحة تورث الظنة ومعرفة
الناصح من الغاش المتنصح صعب جدا فان الانسان لمكره يصعب الاطلاع على سره
اذ هو قد يبدي خلاف ما يخفي وليس كالحيوانات التي يمكن ان يطلع على طبايعها **كتمان
السر** السر ضربان احدهما ما يلقي الانسان من حديث يستكتم وذلك اما لفظا
كقولك لغيرك اكتم ما اقول لك واما حالا وهو ان يتحرى القايل حال انفراده فيما يورده
او يخفض صوته او يخفيه عن مجالسيه ولهذا قيل اذا حدثك الانسان بحديث
فالتفت فهو امانة والثاني ان يكون حديثا في نفسك مما يستقبح اشاعته او شيئا
تريد فعله والى الاول من ذلك اشار بقوله عم من اتى منكم من هذه القاذورات
شيئا فليستتر بستر الله والى الثاني اشار من قال من وهن الامر اعلانه قبل
احكامه وكتمان النوع الاول هو من الوفاء ويختص بعامة الناس والثاني من الحزم
والاحتياط وهو مختص بالملوك واصحاب السياسات واذاعة السر من قلة الصبر

وضيق الصدر ويوصف به ضعفة الرجال والنساء والصبيان والسبب في انه يصعب كتمان
السر هو ان للانسان قوتين آخذة ومعطية وكلتاهما يتشوق الى الفعل المختص به فلو
لا ان الله تعالى وكل المعطية باظهار ما عنده لما اتاك بالاخبار من لم تزوده فصارت
هذه القوة تتشوق الى فعلها الخاص بها فعلى الانسان ان يمسكها ولا يطلقها الا
حيث ما يجب اطلاقها ولا تخدعنك عن سرك قول من قال واكتم السر فيه ضربة العنق
وقول من يتشوق ويكاتم الاسرار حتى كانه ليصونها من ان تمر بخاطر فذلك قول من
يستنزلك عن ما في قلبك فاذا استفرغ ما عندك لم يرع فيه حقك فقد قيل الصبر على القبض
على الجمر ايسر من الصبر على كتمان السر وما اصدق من انبا عن حقيقة حاله حيث قال
صديق له اريد ان افشي اليك سرا لتحفظه علي فقال لا اريد ان اودي قلبي بنجواك
واجعل صدري خزانة شكواك فيقلقني ما اقلقك ويؤرقني ما اورقك فتبيت بافشائه
مستريحا ويبيت قلبي بحره جريحا وقد قيل اكثر ما يستنزل الانسان عن سره في ثلثة
مواضع عند الاضطجاع على فراشه وعند خلوته بعرسه وفي حال سكره ومن حق من
يسار غيره ان يجتنب المحافل لامرين احدهما قد يساء به الظن فلذا يقول قد اغتابني
وذا يستريب وذا يتهم والثاني انه ربما يتتبع بالفحص فيطلع على مراده ولذلك قال النبي عم
اذا كنتم ثلثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث فان ذلك يحزنه **التواضع والكبر** التواضع
اشتقاقه من الضعة وهو رضاء الانسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته وفضيلته
لا يكاد يظهر في افناء الناس لانحطاط درجتهم وانما يتبين ذلك في الملوك واجلاء الناس
وعلمائهم وهو من باب التفضل لانه ترك بعض حقه وهو من التوسط بين الكبر والضعة
والضعة وضع الانسان نفسه مكانا يزري به بتضييع حقه والكبر رفع نفسه
فوق قدره والفرق بين التواضع والخشوع ان التواضع يقال فيما بين رفيع ووضيع
وايضا فالتواضع يعتبر بالاخلاق والافعال الظاهرة والباطنة والخشوع يقال

باعتبار احوال الجوارح ولذلك قيل اذا تواضعت القلوب خشعت الجوارح وقال تعالى
خاشعة ابصارهم وقال وخشعت الاصوات للرحمن وقد عظم النبي عم التواضع و
ومدحه فقال طوبى لمن تواضع في غير منقصة وذل في نفسه من غير مسكنة وقد قيل
لبزرجمهر هل نعمة لا يحسد صاحبها عليها وبلاء لا يرحم صاحبه عليه فقال نعم اما
النعمة فالتواضع واما البلاء فالكبر وقال بعض الحكماء وجدنا التواضع مع الجهل
والبخل احمد عند الحكماء من الكبر مع الادب والسخاء فانبل بحسنة غطت على عيبين
واقبح بسيئة غطت على حسنتين والكبر هو ظن الانسان بنفسه انه اكبر من غيره
والتكبر اظهاره لذلك وهذه صفة لا يستحقها الا الله تعالى ومن ادعاها من المخلوقين
فهو فيها كاذب ولذلك صار مدحا في حق الباري تعالى وذما في البشر وانما شرف المخلوق
في اظهار العبودية كما قال تعالى لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة
المقربون تنبيها ان ذلك للمرء رفعة لا ضعة والمتكبر والوضيع كلاهما جاهلان
لكن الوضيع غبي والمتكبر احمق وشتان ما بينهما فالغبي قد يتأدب والاحمق
لا سبيل له الى تأديبه ولان الوضيع قد ترك ماله والمتكبر ادعى ما ليس له فشتان
ما بين المنزلتين ولان الكبر يتولد من الاعجاب والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن
والجهل رأس الانسلاخ من الانسانية ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ولذلك
عظم الله امره فقال انه لا يحب المستكبرين وقال اليس في جهنم مثوى للمتكبرين وقال
اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وقال وكذلك
يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وقال النبي صلعم يقول الله عز وجل الكبرياء ردائي
والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في نار جهنم وقد نبه سبحانه وتعالى
على مبلغ فعل احد تنبيه فقال ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن
تبلغ الجبال طولا واقبح كبر بين الناس ما كان معه بخل ولذلك قال عم خصلتان لا تجتمعان

في موضع الكبر والبخل واستحسن قول الشاعر جمعت امرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك
وافعال المماليك ومن يتكبر لرياسة نالها دل ذلك على دناءة عنصره ومن تفكر في تركيب ذاته
عرف مبداه ومنتهاه واوساطه عرف نقصه ورفض كبره وقد نبه الله سبحانه
على ذلك احسن تنبيه بقوله فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين
الصلب والترائب وبقوله تعالى قتل الانسان ما اكفره من اي شيء خلقه من نطفة خلقه
فقدره وقوله تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه وقوله تعالى اولم ير الانسان
انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين والى هذا المعنى نظر مطرف بن عبد الله
بن الشخير لما قال ليزيد بن المهلب اولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وانت
فيما بين ذلك تحمل العذرة واخذ ذلك الشاعر فقال كيف يزهو من رجيعه ابد الدهر
ضجيعه يا قريب العهد بالمخرج لم لا تتواضع فمن كان يتكبر لقنيته فليعلم ان ذلك
ظل زائل وعارية مستردة والاستطالة اظهار الطول فمن اظهر ذلك مع الطول فقد
من غير طول فهو منسلخ عن الانسانية ومن اظهر ذلك مع الطول فقد ضيع طوله والصلف
تعال اعتبارا بالصلف في عنقه والصعر لميل في خد ولذلك استعمل في ذلك لي الراس نحو
قوله تعالى لووا رؤسهم والتياه والاستقصاء في النفس بالترفع عن الانقياد للواجب
والخيلاء ان يظن بنفسه ما ليس فيها من قولهم خلت ولتصور هذا المعنى قال حكيم
اعجاب المرء بنفسه ان يظن بها ما ليس فيها مع ضعف قوة فيظهر فيه والزهو هو
الاستخفاف من الفرح بنفسه واما العزة فالترفع بنفسه عما يلحقه غضاضة و
اصلها من العزاز وهي الارض الصلبة والتعزز حصوله في عزاز لا يلحقه فيه غضاضة
كالمتطلع في كونه في طلعة من الارض لا يلحقه فيه مذلة والعزة منزلة شريفة
وهي نتيجة معرفة الانسان بقدر نفسه واكرامها عن الضراعة للاعراض الدنيوية
كما ان الكبر نتيجة جهل الانسان بقدر نفسه وانزالها فوق منزلتها وكثيرا ما تتصور

احداهما بصورة الآخر كتصور التواضع والتضرع والتذلل بصورة واحدة
وتصور الاسراف بصورة الجود وتصور البخل بصورة الحزم ولهذا قال الحسن
لمن قال له ما اعظمك في نفسك فقال لست بعظيم ولكني عزيز وقد قال الله تعالى ولله
العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال النبي عم لا ينبغي للمؤمن ان يذل نفسه وانما
قلنا قالوا التكبر على الاغنياء تواضع تنبيها ان هذا التكبر غير مذموم
في الحقيقة عن النفس ولاجل ان هذا التكبر غير مذموم قال تعالى ويتكبرون في الارض
بغير الحق فشرط غير الحق وقال ابن مسعود رضه من خضع لغني ووضع نفسه عنده
طمعا فيه ذهب ثلثا مروته وشطر دينه الفخر هو المباهاة بالاشياء الخارجة عن ٨٧
الانسان وذلك نهاية الحمق لمن نظر بعين قلبه والحسو عنه قناع جهله علم ان اعراض
الدنيا عارية مستردة لا يؤمن في كل ساعة ان تسترجع فالمباهي بها مباه بغير
نزاه ومتبجح بما في بطن سواه كالمفاخر بخرج زينها بل هو دون من ذلك فقد قال
بعض الحكماء للمفتخر بثروته ان افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك
وان افتخرت بثيابك وآلاتك فالجمال لها دونك وان افتخرت بآبائك فالفخر فيهم لا فيك
ولو تكلمت هذه الاشياء لقالت هذه محاسننا فما لك من الحسن وايضا فالاعراض
الدنيوية سحابة صيف عن قليل تقشع وظل زائل عن قليل يضمحل كما قيل
انما الدنيا كرؤيا فرحت من رآها ساعة ثم انقضت بل كما قال الله تعالى انما مثل
الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض الآية فان افتخرت
فافتخر بمعنى فيك غير خارج عنك فاذا اعجبك من الدنيا شيء فاذكر فناءك وبقاءه
او بقاءك وزواله او فناءكما جميعا فاذا راقك ما هو لك فانظر الى قرب خروجه من
يدك وبعد رجوعه اليك وطول حسابك عليه ان كنت تؤمن بالله واليوم الآخر
وقد ذم الله تعالى الفخور فقال والله لا يحب كل مختال فخور العجب العجب ظن الانسان

في نفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها ولهذا قال اعرابي لرجل رآه معجبا بنفسه يسرّني
ان اكون عند الناس مثلك في نفسك واكون في نفسي مثلك عند الناس فتمنى حقيقة ما
يقدّر المخاطب ورأى ان ذلك انما يتم حسنه متى عرف هو عيوب نفسه وقد قيل
من شر الناس فعالا من يرى انه افضلهم وقال بعضهم الكاذب في نهاية البعد من
الفضل والمرائي اسوأ حالا منه لانه يكذب بفعله وقوله والمعجب اسوأ حالا منهما فانهما
يريان نقص انفسهما ويريدان اخفاءه والمعجب عمي عن مساوي نفسه ورآها محاسن
وسرّ بها ولان المرائي والكاذب قد ينتفع بهما كملاح خاف ركابه الغرق من
مكان في البحر فبشرهم بتجاوزه قبل ان يجاوزه لئلا يضطربوا خوف الغرق فيؤدي
ذلك بهم الى العطب وقد يجدي رياء الرئيس اذا قصد ان يقتدى به في فعل خير و
المعجب لا حظ له في ذلك بوجه ولانك اذا وعظت المرائي والكاذب فنفعتهما تقصد لك
وتبكيتهما بمعرفتهما بنقصهما والمعجب لجهله بنقصه يظنك في وعظه متلغيا فلا ينتفع
بمقالك واياه قصد بقوله أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ثم قال فلا تذهب
نفسك عليهم حسرات تنبيها انهم لا يعقلون لاعجابهم وقال النبي صم ثلث مهلكات
شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وقد قال ابليس اذا ظفرت بابن
آدم بثلث لم اطالبه بغيرها اذا اعجب بنفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه وكما
ان المعجب بفرسه والحائز زيا لا يروم ان يستبدل به غيره كذلك المعجب بنفسه
لا يريد بحاله وان كانت رديئة بدلا واصل الاعجاب من حب الانسان نفسه
وقد قال عم حبك الشيء يعمي ويصم ومن عمي وصم تعذر عليه رؤية عيوبه
وسماعها فيجب علينا ان نجعل على انفسنا عيونا تعرفنا عيوبنا فقد قال
من هو خير منا رحم الله امرأ اهدى الي عيوبي ويجب الانسان اذا رأى
من غيره سيئة ان يرجع الى نفسه فان رأى فيها مثل ذلك ازاله ولا يغفل عنه

ممن جهل نفسه قدره ورأى غيره منه ما لا يرى والتيه قريب من العجب لكن المعجب
يصدق نفسه فيما يظن بها وهما والتائه يصدقها قطعا كانه متحير في تيهه **انواع
اللذات وتفاصيلها** اللذة ادراك المشتهى والشهوة انبعاث النفس لنيل ما يشوقه
وهي بالثلث بحسب القوى الثلث وبحسب المعتنيات الثلث لذة عقلية وهي التي يختص الانسان
بها كلذة العلم والحكمة ولذة بدنية يشارك فيها جميع الحيوان الانسان كلذة المأكل
والمشرب والمنكح ولذة مشتركة بين بعض الحيوان والانسان كلذة الرياسة والغلبة
واشرفها واقلها وجودا اللذة العقلية فشرفها انها لا تعل ولا تبدل لكن لا
يعرفها الا من يختص بها كالحكمة لا يستلذها الا الحكيم وادون اللذات منزلة
واكثرها وجودا اللذة البدنية وكل حيوان يتشوقها لكنها تمل بآن وتزول لآن
وهي من وجه مداواة من ألم ومن وجه هي ألم وعلى هذا قال الحسن في وصف الانسان
صريع جوع وقتيل شبع وجميع اللذات تنقسم عشرة اقسام مأكل ومشرب
ومنكح وملبس ومشم ومسمع ومبصر ومركب وخادم ومرفق من الآلات
وما يشبهها وقد جعل ذلك سبعة فادخل الخادم والمركب والمرفق وما يجري مجرى
ذلك في جملة المبصرات وعلى ما روي عن امير المؤمنين علي رض لعمار بن ياسر وقد تنفس داخلا
فقال يا عمار على ماذا تنفسك ان كان على الآخرة فقد ربحت تجارتك وان كان على الدنيا
فقد خسرت صفقتك فاني وجدت لذاتها سبعا المأكولات والمشروبات والمنكوحات
والملبوسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات فاما المأكولات فافضلها العسل
وهو صنعة ذباب واما المشروبات فافضلها الماء وهو مباح اهون موجود و
اعز مفقود واما المنكوحات فمبال في مبال وحسن الذي للمرأة يؤتى احسن شيء
منها ويراد اقبح شيء منها واما الملبوسات فافضلها الديباج وهو نسج دودة
واما المشمومات فافضلها المسك وهو دم فارة واما المسموعات فريح هابة في الهواء طيبة

واما المبصرات فخيالات صايرة الى الفناء، وقد ذكر الله تعالى اصل ذلك في قوله زين للناس
حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل
والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدنيا والمشار اليه بحرث
الدنيا الى هذه الاشياء السبعة على ما ذكره علي رض والعشرة على ما ذكره غيره
وكلا القولين في التحصيل واحد والمراد بالنساء امتنا وهن والاستكثار منهن
وبالبنين الذكور من الاولاد والحفدة والخدم وبالانعام الازواج الثمانية
وبالخيل المسومة السايمة منها والمستعدة واعلم ان الذي هو ضرورة الانسان
من هذه اللذات ولا قوام له في هذه الدنيا الا بها ما هو مشترك بينه وبين جنسه
من الحيوان من الماكل والمشرب ويجمعهما اسم الغذاء والمنكح فبالغذاء بقاء الاشخاص
وبالنكاح بقاء الانواع ولذلك صارت الحاجة اليهما ضرورية وصار تناولهما
لا بد منه وساير اللذات مخصوص بالانسان وليس بضروري له تناوله بل يمكن
ويابى الملوك من هذه الملاذ سوى استماع السماع لكونه من وجه لذة روحانية
والشبه لكونه ذا الاعلى الالة الرفيعة ومتى كانت الشهوة متناهية غلبته كانت
ام بديئه يقال لها الحرص والحرص قد يكون محمودا ولذلك قال انه حريص عليكم بالمومنين
رؤف رحيم ومتى كانت الشهوة للقنيات قيل لها الشره سواء كان مالا او طعاما
او نكاحا ومتى كانت للطعام قيل لها النهم فاذا كانت للنكاح قيل لها الشبق
وثلثتها اعني الشبق والنهم والشره مذموم وما روي من قوله عم منهومان
لا يشبعان منهوم بالمال ومنهوم بالعلم فالنهم في العلم استعارة وهو ان يحمل
على نفسه ما يقصر قواها عنه فينبت وقد قال عم ان المنبت لا ارضا قطع
ولا ظهرا ابقى فيما يحسن تناوله من المطعم ويقبح منه الغذاء ضربان احدهما ما
لا يستغنى عنه في تربية البدن كالطعام الذي به يتغذى والماء الذي به يروى

فالانسان اذا تناول من ذلك مقدار ما لا يمكن التبلغ باقل منه على ما يجب وكما يجب فهو
معذور بل مشكور ماجور وعلى هذا ما روي عند اكل الصالحين تنزل الرحمة وحقه
ان يتناوله تناول مضطر عالم بمقدار حاله وان يرى ادخاله في نفسه كدخول
المستراح ويتحقق ان نسبة الانسان الى الثمار والفواكه نسبة الجعل الى الروث فلو نطق
الشجر لقال لك انت تاكل فضالتي كما ياكل الجعل فضالتك والخنزير اذا استطاب
لفاظة الانسان فما هو الا كاستطابتنا لفاظة الشجر وبهذا يعلم ان شرف المطعم
والمشرب بالاضافة لا بالاطلاق فالق يا انسان عن عينيك الذباب واجل البصيرة
واستعمل الاعتبار تجد صدق ما قلت ومن تناول من الطعام اكثر من ذلك كره له
طبا وشرعا اما طبا فيدل عليه قول الشاعر   فان الداء اكثر ما تراه يكون
من الطعام والشراب وقد قال النبي عم البطنة اصل الداء والحمية اصل الدواء
وعود كل بدن ما اعتاد قال زكريا المتطبب ما ترك النبي عم في الطب
شيئا الا اتى به في هذه الكلمات الثلث واما شرعا فقد قال عم ما من وعاء
ابغض الى الله من بطن ملئ من حلال وذلك ان امتلاء البطن مقو للشهوة وقوة
الشهوة داعية للهوى والهوى اعظم جند الشيطان ومن اثر هواه وانتشر في
بدنه حل كل عضو منه بقدر وسعه فكثر جنود الشيطان والشيطان اذا تسلط
على الانسان سباه عن ربه وصرفه عن رايه وقد قيل لحكيم ما بالك مع كبرك
لا تتعهد بدنك وقد اجهدته فقال لانه سريع المرح فاحش الاشر فاخاف ان
يجمح بي فيورطني ولان احمله على الشدايد احب الي من ان يحملني على الفواحش والقبح
الثاني من المطعم ما يستغنى عنه ولو توهمنا معتقدا لم يخل بافتقاد البدن
واعظمه ضررا المسكر فنفعه ليس بضروري وتناوله تسهيل لطريق الشيطان
الى تهييج القوة السبعية واثارة سلطان الهوى كما قال انما يريد الشيطان ان

يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة
وقد قيل حيث لا يسكن الشراب واللهو لا يسكن العفة والحكمة فان قيل فقد قال الله
قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق فلم يخص من الحلال
قدرا دون قدر ولا جنسا دون جنس قيل الطيب التام الطيب هو الذي جمع اللذة والنفع
والفضيلة وذلك هو القدر المتبلغ على ما يجب وكما يجب الا يرى كيف ذم من لم يكن
ذلك قصده فقال ذرهم ياكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون وقال والذين
كفروا يتمتعون وياكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم ومن الدلالة على
خسة كثرة الاكل ادعاء عامة الناس الاستغناء بالقليل وقلة وجود المفتخر
بكثرة الاكل وقد قيل من كانت همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه وقد
وقد استحسن قول الشاعر فانك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم
اجمعا وقد قال عم حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لا بد فثلث للطعام
وثلث للشراب وثلث للنفس وقال عم المؤمن ياكل في معا واحد والكافر ياكل
في سبعة امعاء فنبه في الخبرين انه لا يستحب للانسان الا الاكل في سبع بطنه
وهو ما ذكره من اللقيمات وذلك دون عشر لقم لان الجمع بالالف والتاء لما دون
العشرة ثم رخص لمن غلب عليه النهم ان يبلغ الى ثلث بطنه فحصل من ذلك ان
اكل المؤمن في اليوم ينبغي ان يكون سبع بطنه او ثلث بطنه ما يحسن من النكاح
وما يقبح منه قد تقدم ان النكاح ضروري لحفظ النسل وبقاء النوع كما ان الغذاء
ضروري في حفظ الشخص ولذلك قال عم تناكحوا تكثروا وقال عم خير نسائكم
الودود الولود وشرهن العقيم وقال تزوجوا الودود الولود فاني مكاثر بكم
الامم وقال سوداء ولود خير من حسناء عقيم ولقصد النسل حظر اتيان
المراة في محاشها وعلى هذا نبه قوله تع نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم

فنبه انه لا يجوز اتيانها الا حيث المحرث وكره العزل تاكيدا للمقصود من النكاح وعلى ذلك
قوله تع وابتغوا ما كتب الله لكم وتحري النكاح على ضربين احدهما على الوجه الذي سنه
الشرع وذلك اما محمود وهو ان يتعاطاه قاصدا به النسل او مزيلا للضرر عنه على ما يجب
او مسكنا للنفسه فالماء اذا اجتمع في مغرة يجري مجرى مدة وقيح من جرح ثم يعظم
بحبسه الضرر ويدعو صاحبه الى ما هو في الشرع محرم واما مكروه طبا وان لم يكن مكروها
شرعا وذلك ان يتعاطاه المرء فضلا عما تقدم ذكره فانه ينقص العمر ويستنفد القوى
ويوسع اوعية المني ويجلب الداء كثيرا ويزيد شهوة فاعظم فايدة فيه ان يلحق
صاحبه بافق البهائم من التيوس والثيران وغيرها مما يوصف بالشبق والضرب
الثاني هو ان يكون على غير الوجه المشروع وذلك ضربان احدهما تعاطيه في المحرث
ولكن لا على الوجه الذي يجب وكما يجب وقد عظم الله تع امره فقرنه مرة بالشرك فقال
الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك ومرة قرنه بالشرك
وقتل النفس المحرمة فقال والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم
الله الا بالحق ولا يزنون الآية وسمى ذلك سفاحا من ان المجتمعين عليه لا غرض لهما
سوى سفح الماء للشهوة لكن ضيع ماءه في غير حرثه والثاني تعاطيه في غير المحرث
كاللواط وهي اعظم من الزنا لان الزنا وضع البذر في المحرث على غير الوجه المامور به
فهو كمن يزرع في ارض غيره او على غير الوجه الذي يجوز ان يزرع وفي اللواط مع ذلك
تضييع البذر فمتعاطيها كمن قال الله تع فيه ويهلك الحرث والنسل ولهذا وصف قوم
لوط بالاسراف فقال تع ائنكم لتاتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم
مسرفون واما العشق الشهوي فحماقة وجهل بما وضع لاجله الجماع وتجاوز لحد الله
في عدم ملكة النفس وذم الهوى لان المتعشق لم يرض بان لقي لذة الباه التي هي
من اسمج الشهوات حتى ارادها من موضع واحد فازداد بذلك عبودية على عبودية

وذلك على ذلة فالبهيمة احسن حالا منه لانها اذا اسقطت الاذى عن نفسها بالفساد
سكنت فصارت الى الراحة وهو لم يرض بذلك حتى استعان بالعقل في خدمة الشهوة
واستجلابها وانما اعطاه الله تعالى العقل ليقمع به الشهوة القبيحة لا ليجعله خادما لها
وساعيا في جهتها فتعاطي العشق حال كل جاهل فارغ سيما اذا نظر في اخبار العشاق
وجالسهم وربما يؤدي بالعاشق الحال الى الدق والذبول بل الى الموت قال الشاعر
لو فكر العاشق في منتهى معشوقه قصر في عشقه حسن الذي يسبيه وهذا آثار شهوته
فهو كمن يثير بهايم عادية وسباعا ضارية ثم يلتمس دفعها وقمعها والخلاص من شرها
وقد كان فيما يهيج من باعث الطبيعة كفاية عن اثارتك بالفكر والروية فمن اعان
الطبيعة على ذلك فهو كما قيل كما انبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
وقد قال حكيم لتلميذه وقد كان يهوى جارية هل تشك في ان الابدان يفارقها الارواح
يوما ما فقال لا قال فاجعل تلك المرارة المتجرعة في ذلك اليوم في يومك هذا فاربح ما بينهما
من الخوف المنتظر وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام وانضمام الالف اليه شديد
وقيل لبعض الحكماء ما العشق فقال جنون لا يؤجر صاحبه عليه وسئل آخر عنه فقال
مرض نفس فارغة لا همة لها وقال غيره هو سوء اختيار صادف نفسا فارغة فانظر ان
كلامهم الى معنى واحد العفة العفة لا يتعلق الا بالقوة الشهوية ولا يتعلق من القوة الشهوية
الا بالملاذ الحيوانية وهي المتعلقة بالفارجين وهما البطن والفرج دون الالوان الحسنة
والالحان الطيبة والاشكال المنتظمة فان قيل فاستطابة الرائحة قد يكون للبهايم
الا ترى ان الذئب يستطيب ريح الغنم والكلب يستطيب رائحة الارنب قيل ان
استطابتهما لذلك استطابة للاكل والذي قلنا من الرائحة هو ما يستطاب لذاته
لا للغير وما هو لاجل احد الفارجين فحكمه حكمهما كاستطابة الجائع ريح السكباج
فثبت ان العفة هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية وهي حالة متوسطة بين افراط

وهو الشره وبين تفريط هو خمود الشهوة وهي اس الفضايل من القناعة والزهد
وغنى النفس والسخاء وعدمها يعفي على جميع المحاسن ويعري عن لبوس المحامد ومن
يتسم بسمة العفة فاحتف العفة له بجميع ما سواها من الفضايل وسهلت له سبيل الوصول
الى المحاسن وانما يتعلق بضبط القلب عن تطلع الشهوات البدنية ومن اعتقاد
ما يكون جالبا للبغي والعدوان وتمامها يتعلق بحفظ الجوارح فمن علامة عفة القلب
ان لا يكون منه التمني وسوء الظن اللذان هما اس كل رذيلة لان من تمنى ما في يد غيره حسده
واذا حسده عاداه واذا عاداه نازعه واذا نازعه ربما قتله ومن اساء الظن عادى
وبغى وتعدى ولذا نهى سبحانه وتعالى عنهما جميعا فقال ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم
على بعض وقال يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم فامرهما
يقطع شجرتين يتفرع عنهما جل الرذايل والمآثم ولا يكون الانسان تام العفة حتى يكون
عفيف اليد واللسان والسمع والبصر فمن عدمها في اللسان السخرية والتجسس والغيبة
والهمز والنميمة والتنابز بالالقاب ومن عدمها في البصر مد العين الى المحارم وزينة
الحيوة الدنيا المولدة للشهوات الردية ومن عدمها في السمع الاصغاء الى المسموعات
القبيحة وعماد عفة الجوارح كلها ان لا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحد
منها الا فيما يسوغه العقل والشرع دون الشهوة والهوى واعلم انه لا يكون المتعفف عفيفا
الا بشرايط وهو ان لا يكون تعففه عن الشيء انتظارا لاكثر منه او لانه لا يوافقه
او لخمود شهوته او لاستشعار خوف من عاقبته او لانه ممنوع من تناوله او لانه غير
عارف به لقصوره فان ذلك كله ليس بعفة بل هو اما اضطرار او تطبب او مرض
او خرق او عجز او جهل وترك ضبط النفس عن الشهوة اذم من تركها عن الغضب
والشهوة مختالة مخادعة والغضب والمتحيز عن قتال المخادع اذل حالا من المتحيز
عن قتل المغالب ولذا قيل عبد الشهوة اذل من عبد الرق وايضا فالشره قد يحمل

عيبه فهو شبيه بمن به لمم سنة نقية داهلها يدعون صحتها ومن يضبط نفسها للغضب
لا يكاد يجهل عيبه فهو شبيه لمن بيده لمم سنة ردية يتعاطونها وهم يعرفون قبحها
وليس من يتعاطى قبيحا يجرفه كمن يتعاطاه وهو يظنه حسنا

القناعة الزهد

القناعة الرضا بما دون الكفاية والزهد الاقتصار على الزهيد اى القليل وهما
متقاربان لكن القناعة تقال اعتبارا برضا النفس والزهد يقال اعتبارا بالمتناول
لحظ النفس وكل زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهد لا زهد ولذلك قال بعض المتصوفة
القناعة اول الزهد تنبيها ان الانسان اولا يحتاج الى نزع نفسه والتخصص بالقناعة
ليسهل عليه تعاطى الزهد فالقناعة هى الغنى الحقيقة والناس كلهم فقراء من وجهين
احدها لافتقارهم الى الله تعالى كما قال تعالى يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والثانى
لكثرة حاجاتهم فاغناهم اقلهم حاجة ومن سد مفاقره بالمقتنيات فما انسد له
لان الطمع فانه يرقع الخرق بالخرق ويسد الفقر بالفقر ومن سدها بالاستغناء عنها
بمقدار وسعه والاقتصار على تناول ضرورياته فهو الغنى والقرب من الله كما اشار اليه مقداره
فيما حكى عن طالوت ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه
منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم ولان الغنى هو عدم الحاجة
فاغنياؤهم اقلهم حاجة ولذلك كان الله تعالى اغنى الاغنياء لانه لا حاجة به الى شيء
وعلى ذلك دل قول النبى عم ليس الغنى بكثرة العرض وانما الغنى غنى النفس ومن ابيات
الحكمة غنى النفس ما يكفيك من سد خلة فان زاد شيئا عاد ذلك الغنى فقرا والمخير
بين ان يستغنى عن الدنيا وبين ان يستغنى بها كالمخير بين ان يكون مالكا او مملوكا او
قويا او ضعيفا او معافا او مبتلى او حيا او ميتا فمتى اختار الاستغناء بها فقد
اختار ان يكون مملوكا وضعيفا ومبتلى وميتا ولهذا قال عم تعس عبد الدرهم
تعس عبد الدينار وقيل لحكيم لم لا تغتم فقال لانى لم اتخذ ما يغمنى واعلم

انه ليس الزهد من ترك المكاسب فى شيء كما توهمه قوم افرطوا حتى قربوا من مذهب
المانوية والبراهمة والرهبانية فان ذلك يؤدى الى خراب الدنيا وهلاك العالم ومضادة
الله سبحانه وتعالى فيما قدر ودبر وقد تقدم ذلك والزهد من وجه صبر ومن وجه
جوده جود فالجود ضربان بما فى يدك متبرعا وجود عما فى يد غيرك متورعا وذلك اشرفهما
ولا يحصل الزهد فى الحقيقة الا لمن يعرف الدنيا ما هى ويعرف عيوبها وآفاتها و
يحقق ما يستغنى عنها ويعرف الآخرة وافتقاره اليها ولاجل ان لا بد فى ذلك من
العلم قال تعالى قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يا ليت لنا مثل ما اوتى قارون انه لذو
حظ عظيم وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا
ت يلقيها الا الصابرون ولان الزهد فى الدنيا راغب فى الآخرة وهو يبتغيها بها كما قال
ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ومحال ان يبيع كيس
عينا باثر الا اذا عرفها وعرف فضل المبتاع على المبيع وقد قيل لبعض الزهاد
ما ازهدك واصبرك فقال اما زهدى فرغبة فيما عند الله وهو اعظم مما انا فيه
واما صبرى فلخوفى من النار

الورع

الورع اصله جبن وخوف وضعف وقد
يستعمل فى كل واحد منهما لكنه جعل فى عرف الشرع عبارة عن ترك التسرع الى
تناول اعراض الدنيا وذلك ثلثة اضرب واجب وهو الاحجام عن المحارم وذلك
للناس كافة وندب وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للاوساط وفضيلة وهو
الكف عن كثير من المباحات والاقتصار على اقل الضرورات وذلك للمتقين من
النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد قال عم لا يكون العبد من المتقين
حتى يدع ما لا باس به مخافة ما به باس وقال اعتبارا بالمنزل الثانى دع ما يريبك
الى ما لا يريبك وقال له قائل ما اشد الورع فقال عم ما ايسر الورع اذا شككت
فى شيء فاتركه

الفصل الرابع فيما يتعلق بالقوى الغضبية

ما يمنع من الغوى

الغضبية الحمية وهي قوة الغضب متى تحركت تحرك دم القلب فيتولد منه ثلاثة اشيا احوال
وذلك انها اما ان يتحرك على من فوقه او على من دونه او على نظيره فان كان ذلك على من فوقه
ممن يعلم انه لا سبيل له الى الانتقام منه يتولد منه انقباض دم القلب جزعا على العجز
عن الانتقام وذلك هو الغم وان كان على من دونه ممن يتحقق انه يقدر على الانتقام منه تولد
منه ثوران دم القلب لارادة الانتقام وذلك هو الغضب وان كان على نظيره فيمن
يشك انه هل يقدر على الانتقام منه يتولد منه تردد الدم بين انقباض وانبساط وذلك
هو الوتر والحقد ولكون الغم والغضب بالذات واحدا واختلافهما بالاضافة لما
سئل ابن عباس رضي الله عنهما قال مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه
اظهر غضبا ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا ومن هذا قال الشاعر **شعر**
فحزن كل اخي حزن اخو الغضب ولانبساط دم القلب للحقد يحمر تارة وجهه
وينتفخ اوداجه كنار يلتهب ويسود وجهه تارة وذلك اذا اكثر واشتد غضبه
كنار في غار فيسود جوه ولانقباض دم الحزن عن ظاهر الجلد واجتماعه في القلب
يصفر وجهه حتى ربما يهلك من ذلك ولتردد دم القلب في الحقد بين الاحوال يحمر و
يصفر ويسود والحرد هو الغضب لكن يستعمل اذا كان معه قصد المغضوب عليه
ولذلك يقال حرد حرد الاسد **انواع الصبر ومدحه** الصبر ضربان جسمي ونفسي
فالجسمي هو تحمل المشاق بقدر القوة البدنية ونهايته معلومة واكثره لذوي الجسوم
وليس ذلك بفضيلة تامة ولهذا قال الشاعر والصبر بالارواح يعرف فضله
صبر الملوك وليس بالاجسام وذلك في الفعل كالمشي ورفع الحجر الثقيل وفي الانفعال
كالصبر على المرض واحتمال الضرب والقطع والثاني نفسي وبه يتعلق الفضيلة
وذلك ضربان صبر عن تناول مشتهى ويقال له العفة وصبر على تحمل مكروه او محبوب
وذلك يختلف اسماؤه بحسب اختلاف مواقعه فان كان ذلك في نزول مصيبة فان لم يتعد

به اسم الصبر ويضاده الجزع والهلع والحزن وان كان في احتمال غنى فيسمى ضبط
النفس ويضاده الاشر والبطر وان كان في محاربة سمي شجاعة ويضاده الجبن وان
كان في امساك النفس عن قضاء وطر الغضب سمي حلما ويضاده التذمر وان كان
في نائبة مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده ضيق الصدر والضجر والتبرم وان كان
في امساك كلام في الضمير سمي كتمان السر ويضاده الافشاء وان كان عن فضول
العيش سمي قناعة وزهدا ويضاده الشره والحرص ولكون الصبر عاما قال
الله تعالى والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا
واولئك هم المتقون فذكر انهم يصبرون في البأساء اي في المحاربة وفي الفقر والضراء
اي في المصيبة وحين البأس اي في المحاربة وقال بعضهم ضبط النفس فقال في
الاشياء الثلاثة والصبر وقال في الاشياء المحزنة وقال بعضهم بل هما من الاسماء
المترادفة على معنى واحد فان قيل ما معنى قول النبي عم الصبر نصف الايمان قيل
لما كان جميع المحامد ضربين ترك الشر وتحري الخير ويعبر عنه بالشكر صار الصبر الذي هو
ترك الشر نصف الايمان **الشجاعة** الشجاعة ان اعتبرت وهي في النفس فصرامة
القلب في الاهوال وربط الجاش وان اعتبرت بالفعل فالاقدام على موضع الفرصة
وهي فضيلة بين التهور والجبن وهي تتولد من الفزع والغضب اذا كانا متوسطين
فان الغضب قد يكون مفرطا كمن يحتد سريعا من اشياء صغيرة وقد يكون مقصرا
كمن لا يغضب من الافتراء على حرمه وشتم ابيه وامه وقد يكون متوسطا على ما يجب
في وقت ما يجب وبقدر ما يجب وكذلك الفزع قد يكون مفرطا فيتولد منه الجبن
الهالع ومقصرا فيتولد منه الوقاحة والتهاون كمن لا يفزع من شتم ابائه و
تفضيح حرمه واصدقائه وقد يكون متوسطا كما يجب وبقدر ما يجب ولكونهما
اعني الغضب والفزع على حالين محمود ومذموم صار الحمد زيادة والذم اخرى

فان الغضب نحو قوله تعالى وغضب الله عليهم والفزع في نحو قول الشاعر اذا ظلم المولى فزعت
لظلمه هما محمودان والتهور هو عدم الثبات وهو مذموم في الامور العمليه واعلم
ان انواع الشجاعة خمسة سبعية كمن اقدم لثوران غضب وتطلب غلبه وبهيمية كمن
حارب توصلا الى مأكل او منكح وتجربية كمن حارب مرارا فظفر فجعل ذلك اصلا
يبني عليه وجهادية كمن يحارب ذبا عن الدين وحكمية وهي ما يكون في كل ذلك
عن فكر وتمييز وهيئة محمودة بقدر ما يجب على ما يجب الا يرى انه يحمد من اقدم على
كافر غضبا لدين الله او طمعا في ثوابه او خوفا من عقابه او اعتمادا على ما رأى
من انجاز وعد الله في نصرة اوليائه فان كل ذلك محمود وان كان محض الشجاعة هو
ان لا يقصد بالاقدام حوز ثواب او دفع عقاب فقد قيل من عبد الله بعوض
فهو لئيم والفرق بين المقدم في الحرب لمحض الحكمة واخلاص الدين وبين المقدم لغير
ذلك هو ان المقدم لغير الحكمة والاخلاص يخاف الموت اكثر مما يخاف المذمة القادحة فيه
والمقدم للحكمة والاخلاص بالضد من ذلك فانه يختار الموت الحميد على الحيوة الذميمة
ولذلك قال علي رضي الله عنه ايها الناس ان لم تقتلوا تموتوا والذي نفس ابن ابي طالب بيده
لالف ضربة بالسيف اهون من ميتة على فراش ومن الشجاعة المحمودة مجاهدة
الانسان نفسه او غيره وكل واحد منهما ضربان مجاهدة النفس بالقول وذلك
بالتعلم وبالفعل وذلك بقمع الشهوة وتهذيب الحمية ومجاهدة الغير بالقول و
ذلك تدبير الحق وتعليمه وبالفعل وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب
اسماء انواع الفزع والجزع والفرق بينهما وبيان ما يحمد منهما وما يذم الفزع والجزع
اخوان لكن الفزع ما يعتري من الشيء المخيف والجزع ما يعتري من الشيء المؤلم
والفزع لفظ عام سواء كان عارضا عن امارة ودلالة او حاصلا لا عن ذلك ومتى كان
ذلك من عار وهو الحياء والخجل ومتى كان ذلك عن شيء يفزع فهو الفرق والذعر ومتى

كان لفوت محبوب فهو الاشفاق ولذا قال تعالى حكاية عن اهل الجنة انا كنا قبل في
اهلنا مشفقين والخوف هو توقع مكروه عن امارة والخشية خوف يشوبه تعظيم
المخشي منه مع المعرفة به ولذلك قال تعالى من خشي الرحمن بالغيب وقال انما يخشى الله
من عباده العلماء والوجل استشعار عن خاطر غير ظاهر وليس له امارة قال الله تعالى
والذين يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة والرهبة خوف مع تحرز واضطراب
قال الله تعالى اوفوا بعهدي اوف بعهدكم واياي فارهبون والهيبة رهبة جالبة للخضوع
عن استشعار تعظيم ولذلك في كل محتشم قال الشاعر اهابك اجلالا وما بك قدرة
علي ولكن ملء عين حبيبها وهذه الاشياء قد تذم باعتبار الامور الدنيوية وتحمد
باعتبار الامور الاخروية قال الله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم
وقال واياي فارهبون وقال انما يخشى الله من عباده العلماء والخوف من الله
ليس يشار به الى ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الانسان الرعب من الاسد
وانما يشار به الى ما يقتضيه الخوف وهو الكف عن المعاصي ولذلك قيل لا تعدن خائفا
من لا يترك الذنوب وقال تعالى انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه الآية اي لا تفعلوا ما
يقتضيه الخوف منه وافعلوا ما يقتضيه خوفي فان قيل كيف مدح المؤمن بالحزن
والخوف مع قوله تعالى الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قيل انما المدح
به فمقتضاهما وذلك اقامة العبادات واما المنفيان عنهم فهما اللذان يكونان
من الاسرار **مداواة الغم وازالة الخوف** حق الانسان ان يعلم ان الدنيا جمة المصائب
رنقة المشارب تثمر للبرية كل بلية فيها مع كل لقمة غصة ومع كل جرعة شرقة
وهي عدوة محبوبة كما قال ابو نواس اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب
صديق وكما روي الحسن رضي انه قال ما مثلنا مع الدنيا الا كما قال كثير اسيئي بنا
او احسني لا ملومة لدينا ولا مقلية ان تقلت فما احد فيها الا وهو في كل حال غرض

لا سهم ثلثة سهم بلية وسهم رزية وسهم منية   تناضله الآفات من كل جانب
فتخطئه يوما ويوما تصيبه وقد قال بعض الحكماء اسباب الحزن فقد محبوب او فوت
مطلوب ولا يسلم منهما انسان لان الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد
فمن احب ان يعيش هو واهله واحبابه فهو غير عاقل لانه يريد ان يملك ما لا يملك و
يوجد له ما لا يوجد وحق المرء ان لا يخلي قلبه من اعتبار فيما يرى من ارتجاع ودائعها
من اربابها وحلول قوارعها باصحابها وما احسن ما قال ابن الرومي   الم تر ان الدهر
من قبل كونه كفى حاذا فكرت في الخلوات   فما لك كالمرمي من حامل له بنبل انتهد
غير مرتقبات وان قلت مكروه اتانا فجاءة   فما فوجئت نفس مع الخطرات
ولا غوفصت نفس ببلوى وقد رأت   عظات من الآيات بعد عظات   اذا بغتت
اشياء قد كان مثلها   قديما فلا يعتدها بغتات   ومن حقه ان يتسلى من اقتناء
ما يورثه الحزن قيل لحكيم تراك لا تغتم فقال لاني لا اقتني ما يغمني فقده فاخذ ذلك
الشاعر فقال   ومن سره ان لا يرى ما يسوءه   فلا يتخذ شيئا يبالي له فقدا وقيل
لحكيم هل يمكن للانسان ان يعيش آمنا فقال نعم اذا احترس من الخطيئة وقنع
بحاله ولم يحزن بما هو واقع به لا محالة واعلم ان الجزع على ما فات لا يلم ما تشعث
ولا يبرم ما انتكث كما قيل   وهل جزع مجد على فاجعة   فاما غمه على المستقبل
فلا يخلو من ثلثة اوجه اما في شيء ممتنع كونه او واجب كونه او ممكن كونه فان كان على ما هو ممتنع
كونه فليس ذلك من شان العاقل وكذلك ان كان من قبيل الواجب كونه كالموت الذي
هو حتم في رقاب العباد وان كان ممكنا كونه فانه ان كان من الممكن الذي لا سبيل الى دفعه
كامكان الموت قبل الهرم فالحزن له جهل واجتلاب غم الى غم وان كان من الممكن الذي
يصح دفاعه فالوجه ان يحتال لدفاعه بعقل غير مشوب فان دفعه والا تلقاه
بصبر جميل وليتحقق معنى قوله تعالى ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب

من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير ثم قال لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما
آتيكم فمن علم ان ما جرى من حكمه وسبق في علمه لا سبيل الى ان لا يكون هانت عليه النوائب
ولم يجزع لحلول المصائب واعلم ان الذي يغر الناس حسن ظنهم بانحسار الآفات
واغترارهم حالا بعد حالة بصفاء الاوقات ولو تاملوه بالبصيرة لتحققوا انها
كما قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ما قال الناس لقوم طوبى لكم الا
وقد خبأ لهم الدهر يوم سوء كما قيل ان الليالي لم تحسن الى احد الا اساءت اليه بعد احسان
واما سبب الاغتمام للموت فلا ينفك من اربعة اوجه اما لفوت شهوات بطنه وفرجه واما
على ما يخلفه من ماله واما على جهله بحاله واما خوفا لما قدمه من عصيانه فان كان
ذلك لشهوة بطنه وفرجه فليعلم ان ذلك يشتهي داء ليقابله بدواء مثله فان الانسان
لا يستلذ الطعام حتى يجوع والجوع داء فهو وجب منه تحتمل من تعب الجوع ليستطيب
بعده الاكل لكن يستطيب القعود في الشمس لينال له الحر ثم يستطيب القعود في الظل
ومحبة ذلك رقاعة لا تجدي ولا تعدو وان كان غمه على ما يخلفه من ماله فذلك لجهله
لخساسة الاعراض الدنيوية وكونها معرض كل بلية وقلة معرفته بنفاسة الاملاك
الحقيقية التي وعد المتقون بها وان كان غمه لجهله بحاله ومآله عند ربه فمداواته بالعلم
والمعرفة الحقيقية التي تريه حال مآل الانسان بعد الموت كما قال حارثة للنبي عليه السلام
كاني انظر الى عرش ربي بارزا وكاني انظر الى اهل الجنة يتزاورون فيها والى اهل
النار يتعاورون فيها وان كان غمه خوفا لما قدم من عصيانه فدواؤه المبادرة بالتوبة عمه ص
ويكفيه ان كان ذا بصيرة من جعل الله له اليه سبيلا من تلافي ما فرط منه ووعد به
التائبين **احوال الناس في محبة الموت** والاحتيال لقلة المبالاة به الناس في ذلك
ثلثة اضرب فالاول حكيم يعلم ان الحيوة سيتركه والموت يعتقه وان الانسان في
هذا العالم وان طال فيه لبثه فهو كخطفة برق لمعت في اكناف السماء ثم خفيت

وانه في دنيا كمبعوث الى ثغر يحرسه وبلد يسوسه فيرعى من ذلك ما استرعى ويفرح
ويسر اذا استدعى ولا يتكاد خروجه منها الا بقدر ما يفوته من خدمة ربه والازدياد
من التقرب اليه والاشفاق مما يقول ويقال له كما قال بعض الصالحين وقد رائى
منه جزع عند الموت فقيل له في ذلك فقال انما جزعي لاني سالك طريقا لم اعهده واقدم
على رب لم اره ولا ادري ما اقول ولا ما يقال لي والثاني رجل انس بهذا العالم فالفه وان
كرهه فسبيله سبيل من الف بيتا مظلما قذرا ولم ير غيره فهو يكره الخروج منه وان
كان يكره الكون فيه كما قال الشاعر دخلنا كارهين لها فلما الفنا خرجنا مكرهينا
وحاجبة البلاد ولكن امر العيش فوقه من هوينا ونحو ما قيل لو رضى الناس بارزاقهم
رضاهم باوطانهم لما شكى احد فقرا فهذا متى خرج عن دنيا واطلع على ما اعد الله
للصالحين مما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر سر بخلاصه كما حكى
الله سبحانه وتعالى عن اسعدهم القرار في جنات النعيم حيث قالوا الحمد لله الذي اذهب
عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور الآية الثالث رجل اعمى عين البصيرة متلطخ البرية
بما ارتكب من انواع الجرائم رضي بالحيوة الدنيا واطمان بها ويئس من الاخرة كما
يئس الكفار من اصحاب القبور فاذا خرج منها الى دار الخلود وافضى ذلك به كما تفضي مصاحبة
رياح الورد بالجعل واذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه العالم العلوي و
الملاء الاعلى ومنادمته اولى العلى فيعمى كما قال تعالى ومن كان في هذه اعمى فهو في الاخرة
اعمى واضل سبيلا ولذا قال عليه السلام الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر واجدا ان من
يرتقي في هذا العالم بغذائه من العلم والعمل الصالح ان لا يشتاق اليه بعد خروجه منه
كما لا يشتاق الى الرجوع الى بطن امه بعد الخروج منه ويدلك على انه خرج من بطن
امه كارها بكاؤه فقد قال بعض القدماء اول ما ينال الصبي غمه عند سقوطه من بطن
امه لما يضغطه من مضيق خروجه ويصيبه من الم الهواء فيتوجع والوجع يورثه

الغم والغم يحمله على البكاء وذلك ان للصبي كل ما يكون للحيوان غير الناطق من اللذة والالم
والجوع والعطش ومن هذا المعنى اخذ ابن الرومي فقال لما تؤذن الدنيا به من صروفها
يكون بكاء الطفل ساعة يولد والا فما يبكيه منها وانها لافسح مما كان فيه وارغد
وقال ابن عباس ما احد الا والموت خير له من الحيوة لان الله تعالى قال في الاخيار وما
عند الله خير للابرار وقال في الاشرار انما نملي لهم ليزدادوا اثما وقد قيل الصالح
اذا مات استراح من الدنيا والطالح اذا مات استراحت منه الدنيا وقال بعض
الحكماء من قال للخير صانك الله من نوب الايام وحروف الزمان فانه يدعو له
بالموت فالانسان لا ينفك من ذلك الا بخروجه من دار الكون والفساد وقال بعض
الصوفية هو ملك الموت ان محبة المسلم من بين الملائكة فضل محبة من حيث انه
احد اسباب تعويضه الحيوة السنية الابدية من حيوته الدنية الدنيوية ولهذا
امرنا ان نقول في دعائنا اللهم صل على جبرائيل وميكائيل وملك الموت فان جبرائيل
وميكائيل هما سببان لاتياننا من ذلك العالم بما فيه خلاصنا من دار الكون والفساد
وملك الموت سبب اخراجنا من دار الكون والفساد فاذا حقه عظيم وشكره لازم
وقد حكى ان قوما من الاوائل كانوا يعظمون زحل بالتقديس والتسبيح له وقالوا انه لا يعتز
على الحيوة الارضية بل هو سبب انقاذنا من الدنيا الدنية وقال بعض الاولياء في
مناجاته الهي ان سالتك الحيوة في دار الممات فقد رغبت في البعد عنك وزهدت
في القرب منك فقد قال نبيك وصفيك من احب لقاء الله احب الله لقاءه ومن
كره لقاء الله كره الله لقاءه وقال بعضهم ان كان في قلة الحاجة الدنيوية غنى ففي
انقطاع الحاجة كلها عنها الغنى الاكبر ولا انقطاع لها الا بمفارقة الدنيا فالدنيا
سبب فاقتنا والعبودية لغير الله تعالى وقبيح بالعاقل صحبة الفاقة والتخصص
بعبودية غير رب العزة والموت سبب كمال الانسان ومن رغب عن كماله فهو

من الذين خسروا انفسهم ومن كره الموت اخرج عن الدنيا كارها كعبد ابق الى مولاه
ماسورا وقيد الى حضرته مقهورا وشتان بين عبد دعاه مولاه فاتاه طوعا وبين
عبد ابق اسر فاتى مولاه قسرا وحق العاقل ان يكثر ذكر الموت فان ذكره لا يقرب
اجله ويفيده ثلثة امور القناعة بما رزق والمبادرة بالتوبة والنشاط في العبادة
ولذلك قال عم اكثروا ذكر هادم اللذات فانه ما ذكره احد في ضيق الا وسعه عليه
ولا في سعة الا ضيقها عليه وقيل ذكر الموت يطرد فضل الامل ويكف من غرب
المنى ويهون المصائب ويحول بين الانسان والطغيان **السرور والفرح** السرور
انشراح الصدر بلذة فيها طمانينة النفس عاجلا واجلا وذلك في الحقيقة انما يكون
اذا لم يخف زواله ولا يكون ذلك الا في القنيات الاخروية ولذلك قيل لا سرور في
الدنيا على الحقيقة والفرح هو انشراح الصدر بلذة عاجلة غير آجلة وذلك
يكون في اللذات البدنية الدنيوية ولهذا قال تعالى لكيلا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا
بما اتيكم وقال تعالى وفرحوا بالحيوة الدنيا فالفرح يدعو الى النشاط والنشاط يدعو
الى المرح والمرح داعية الى الاشر والاشر مقدمة البطر واكثر ما يظهر ذلك
في الاحداث والصبيان بقدر ما يغلب عليهم من الغفلة وقد ذمه الله تعالى بقوله
وفرحوا بالحيوة الدنيا وقال تعالى ان الله لا يحب الفرحين وقال ذلكم بما كنتم تفرحون
في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون وقال كل حزب بما لديهم فرحون وقد
يسمى الفرح سرورا والسرور فرحا لكن على نظر من لا يعتبر الحقائق فيتصور
احدهما بصورة الآخر ولذلك قيل من طلب الخارجات عنه لم ينله **العذر والتوبة**
المذنب اذا عوتب او خاف العتاب لا ينفك من وجهين اما ان يكون مصرا او
معتذرا فاما المصر فقد يستحسن في بعض الاحوال التجافي عنه وقد سمع رجل
حكيما وهو يقول ذنب الاصرار اولى بالاعتذار فقال صدق ليس فضل من

عفا عن السهو القليل كفضل من عفى عن العمد الجليل واما المعتذر فهو المظهر لما يمحو
الذنب ثم وضع المعاذير لا ينفك من ثلثة اوجه اما ان يقول لم افعل او يقول فعلت
لاجل كذا فيبين ما يخرجه عن كونه ذنبا او يقول فعلت ولا اعود فمن انكر ذنبا عن
كذب ما ينسب اليه فقد برئت ساحته وان فعل وجحد فقد يعد التغابي عنه
كرما واياه قصد الشاعر بقوله وما بك من غفلة لفرط الحياء وفضل الكرم
ومن اقر فقد استوجب العفو لحسن ظنه بك وقال بعض الحكماء تجاوز عن مذنب
لم يسلك بالاقرار طريقا حتى اتخذ من رجائك رفيقا وان قال فعلت ولا اعود فهذا
هو التوبة وحق الانسان ان يعتقد بالله تعالى في قبولها وللتوبة شرايط فرضا ونفلا
ففرضها ترك الذنب مع ترك العود اليه ونفلها التاسف لما سلف من الذنب والاستغفار
له وترك بعض المباحات مقابلة لما كان من العصيان واعلم ان للمذنب التايب
اذا تاب توبة نصوحا فضيلة على من لم يذنب من ثلثة اوجه الاول انه قد جرب العيوب
وعرف مداخل الشيطان على الانسان فيكون اهدى الى الاحتراز من الشر وقد
قيل لحكيم فلان لا يعرف الشر فقال ذاك اجدر ان يقع فيه والثاني ان المذنب التايب
محتشم قد غلب الخوف على قلبه فياتي باب مولاه وهو خزيان منكسر ومن لم يذنب
ربما يعجب بنفسه ويدل بعفته وليس حرمة عبد قد عصى ملكا وخرج عليه خارجيا
ثم عاد اليه وجلا خايفا فعفا عنه كحرمة من ادل بطاعته وعدم مخالفته والثالث
ان التايب قد حلب شطريه خيره وشره حلوه ومره فهو ارفق بالمذنبين واوفق
واصلح للرياسة ممن يظن ان الذنب شيء خارج عن طبيعة الانسانية فيعجب بنفسه
ويزري على غيره **الحلم والعفو** الحلم امساك النفس عن هيجان الغضب والتحلم
امساكها عن قضاء الوطر منه اذا هاج ولما كان الحلم من نتايج العقل وغير منفك
عنه صار يعبر عنه وعن كل عقل ظهر فعله كقوله عز وجل في ذم الكفار على سبيل

التجاوز تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون وقد أطلق الحلم في حق الباري تعالى
فإنه يزول منه الفعل بمقتضاه، وهو العفو دون الانفعال العارض له وإن يتم حلم الإنسان
إلا بإمساك الجوارح كلها اليد عن البطش واللسان عن الفحش والسمع عن الاستماع والبصر
عن فضول النظر وأقرب لفظ يستعمل في ضد الحلم التذمر وأما العفو والصفح
فهما صورة الحلم ومخرجاه إلى الوجود والعفو هو ترك المؤاخذة بالذنب والصفح
ترك التثريب فيهما واشتقاقه من تجاوز الصفح التي أثبت فيها ذنوبه والإعراض
بصفح الوجه عن التلفت إلى ما كان منه وهو محمود إذا كان على الوجه الذي
يجب ولذا قال تعالى فاصفح الصفح الجميل فخص تنبيها على ما يجمل منه وقد حث الله تعالى
إلى ذلك بقوله والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس فأمر بالحلم والعفو وقال تعالى و
ليعفوا وليصفحوا وقال فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين وقال فمن عفا
وأصلح فأجره على الله والعفو إنما يستحب فيما إذا كانت الإساءة مخصوصة
بالعافي كمن أضر ماله أو شتم عرضه فأما إذا كانت الإساءة عائدة بالضرر
على الشرع أو على جماعة الناس فإنه إن كان فيه أدنى شبهة فللسلطان العفو
لقوله عم ادرؤوا الحدود بالشبهات وإن لم يكن ذات شبهة فليس له العفو ولذا
قال تعالى في الزنا ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر
وحق المعاقب أن لا يكون متسرعا في انتقامه بل يعاقب حتى يزول سلطان غضبه
لئلا يقدم على ما ليس بواجب ولذلك جرت سنة السلطان بحبس المجرم حتى ينظر
في جرمه ويعيد النظر فيه وقد قال بعضهم ينبغي للسلطان أن يؤخر العقوبة
حتى ينقضي سلطان غضبه ويعجل مكافأة المحسن ويستعمل الأناة فيما يحدثه
ففي تأخير العقوبة إمكان العفو إن أحب ذلك وفي تعجيل المكافأة بالإحسان
مسارعة الأولياء إلى الطاعة وقد أتى إسكندر بمذنب فصفح عنه فقال بعض

جلسائه لو كنت إياك لقتلته فقال وإذا لم يكن أنا إياك ولا أنت إياي فلست بقاتله انتهى
إلى بعض أصحابه وهو يخاطبه فقيل له لو نهكته عقوبة فقال لأن يكون أبسط لسانا
وعذرا في اعتابي واعلم أن لذة العفو أطيب من لذة التشفي لأن لذة العفو يلحقها
حمد العاقبة ولذة العقوبة يلحقها ذم الندم فالعقوبة ألأم حالات ذوي القدرة
وهي طرف من الجزع ومن رضي أن لا يكون بينه وبين الظالم إلا ستر رقيق فلينتقم
وقد نبه الله تعالى على ذلك بلطيف المقال بقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فسمى المجازى
المسمى بإساءة إساءة وقال فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
اياه عليكم فسمى المجازي على الاعتداء معتديا تنبيها على أنه قد كان يكون العقوبات
فيما بين الناس قبيحا ما كان فيما لم يظهر بالفعل فقد قال بعض الملوك إنما نملك
الأجساد دون الضمائر ونفحص عن الظواهر لا عن السرائر فمن سلم ظاهره احتمل
جرائره فقد يعفو المرء ويبيت سليمه وتزول وطريقة حقيقته ثوران الغضب وفضله
لظى الغضب في الإنسان نار تشتعل والناس مختلفون فيه فبعضهم كالحلفاء سريع
الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود وبعضهم سريع الوقود
بطيء الخمود وبعضهم على عكس ذلك وهو أحمدهم ما لم يكن مفضيا به إلى زوال حميته و
فقدان غيرته واختلافهم تارة يكون بحسب الأمزجة فمن كان طبعه حارا يابسا
يكثر غضبه ومن كان بخلافه يقل وتارة يكون بحسب اختلاف العادة فمن الناس
من تعود السكون والهدو وهو المعبر عنه بالذلول والهين واللين ومنهم من تعود
الطيش والانزعاج فيجتهد بأدنى ما يطرقه كالكلب يسمع حسا فينبح قبل أن يعرف
ما هو فأكثر الناس غضبا الصبيان والنساء وأكثرهم ضجرا الشيوخ وأجل
الناس شجاعة فأفضلهم مجاهدة وأعظمهم قوة من يكظم الغيظ وعلى
ذلك دل قوله تعالى والكاظمين الغيظ الآية فجعلهم من المحسنين وقال النبي صلعم وقد

نار الغضب

بقوم يرفعون حجرا فقال الا اخبركم باشدكم من ملك نفسه عند الغضب واعلم ان
متى كانت عتيقة تاججت واضطرمت واحتد منه غليان دم القلب وملات الشرائن
والدماغ دخانا مظلما مضطربا يسود منه مجال العقل ويضعف به فعله فكما ان
الكهف الضيق اذا ملى حريقا اختنق فيه الدخان واللهب وعلا منه الاجيج
فيصعب علاجه واطفاؤه ويصير كل ما يدنى مادة لقوته كذلك النفس اذا اشتعلت
غضبا عميت عن الرشد وصمت عن الموعظة فيصير مواعظه مادة لغضبه ولهذا
حكى عن ابليس لعنه الله انه قال متى اعجزنى ابن آدم فلن يعجزنى اذا غضب لانه
ينقاد لى فيما ابتغيه منه ويعمل بما اريده وارتضيه وقد قيل ان الغضب جنون
ساعة وربما افضى الى التلف باختناق حرارة القلب وربما كان سببا لامراض صعبة
مودية الى التلف واسباب الغضب العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح
والتيه والاستهزاء والضيم وكل ما فيه التنافس والتحاسد وشهوة الانتقام
وحق من اعترى غضبه ان يتفكر وان كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطه
اذ هو ممكن من الانتقام منه على سكون الجاش وان كان غضبه على من لا سبيل له
عليه فلا معنى لتعذيبه نفسه فى الحال بل حقه ان يصبر حتى يمكن منه ثم يفعل
بالواجب وقد قال حكيم سد طريق الغضب قبل تلهب ناره فى جسمك ومكانها
يمكن اطفاؤه قبل انتشاره فاما اذا اشتعلت فلا سبيل الى اطفائها وقال سلطان
لحكيم كيف لى ان لا اغضب فقال بان يكون فى كل وقت ذاكرا انه يجب ان تطيع لا ان يطاع
فقط وان تخدم لا ان يخدم فقط وان تحمل لا ان يحمل فقط وان تحقق ان الله يراك
دايما فاذا فعلت ذلك لم تغضب وان غضبت غضبت قليلا الغيرة والجوار الغيرة
ثوران الغضب حماية على الحرم واكثر ما يراعى فى النساء وجعل الله هذه القوة فى الانسان
سببا لصيانة الماء وحفظا للانساب ولذلك قيل كل امة وضعت الغيرة فى

فى رجالها وضعت العفة فى نسائها وقد يستعمل ذلك فى صيانة كل ما يلزم الانسان صيانته
فى السياسات الثلث التى هى سياسة الرجل نفسه وسياسة منزله واهله وسياسة مدينته
وصقعه ولذلك قيل ليست الغيرة ذب الرجل عن امراته ولكن ذبه عن كل مختص به وقيل
الغيرة ذب عن كل ضعيف وسمى كراهية الشىء عند من لا يستحقها غيرة والغيرة وان
كانت من قوة الانسانية فواجب كونها فى كل جيل فقد كثرت فى العرب خاصة كثرة
متناهية حتى ان من دخل دار احدهم والتجا الى فنائه عدوا فعله حرمة وجوارا
ذماما بل ان تعلق الدلو بالدلو الغريبة او تلابس الطنب بالطنب يوجب حرمة
وجوارا بل كانوا يراعون ذلك فى الوحشيات والهوام حتى سمى بعضهم مجير الجراد
ومجير الغزال ومجير الذيب وسمى الغضب المقتضى للغيرة الحفيظة يقال احفظنى
فلان اى اغضبنى الغضب الذى اثار منى قوة الحفظ الغبطة والمنافسة والحسد الذى
ينال الانسان بسبب خير يصل الله الى غيره على سبيل التمنى ان يكون له مثله فهو
غبطة واذا كان مع ذلك سعى منه فى ان يبلغ هو مثل ذلك من الخير او ما هو فوقه فمنافسة
وكلاهما محمودان وان كان مع ذلك تمنى زوال ما بصاحبه من غير استحقاق لزواله فحسد
والحسد هو تمنى زوال نعمة عمن يستحقها وربما كان مع ذلك سعى فى ازالتها والحاسد التام
هو الخبيث الساعى فى ازالة نعمة مستحقة من غير ان يكون ذلك طالبا لنفسه ولذلك
قيل الحاسد قد يرى زوال نعمتك نعمة عليه وقد قال عم المومن يغبط والمنافق
يحسد محمد الغبطة وقال تعالى وفى ذلك فليتنافس المتنافسون فحثنا على التنافس اذا كان
باعثا لنا على طلب المحاسن وذلك كقوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وقول النبى عم
لا ينجو منها احد الظن والطيرة والحسد وساخبركم بالمخرج من ذلك فاذا ظننت
فلا تحقق واذا تطيرت فامض ولا تتشاءم واذا حسدت فلا تبغ اى اذا اصابك غم
بخير يناله غيرك فلا تبغ ازالته عنه واعلم ان الحسد من وجه غاية البخل لان

البخيل يبخل بمال نفسه والحاسد يبخل بمال الله تعالى ولذلك قيل الحاسد بخيل بما لا يملكه
ومن وجه هو اظلم ظالم لانه يظلم غيره في ازالة حاله ويظلم ربه فيما قدره وقد قيل الحسد
والحرص ركنا الذنوب ومنهما انتج ذنب ابليس وآدم فابليس حسد آدم فصار لعينا
وآدم حرص على ما نهي عنه فاخرج من الجنة فهما شجرتان يجتني منهما ساير الرذايل
ومن قطع اسبابهما نجا ان قيل فاوجه قول النبي عم لا حسد الا في اثنين رجل
آتاه الله مالا فجعله في حق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس قيل انما
عني بالحسد ههنا الغبطة وقد سمي ذلك حسدا من حيث انه عبارة عن الغم الذي
ينال الانسان من خير يناله غيره ولا يناله هو وعلى ذلك يقول القائل لولا
التحاسد فلانا فيما يفعله اي لا يسيء حاله واعلم ان الحسد ضرب من الحماقة لان
اغتمامه بما يناله ذووه واهل بلده يقتضي ان يغتم ايضا بما يناله اهل الصين
والهند على ان الخير الذي ذويه اذا تفكر فيه هو انفع له مما يناله الا ما عدا والله اعلم

الفصل الخامس في العدل والظلم والمحبة والبغض

العدل لفظ يقتضي
معنى المساواة ولا يستعمل الا باعتبار الاضافة وهي في التعارف اذا اعتبرت بالقوة
فهيئة في الانسان يطلب بها المساواة فاذا اعتبرت بالفعل فهو التقسيط القائم
على الاستواء واذا وصف الله تعالى بالعدل فليس يراد به الهيئة وانما يراد به ان افعاله
واقعة على نهاية الانتظام فان الانسان في تحري فعل العدالة يكون تام الفضيلة
اذا حصل مع فعله هيئة ممتزجة لتعاطيه فقد يقع فعل الانسان موصوفا
بالعدل ولا يكون ممدوحا به نحو ان يقسط مراءاة او توصلا الى نفع دنيوي او خوف
عقوبة السلطان والعدل تارة يقال هو الفضايل كلها من حيث انه لا يخرج
شيء من الفضايل عنها وتارة يقال هو اكمل الفضايل من حيث ان صاحبه يقدر
ان يستعمله في نفسه وفي غيره وهو ميزان الله المبرأ من كل زلة وبها يستتب

امر العالم ولذلك قال الله تعالى انزل الكتاب بالحق والميزان وقال والسماء رفعها ووضع الميزان
الا تطغوا في الميزان وعبر عن العدل بالميزان اذ كان من اثره ومن اظهر افعاله
الحسنة وقال عم بالعدل قامت السموات والارض اي لو كان شيء من موجودات
العالم واصولها زايدا على الآخر او ناقصا عنه لم يكن منتظما هذا النظام ومن
فضيلتها ان الجور الذي هو ضده لا يستتب الا به فلولا ان اللصوص يتشارطوا فيما
بينهم شرطا فلم يراعوا العدالة فيه لم ينتظم امرهم ومن فضيلتها ان كل نفس سليمة
تتلذذ وترتاح بسماعه وتتألم من ضده ولذلك يستحسن الجاير عدل غيره اذا راه
او سمع به وفعل العدل لا يخاف الله اي من حيث العدل لا خوف عليه ولحسن العدل
والمساواة سالم النفس من كل ما كان مركبا في العالم ليس له نظام مستقيم فكره
العرج والعور فيتشام به ولتحري المساواة جعل الله اعضاء الانسان الواقعة
في الاطراف زوجين اثنين وفي الاوساط واحدا واحدا والاقتداء بذلك تحرى
النقاشون بازاء كل منقوش في جانب منقوشا مثله في الجانب الآخر لئلا
يكون الصور معوجة والعدل هو وسط واطرافها كلها جور فالجور هو الخروج عن
الوسط بزيادة او نقصان ولذلك صار الجور والخطايا بالاضافة الى العدل والصواب
من حيز ما لا نهاية له والعدل والصواب من حيز المتناهي وادراكهما صعب ولصعوبة
ذلك قال عم استقيموا ولن تحصوا وتمدح تعالى بقوله واحصى كل شيء عددا تنبيها انه
هو المتحقق بوصف العدل والصواب من كل شيء وقال بعض الصوفية رايت النبي صم
في المنام فقلت بلغني يا رسول الله انك قلت شيبتني سورة هود فما الذي شيبك
منها فقال قوله تعالى فاستقم كما امرت ولما كان الوصول الى ذلك عسيرا صار ضابطه
اذا تحرى فيه بجهده وان اخطا فيه معذورا بل ماجورا ولذلك قال عم من اجتهد فاخطا
فله اجر ومن اجتهد فاصاب فله اجران

انواع العدل

وما يستعمل ذلك فيه العدل

ضربان عدل مطلق يقتضي العقل حسنه ولا يكون منسوخا في شيء من الازمنة ولا يوصف
بالجور في حال وذلك هو جذب الاحسان الى من احسن اليك وكف الاذية عمن كف اذاه
عنك وعدل مقيد يعرف كونه عدلا بالشرع ويمكن ان يكون منسوخا في بعض الاحوال
والازمنة وذلك مقابلة السوء بمثله كاحوال القصاص واروش الجنايات وكاخذ مال
المرتد وهذا النحو يصح ان يوصف على المجاز في بعض الاحوال بالجور ولذلك قال تعالى
وجزاء سيئة سيئة مثلها فسمي جزاء السيئة سيئة من حيث لو لم يكن معتبرا بالسيئة
المتقدمة لكانت هي سيئة وعلى ذلك ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون و
بالنظر الى النوع الاول والاعتبار به قال بعض المتكلمين يعرف العدل والجور بالعقل
قبل الشرع وبالنظر الى النوع الثاني قال بعضهم لا يعرفان الا بالشرع وعلى الجملة فالشرع
مجمع العدالة وبه يعرف حقائقها ولو توهمناه مرتفعا لكان يؤدي الى ان لا يكون
عدل على الحقيقة في شيء من جزئيات الافعال ولا في كثير من كلياتها فالعدل المحمود
هو الذي يتحرى فعله لا رياء ولا سمعة ولا رهبة ولا رغبة وانما يكون تحريا للحق
عن يجبه والذي يجب ان يستعمل الانسان معه العدل خمسة الاول بينه وبين رب
الخلق تعالى بمعرفة توحيده واحكامه والثاني بين قوى نفسه وذلك بان يجعل هواه
مستسلما لعقله فقد قيل اعدل الناس من انصف عقله من هواه والثالث بينه وبين
اسلافه الماضين في انفاذ وصاياهم والدعاء لهم والرابع بينه وبين معامليه
في اداء الحقوق والانصاف في المعاملات من البيع والشراء وجميع المعاوضات
والاجارات والخامس بث النصفة بين الناس على سبيل الحكم وذلك الى الولاة
وخلفائهم واما الحكام العدول في الارض فثلثة حاكم من الله وهو الكتاب الذي
لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والامر والعامل به وهو كل وال عدل والناض
المعتبر به واعلاه الدينار ويعنى بالفارسية دين آورند والناض من وجه حاكم

ومن وجه كالآلة للحاكم يعتبر به اذا قيس عمل بعمل ولما كانت الشريعة مجمع العدالة ومنبعها
صار من امتنع من التزام احكامها اظلم ظالم ولذا قال تعالى ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا
او كذب بالحق وقال فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم الآية ولكون
الكفر ظلما قال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين
الا خسارا فقابل المؤمن بالظالم **ما يحسن ترك العدالة فيه** ترك العدالة الى الظلم عمدا
في جميع الاحوال مذموم والخارج عنه الى الظلم مستوجب بقدر خروجه عنه سخطا
من الله الا ان يتغمده الله تعالى بعفوه واما الخارج عنه الى الانظلام اي التزام الظلم
فقد يحمد والانظلام من حيث الكمية ثلثة اضرب الانظلام في المال وهو الانخداع
للظالم في اخذ ماله والانظلام في الكرامة وهو الاستخذاء في بخس منزلته من التعظيم والانظلام
في النفس وهو الاستخذاء لمن يوليه وكل واحد يكون محمودا ومذموما ومن حيث الكيفية
ضربان محمود ومذموم فالمحمود التغابن عن حقوله في المال او في الكرامة او في النفس بقدر
ما يحسن وفي وقت ما يحسن وهو المعبر عنه بالانخداع والتغافل الذي قيل فيه العقل
مكيال ثلثه فطنة وثلثاه تغافل واياه قصد معوية رض بقوله من خدعك فانخدعت له
فقد خدعته وقال الشاعر ممن يعز على الثناء فينخدع وذلك اذا كان في المال
فمسامحة واذا كان في النفس فعفو واذا كان في الكرامة فتواضع واما على الوجه المذموم
ففي المال غبن وفي الراي غبن وفي النفس والكرامة هوان ومذلة وقد تقدم ان الافضال
والاحسان اشرف من العدل اذا كان الحكم بينك وبين غيرك فاما اذا حكمت بين اثنين
فليس الا العدل وانما الاحسان الى المتحاكمين ولذا قال تعالى وان حكمت فاحكم بينهم
بالقسط الآية وقال تعالى ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم
بين الناس ان تحكموا بالعدل وقال لمن له الحق وان تعفوا هو اقرب للتقوى ولا تنسوا
الفضل بينكم وقال يحيى بن معاذ اصحبوا الناس بالفضل لا بالعدل وقد امرهم ان

فى العدل الاستقصاء وفى التفضل الاستبقاء وانى لارجو ان يحاسب الله عباده
بالفضل لا بالعدل وقد امرهم ان يصاحب بعضهم بعضا بالفضل وقد عظم الله تعالى
امر الاحسان والافضال فقال للذين احسنوا الحسنى وزيادة وقال وهل يامر الحكيم بما
لا يفعله وكيف يترك الحكيم التفضل ويقتصر على العدل وقد بين ان التفضل اكرم و
افضل تعالى الله عز ذى المنزلتين وكيف لا يرجى تفضله وافعاله كلها عدل و
عدله كله تفضل لانه مبتدئ بما لا يلزمه والابتداء بما لا يلزم تفضل وهل يجوز ان
يترك التفضل انتهاء وقد تحراه ابتداء

الظلم

الظلم هو الانحراف عن العدل ولذلك
حد بانه وضع الشئ فى غير موضعه المخصوص به وقد تقدم ان العدل يجرى مجرى
النقطة من الدائرة فتجاوزها من جهة الافراط عدوان وطغيان واليه الاشارة بقوله تعالى
قد ضلوا ضلالا بعيدا والانحراف عنها فى بعض جوانبها جور والظلم اعم الاسماء و
لما كان الظلم ترك الحق الجارى مجرى النقطة من الدائرة صار العدول عنها اما قريبا
واما بعيدا ومن كان عنه ابعد كان رجوعه اليه اصعب ولذلك قال تعالى ويريد الشيطان
ان يضلهم ضلالا بعيدا تنبيها ان الشيطان متى اغراهم فى البعد من الحق صعب عليهم
الاهتداء ولاجل من فعل بهم الشيطان ذلك قال تعالى اولئك ينادون من مكان بعيد
واما المستعمل معهم الظلم فستة هم الذين يجب استعمال العدل معهم وقد تقدم ذكرهم الاول
رب العزة الثانى قوى النفس الثالث اسلاف الرجل الرابع معاملوه مع الاحياء الخامس
عامة الناس اذا تولى الانسان الحكم بينهم وقد قال بعض العلماء شر الناس من جار
على نفسه ومن ثم من جار على ذويه ثم من جار على كافة الناس وافضلهم من عدل
مع كافة الناس ثم مع عشيرته ثم مع نفسه وهذا قول اوله بنظر عامى فان الظالم
لا يكون ظالما لغيره حتى يظلم اولا نفسه فانه فى اول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه فاذا
الظالم ابدا مبتدئ بظلم نفسه والعادل مع الناس اذا هم بالعدل وتحراه فقد عدل
مع نفسه قبل ان عدل مع غيره وقد قال بعضهم الظلمة ثلثة الظالم الاعظم وهو الذى
لا يدخل تحت شريعة الله تعالى واياه عنى بقوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم والاوسط هو الذى
لا يلزم حكم السلطان والاصغر هو الذى يتعطل عن المكاسب والاعمال فياخذ
منافع الناس ولا يعطيهم منفعة ومن خرج عن تعاطى العدل بالطبع وبالخلق والتخلق
والتصنع والرياء والرغبة والرهبة فقد انسلخ عن الانسانية ومتى صار اهل
كل صقع على ذلك فتهارشوا وتغالبوا واكل قويهم ضعيفهم ولم يبق فيهم اقويل
لم عنهم ويصدهم عن الفساد فقد تقدم ان عادة الله سبحانه وتعالى فى امثالهم
اهلاكهم وافناؤهم واستيصالهم عن آخرهم

الاسباب التى يحصل منها الاضرار

جميع ذلك اربعة اسباب الاول الشرارة كمن يضر بغيره مستلذا الفعله وذلك احسن
الوجوه والثانى الشهوة وهو ان يقصد ادراك شهوة ما فيأتى ما لا يمكنه الا بان يضر
غيره كعامة المتلصصة والعاثين فى الارض بالفساد الثالث الخطاء وهو ان
لا يقصد الاضرار بمن ضره بوجه بل قصد فعلا آخر فاتفق منه ذلك كمن رمى قرطاسا
فى هدف فاصاب رجلا فهذا معذور من وجه الرابع السهو كمن حمله ريح فاوقعه
على انسان فمات ذلك الانسان فهذا معذور ومرحوم

المكر والخديعة والكيد والحيلة

المكر والخديعة متقاربان وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله فى باطنه خلاف ما يقتضيه
ظاهره وذلك ضربان احدهما مذموم وهو الاشهر عند الناس والاكثر وذلك ان يقصد
فاعله انزال مكروه بالمخدوع وهو الذى قصده النبى عم بقوله المكر والخديعة فى النار
والمعنى انهما يؤديان بقاصدهما الى النار والثانى على عكس ذلك وهو ان يقصد فاعلهما
الى استجرار المخدوع والممكور به الى مصلحة لهما كما يفعل بالصبى اذا امتنع من فعل خير
وقال بعض الحكماء المكر والخديعة يحتاج اليهما فى هذا العالم وذلك ان السفيه
يميل الى الباطل ولا يميل الى الحق ولا يقبله لمنافاته لطبعه فيحتاج ان يخدع عنه

باطله بزخارف مموهة كما يخدع الطفل عن الثدي عند الفطام ولهذا قيل في مثل يحرق
فانما الدنيا مخاريق وسفسطة فان الدنيا سوفسطائية وليس هذا حثاً على تعاطي الخبث
بل هو حث على جذب الناس الى الخير بالاحتيال ولكون المكر والخديعة ضربين سيئاً
وحسناً قال الله تعالى والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر اولئك هو يبور وقال تعالى
فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفوراً استكباراً في الارض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ
الا باهله وقال تعالى افأمن الذين مكروا السيئات فخص في هذه الآيات السيئ من المكر تنبيهاً
على جواز المكر الحسن وقال ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين واما الكيد فافادة
متضمنة لاستتار ما يراد عمن يراد به واكثر ما يستعمل ذلك في الشر ومتى قصد به الشر
فمذموم ومتى قصد به الخير فمحمود وعلى الوجه المحمود قال سبحانه وتعالى كذلك كدنا ليوسف
ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك وعلى ذلك الاستدراج منه ايضاً سبحانه وتعالى نحو قوله
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون واملي لهم ان كيدي متين فاستدراجه سبحانه وتعالى
تغطيه للسبيل على الانسان وتمكينه مما يريد ليطلب بالآلات التي اعطاه وذلك كتكليفه له
لما تقدم عليه وان كان فيه مشقة ولتمكنه من ادراك ذلك قال تعالى الم نجعل له عينين ولساناً
وشفتين وهديناه النجدين فمن جاهد في سبيله واعمل فكرته حتى ظفر به فسلكه على
ما يجب وكما يجب سهل عليه الوصول وكان ذلك منه منة واحساناً ولطفاً ومن عطل معادنه
من الفكر والسمع والبصر حتى اضل طريقه كان ذلك منه خذلاناً دعا بالله وعلى نحو ما تقدم
وصونه بالحيلة والمماحلة في قوله تعالى وهو شديد المحال وهذه الالفاظ لولا ان البارئ
سبحانه وتعالى اطلقها في مواضع مخصوصة قاصداً المعاني صحيحة لما تجاسر بشر يعرف الله
ان يخطر ذلك بباله فضلاً ان يجريه في مقاله وان قصد بها المعنى الصحيح تنزيهاً له
وتعظيماً فيجب ان تتلى في القرآن حيث ما وردت ولا تتعدى بها ذلك وقد ذكر بعض
المحصلين ان كثيراً من الاوصاف الشريفة كالرحيم والغفور والودود مما كان احد

يتجاسر على اطلاق ذلك عليه لولا السمع الوارد به لما في هذه الاسماء من معنى الكيفية والكمية
والانفعال في وضع اللغة والله تعالى منزه عن ذلك وهذا فصل كبير يختص به غير هذا
الكتاب **ماهية المحبة وانواعها** المحبة ميل النفس الى ما تراه وتظنه خيراً وذلك ضربان
احدهما طبيعي وذلك في الانسان وفي الحيوان وقد يكون ذلك في الجمادات كالالف
بين الحديد وحجر المغناطيس والثاني اختياري وذلك يختص به الانسان واما ما يكون
بين الحوانيين فالفه وهذا الثاني اربعة اضرب الاول للشهوة واكثر ما يكون بين الاحداث
والثاني للمنفعة ومن جنسه ما يكون بين التجار واصحاب الصناعات المهنية واصحاب
المذاهب والثالث مركب من الضربين كمن يحب غيره لنفع وذلك الغير يحبه لشهوة
والرابع للفضيلة كمحبة المتعلم للعالم وهذه المحبة باقية على مرور الاوقات وهي
المستثناة بقوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين واما الضروب
الاخر فقد تطول مدتها وتقصر بحسب طول اسبابها وقصرها والصداقة اخص من المحبة
وقلما تقع بين جماعة ولا يستعمل الا في الحيوان واما العشق فمحبة بافراط وذلك اما بحسب
اللذة فيكون مذموماً واما بحسب الفضيلة فيكون محموداً ولا يكون للنفع فان النافع النفع
يراد لغيره واللذة والفضيلة يرادان لانفسهما **فضيلة المحبة** احد اسباب نظام امور
الناس المحبة ثم العدل فلو تحاب الناس وتعاملوا بالمحبة لاستغنوا بها عن العدل
وقد قيل العدل خليفة المحبة لا يستعمل حيث لا توجد المحبة ولذلك عظم الله تعالى
المنة بايقاع المحبة بين اهل الملة فقال تعالى والف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض
جميعاً ما الفت بين قلوبهم ولكن الله تعالى الف بينهم وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا
الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً اي محبة في القلوب تنبيهاً ان ذلك اجلب للعقائد
وهو افضل من المهابة فان المهابة تنفر والمحبة تؤلف وقد قيل طاعة المحبة افضل
من طاعة الرهبة فان طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج وهي تزول بزوال

واذا علوا
سببه وكل قوم اذا تحابوا تواصلوا واذا تواصلوا تعاونوا واذا تعاونوا عملوا
عمروا واذا عمروا عمروا ولفضل وقوع المحبة شرعا شرع الله تعالى اجتماع اهل المحلة الواحدة
كل يوم خمس مرات لاقامة صلوتهم واجتماع اهل البلد الواحد كل اسبوع مرة في
الجامع واجتماع اهل المدينة واهل السواد كل سنة مرتين في الجبانة واجتماع اهل
النائية في العمر مرة بمكة كل ذلك ليتأكد باجتماعهم الانس وليقع بسببه الود
فضيلة الصداقة الصديق يحتاج اليه في كل حال اما عند سوء الحال فليعاونه
واما عند حسن الحال فليوانسه وليضع معروفه عندهم ومن ظن انه يمكنه الاستغناء
عن صديق فمغرور ومن ظن ان وجوده سهل فمغبون ولكثرة نفعه سئل حكيم عن الصديق
فقال هو انت بالنفس الا انه غيرك بالشخص ولعزة وجوده سئل عنه آخر فقال هو
اسم واقع على غير معنى فانه حيوان غير موجود فمن وجد اخوانا ذوي ثقة وجدهم
آباء وعيونا وقلوبا كلها له فيرى الغايب بصورة الشاهد واختيار من يركن
اليه للتصادق امر صعب اذ قد يتشبع لك الناقص فتظنه فاضلا فيكون كمن يحسب
السحم فيمن شحمه ورم المحبة في الناس من حببه الله الى الناس فقد انعم عليه نعمة وسيعة
كما ان من بغضه اليهم قد جعل له نقمة قطيعة والسبب فمن يكون محببا ان من رعاه
الله تعالى فصفى جوهره وطاب روحه وحسن عمله حصل له نور يسري في مشاعر من
يراه فيحبه واياه قصد تعالى بقوله لموسى عم والقيت عليك محبة مني وقال النبي صلعم
اذا احب الله عبدا القى محبته في الماء فلا يشرب عبد الا احبه واذا ابغض عبدا
القى بغضه في الماء فلا يشرب عبد الا ابغضه ولما القى الله تعالى على نبينا عليه السلم
من المحبة قل ما يأتيه من يبغضه فيهم بقتله الا اذا رآه وقلب في آفاق وجهه طرفه
والقى الى كلامه سمعه احبه ففارقه على حبه الحث على مصاحبة الاخيار ومجانبة
الاشرار حق الانسان ان يتحرى بغاية جهده مصاحبة الاخيار فانها قد تجعل

الشرير خيرا كما ان مصاحبة الاشرار قد تجعل الخير شريرا قال بعض الحكماء من صحب
خيرا اصابته بركته فجليس اولياء الله لا يشقى ولو كان كلبا ككلب اصحاب الكهف قال الله تع
وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ولهذا اوصت الحكماء الاحداث بالبعد عن مجالسة
السفهاء قال امير المومنين علي بن ابي طالب رض لا تصحب الفاجر فتتزين بكل فعله ويود
لو انك مثله وقد قيل جالسوا من يذكركم الله رؤيته ويزيد في علمكم نطقه وقد قيل
اياك ومجالسة الاشرار فان الطبع يسرق من الطبع وانت لا تدري وقد قال النبي صلعم
مثل الجليس الصالح كمثل الداري ان لم يحذك من عطره يعلقك من طيب ريحه ومثل
الجليس السوء كمثل القين ان لم يحرقك بشرره علقك من نتن دخانه وقد قال عم
المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل اي انه يجذبه خليله الى دينه ومذهبه
ولقوة هذا المعنى وتاثيره في النفوس شاع على الالسنة قول الشاعر
عن المرء لا تسأل وابصر قرينه فان القرين بالمقارن مقتدي وروي عن رسول الله عم
قال كلمة نبي القاها الله على لسان طرفة فان القرين بالمقارن مقتدي وليس اعداء
الجليس جليسه في خلقه بمقاله وفعاله فقط بل بالنظر اليه فالنظر الى الصور يؤثر
في النفوس اخلاقا مناسبة لخلق المنظور اليه فان من دامت رؤيته لمسرور سر او
لمحزون حزن وليس ذلك في الانسان فقط بل في الحيوانات والنبات فان الجمل
الصعب قد يصير ذلولا بمقارنة الجمال الذلل والذلول قد ينقلب صعبا بمقارنة
الصعاب والريحانة الغضة قد تذبل بمقارنة الذابلة ولهذا يلتقط اصحاب
الفلاحة الردم عن الزروع لئلا تفسدها ومعلوم ان الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة
اذا قربت منهما وذلك مما لا ينكره ذو تجربة واذا كانت هذه الاشياء قد بلغ في قبول
التاثير هذا المبلغ فما الظن بالنفوس البشرية التي موضوعها لقبول صورة الاشياء
خيرها وشرها فقد قيل انما سمي الانس لانه يانس بما يليه ان خيرا وان شرا وللانسان

في المعاشرة بلثة احوال اما ان يكون شكسا اي قاسي الطبع او ملقا اي سلس الطبع او مساعدا
اي تاركا للخلاف على مقتضى العقل وهو المحمود وحق الانسان في المعاشرة ان يتقوى من جهة
الفكرة بالمطابقة في الكلام ومن جهة الغضب بالتحالم ومن جهة الشهوة بالجود وان يتحرك
عن اصوله ذلك وان يحامل المعاشرين والمعاندين والمتشبهين منهم بالاخوان ويصابرهم
ويكاشرهم طمعا في رجوعهم اخوانا واتقاء من شرورهم حتى تكون ظريفا والظرف
عبارة عن استجماع آلة العشرة من الطلاقة والاحتمال ولين الجانب **فضيلة التوحد**
عن الناس ورذيلته قد كثر اختلاف الناس في مفاضلة التفرد والاختلاط فبعضهم آثر
التفرد عن الناس وبعضهم آثر الاختلاط بهم وقد اورد كل واحد في مذهبه اخبارا
وآثارا وذلك بسبب اختلاف نظريهما وابتلاء احدهما بمصاحبة من لم يحمد مصاحبته
ومصاحبة الآخر من حمد مصاحبته والاصل ان اجتماع الناس بعضهم مع بعض امر
ضروري لتعلق امور بعضهم ببعض ولذا لما سمع امير المؤمنين عمر رضه رجلا يقول
اللهم اغنني عن الناس فقال يا رجل اراك تسال الله الموت قل اللهم اغنني عن شرار
الناس فالناس لا يستغني بعضهم عن بعض ما داموا احياء ثم في المعاشرة والتفرد
عن الاخيار الذين يفيدونك ويعينونك ولا يؤذونك مكروه سيما اذا لم يتدرب
في الفضل ولم يستغن عن اقتباس العلم واما عن الانذال الذين يتدنس بمصاحبتهم
فمحمود وقد قيل التفرد مكروه الا لثلثة سلطان لا نشاء تدبير المملكة وحكيم لاستنباط
الحكمة ومتنسك للمناجاة رب العزة فان التفرد يبطل الانسانية ولا يظهر من
صاحبه فضيلة ومن ظن بالمتفرد خيرا فلاجل ان ليس يظهر منه شر وهذا يشاركه فيه
الموتى وفضيلة الانسان ان يكون خيرا لا ان يكون شريرا وان كان في زماننا هذا
كما قال انا الغني زمن تترك القبيح به من اكثر الناس احسان واجمال فحق العاقل الفاضل
ان يجتمع مع العامة في ظواهر احكام الشرع واقامة وظائف العبادات واداء التهم

من الفضيلة بقدر الوسع ويترفع عن منزلتهم في المعارف والاخلاق والافعال الجميلة
والمراعاة لحكم الظاهر قال عم عليكم بالسواد الاعظم ولمراعاة الترفع عن منزلتهم في
المعارف والاخلاق قيل المروءة التامة مباينة العامة بل قيل من استانس بالله استوحش
من الناس وذلك لمخالفته اياهم في الخلق والنهي عن الاغترار بكثير منهم والركون
اليهم سيما من ليس قصده الآخرة وطلب الحق قال تعالى ان يدعوهم لا يسمعوا دعاكم ولو سمعوا
ما استجابوا لكم الآية وقال ان الذين تدعون من دون الله الآية **العداوة** العدو هو
الذي يتحرى اغتيال الآخرة ويضاده فيما يؤدي الى مصالحه ومنه قولهم تعدى فلان
على فلان اي فعل به فعل العدو وهو من قولهم مكان ذو عدواء اي متنافي الاجزاء ابي
عن حله ويضاد العداوة الولاية واشتقاقه من وليه يليه والولاية اعم من الصداقة
والموضة والعداوة ضربان باطن لا يدرك ذاته بالحس وظاهر يدرك بالحس والتام العداوة
اثنان احدهما الشيطان وهو اصل كل عدو يعادي معاداة جوهرية وقد حذرنا
الله تعالى منه غاية التحذير بقوله ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وقال الم اعهد
اليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان الآية وقال ان هذا عدو لك ولزوجك وقال
ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين والثاني الهوى المعبر عنه بالنفس
في قوله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقول النبي صم اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك
وكذا الغضب اذا كان مما يجب ولكون هذه القوة في الانسان انما اتخذت طريقا
للشيطان في وصوله الينا وكونها كالخليفة له سماه النبي صم باسمه فقال الهوى شيطان
والغضب شيطان وقال تعالى حكاية عن موسى عم هذا من عمل الشيطان انه عدو
مضل مبين واما الظاهر من العداوة فالانسان وذلك ضربان ضرب هو عدو
مصطنع للعداوة قاصدا الى الاضرار اما مجاهرة او مساترة وذلك اثنان واحد
يعادي كل احد وهو كل انسان سبعي الطبع خبيث الطينة مبغض لكل ما لا يحبه

فوق ص

اليه في العاجل يغيض لكل نفس بها رشح من لا يخافه كما قال الشاعر يسطو بلا سبب وتلك طبيعة الكلب العقور ومثله هو الذي عنى تعالى بقوله شياطين الانس والثاني عدو خاص العداوة وذلك اما بسبب الفضيلة والرذيلة كعداوة الجاهل للعاقل واما بسبب تجاذب نفع دنيوي كالتجاذب في رياسة وجاه ومال واما بسبب لحمة وقرابة او مجاور موروثة للحسد كعداوة بني الاعمام بعضهم لبعض وذلك في كثير من الناس كالطبيعي وقد قال رجل لآخر احبك فقال قد علمت ذلك فقال له من اين علمت فقال لانك لست لي بشريك ولا نسيب ولا جار قريب واكثر المعاداة بين الناس انما يتولد من شيء من ذلك والثالث عدو غير مضطغن للعداوة لكن تؤدي حاله بالانسان الى ان يقع بسببه في مثل ما يقع في كيد عدوه فيسمى عدوا وذلك كالاولاد والازواج وعلى ذلك قال تعالى ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عم ليس عدوك الذي ان قتلته اجرك الله في قتله وان قتلك ادخلك الله الجنة ولكن اعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك وامرأتك التي تضاجعك واولادك الذين من صلبك فجعل عم هؤلاء اعداء الانسان لما كانوا سببا للهلاك الاخروي بما يرتكبه من المعاصي لاجلهم فيؤدي به الى هلاك الابد الذي هو شر من هلاك المعادي المناصب اياه واعلم انه لكون الانسان او بعض الناس مشاركا للشيطان في المعاداة سمى الله تعالى الاعداء شياطين الانس والجن في قوله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وقد يسمى كل ما يتاذى به شيطانا حتى قال الشاعر ما ليلة الفقير الا شيطان مجنونة تودي بروح الانسان والفقير هو اسم بئر فجعل الليلة ورواحها شيطانا لتاذيه بها

الفصل السادس فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب والانفاق والجود والبخل

في حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر اعلم انه لما صعب على كل واحد ان يحصل لنفسه ادنى ما يحتاج اليه الا باعوان عدة له فلقمة طعام لو عددنا تعب تحصيلها من حين الزرع الى حين الطحن والخبز وصناع آلاتها لصعب حصره فلذلك احتاج الناس ان يجتمعوا فرقة فرقة متظاهرين ولاجل ذلك قيل الانسان مدني بالطبع اي انه لا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه بل يفتقر بعضهم الى بعض في مصالح الدين والدنيا وعلى ذلك نبه عم المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وقوله مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى وقد قيل الناس كجسد واحد متى عاون بعضه بعضا استقل ومتى خذل بعضه بعضا اختل

تسخير الله تعالى الناس للصناعات المختلفة وعناية كل واحد بتحريها

لما احتاج الناس بعضهم الى بعض سخر الله تعالى كل واحد منهم لصناعة ما يتعاطاها وجعل بين طباعهم وصنائعهم مناسبات خفية واتفاقات سماوية ليؤثر كل واحد منهم حرفة من الحرف ينشرح صدره لها ويفرح بملابستها وتطيعه قواه لمزاولتها ولو كلف صناعة اخرى ربما وجد متبلدا فيها ومتبرما بها وقد سخرهم الله تعالى كذلك لئلا يختاروا باجمعهم صناعة واحدة فتبطل الاقوات والمعاونات ولولا ذلك لما اختاروا من الاسماء الا احسنها ومن البلاد الا اطيبها ومن الصناعات الا اجملها ومن الاعمال الا ارفعها وتشاجروا على ذلك ولكن الله تعالى بحكمته جعل كلا منهم في ما هو فيه مجبرا في صورة مختار فالناس اما راض بصنعته لا يريد عنها حولا كالحايك الذي يرضى بصناعته ويعيب الحجام والحجام الذي يرضى بصناعته ويعيب الحايك وبهذا انتظم امرهم كما قال الله تعالى فتقطعوا امرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون واما كاره لها يكابدها مع كراهته اياها كأنه لا يجد عنها بدلا وعلى هذا دل النبي عم كل ميسر لما خلق له بل صرح تعالى بذلك في نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيوة الدنيا الاية وقوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون وقوله تعالى كل يعمل على شاكلته ولهذا قال عم لن يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا

هلكوا فالتباين والتفرق والاختلاف في نحو هذا الموضع سبب الالتيام والاجتماع
والاتفاق كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتعددها الذي لولاه لما حصل الانتظام
فسبحان الله ما احسن ما صنع واحكم ما اسس واتقن ما دبر ولهذا قيل من حق
من قيض له صناعة مباحة فرزق منها ان يراعي علمها كما يجب وعليه دل
قول النبي صم من رزق من شئ فليلزمه **كون الفقر وخوفه** سبب نظام امر الناس
حصول الفقر وخوفه الناتجان للحرص هما الباعثان على الجد واحتمال الكد في منفعة
الناس اما باختيار واما باضطرار ولهذا قيل رب ساع لقاعد وهو ان الناس
لو كفي كل واحد منهم امره لادى الى فساد العالم من حيث انه لم يكن احد يتولى غيره
مهنته وكان الواحد منهم يعجز عن القيام بمصالح نفسه كلها فيؤدي ذلك الى فقر
جميعهم وقد قيل قيام العالم بالفقر اكثر من قيامه بالغنى لان من الصناعات
القايمة بالغنى ثلث الملك والتجارة والبناية وسايرها قايمة بالفقر فلو لم يكن
الفقر وخوفه فمن كان يتولى الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة ومن كان ينقل
الامتعة والملابس من الشرق الى الغرب ومن الجنوب الى الشمال وعلى منفعة الفقر
نبه قوله تع نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيوة الدنيا الآية وقوله تع ولولا ان يكون
الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم الآية هذا مع ان من الناس
من لو كفي امر دنياه لكان يوجد منه من البغي والتسلط ما يؤدي الى خراب البلاد
وفساد العباد بل كان يوجد منه ما يؤدي الى هلاك نفسه في اسرع مدة وعلى
ذلك قوله تع ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض الآية ومن تدبر صنع
الله في ذلك وتامل ما اشار اليه في هذه الآيات التي ذكرها لم تعرض له الشبهة التي
تعرض لمن يقول اذا كان الله غنيا جوادا واسعا فلم خص بعض خلقه بالغنى و
جعل اكثرهم فقراء ومن حق الغني الذي لا يغني غناء والجود الذي لا يعرف بجود،

منتهى ان لا يخص بالعطية بعضا دون بعض وذلك ان الجواد الحق هو الذي يعطي كل
بقدر استحقاقه على قضية جوده بمصلحته ومصلحة غيره وقد فعل تع ذلك بكثير من
العباد **مناسبة بعض الاشان** لصناعته ان الله تع فرق همم الناس للصناعات
المتفاوتة وتيسر كلا لما خلق له وجعل الآلات الفكرية والبدنية مستعدة لما جعل
لمن قيضه لمراعاة العلم والمحافظ على الدين قلوبا صافية وعقولا بالمعارف
لايقة وامزجة لطيفة وابدانا لينة مستصلحة لما طلبوا له وجعل لمن قيضه
لمراعاة المهن الدنيوية والمحافظ عليها كالزراعة والبناء قلوبا قاسية وعقولا
كزة وامزجة غليظة وابدانا خشنة وكما انه محال ان يصلح السمع للرؤية والبصر
للسمع كذلك من المحال ان يكون من خلق للمهنة يصلح للحكمة وقد جعل الله كل
جنس من الفريقين نوعين رفيعا ووضيعا فالرفيع من تحرى الحذق في
صناعته واقبل على عمله وطلب مرضات ربه بقدر وسعه وادى الامانة بقدر
جهده ولم يشتغل عن عبادة الله تع كما قال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله
الآية وقال عم ان الله يحب الصانع الحاذق ومدح الملايكة بوقوفهم حيث ما وقفوا
واحكامهم لما ولوا فقال تع لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون **وجوب
التكسب** التكسب في الدنيا وان كان معدودا في المباحات من وجه فانه من الواجبات
من وجه وذلك لما لم يكن للانسان الاستقلال بالعبادة الا بازالة ضروريات
حيوته فازالتها واجب لان كل ما لا يتم الواجب الا به فواجب كوجوبه واذا لم يكن
الى ازالة ضرورياته سبيل الا باخذ تعب من الناس فلا بد اذا ان يعوضهم تعبا
من عمله والا كان ظالما فمن توسع في تناول عمل غيره في ماكله وملبسه ومسكنه وغير
ذلك فلا بد له ان يعمل لهم عملا بقدر ما يتناوله منهم والا كان ظالما لهم سواء قصدوا
افادته او لم يقصدوا فمن رضي بقليل من عملهم فلم يتناول من دنياهم الا قليلا يرضى

منه بقليل من العمل ولذا قال عم من رضي من الله بقليل الرزق رضي الله عنه
بقليل العمل ومن اخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعا فانه لم ياتمر الله في قوله وتعاونوا
على البر والتقوى الآية ولم يدخل في عموم قوله والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء
بعض ولذا ذم من يدعي التصوف فيتعطل عن المكاسب ولم يكن له يؤخذ عنه علم
ولا عمل صالح في الدين يقتدى به بل يجعل همه عارية بطنه وفرجه فانه ياخذ
منافع الناس ويضيق عليهم معاشهم ولا يرد اليهم نفعا فلا طايل في مثلهم الا ان
يكدروا الماء ويغلوا الاسعار ولذا الشان كان امير المؤمنين عمر بن الخطاب رض
اذا نظر الى ذي سيما سال عنه اله حرفة فان قيل لا سقط من عينه وقد استخبر النبي عم
من وفد عبد القيس لما سالهم فقال ما المروة فقال العفة والحرفة ومن الدلالة على
قبح فعل من هذا صنعه ان الله تعالى ذم من ياكل مال نفسه اسرافا فما حال من ياكل
مال غيره على ذلك ولا ينيلهم عوضا ولا يرد عليهم بدلا فمن كان مضطرا الى الكسب
فحقه ان يقتصر على ما يسد به فقره وفقد ولا يحمل هم غده على يومه فمن شغل الساعات
في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر دون فقره على فوت ذلك فقد صار من المتوكلين
الذين عناهم النبي صم بقوله لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير
تغدوا خماصا وتروح بطانا وذم الكسل من تعطل وتبطل انسلخ
من الانسانية بل من الحيوانية وصار من جنس الموتى وذلك انه خص الانسان
بالقوى الثلث ليسعى في فضيلتها فان فضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب
التي تنميه وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدات التي تحميه وفضيلة
القوة الفكرية تطالبه بالعلوم التي تهديه فحقه ان يتامل قوته ويسبر قدر ما
يطيقه فيسعى بحسبه لما يفيده السعادة ويتحقق ان اضطرابه سبب وصوله
من الذل الى العز ومن الفقر الى الغنى ومن الضعة الى الرفعة ومن الخمول الى

النباهة وان من تعود الكسل ومال الى الراحة فقد الراحة فحب الهوينا يكسب
النصب وان اردت ان لا تتعب فاتعب لئلا تتعب وقيل اياك والكسل والضجر
فانك ان كسلت لم تؤد حقا وان ضجرت لم تصبر على الحق وقال الشاعر
ان التواني انكح العجز ابنته وساق اليها حين انكحها مهرا فراشا وطيا ثم قال لها
اتكي فعقباكما لا شك ان يلد الفقرا وقال يزيد بن المهلب ما يسرني ان كفيت امر الدنيا
كله لئلا اتعود العجز ولان الفراغ يبطل الهيئات الانسانية فكل هيئة بل كل عضو
ترك استعماله بطل كالعين اذا غمضت واليد اذا عطلت ولذلك وضعت الرياضات
في كل شيء ولما جعل الله تعالى للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقا الا بسعي منه لئلا
يتعطل فائدة ما جعل له من قوة التحرك ولما جعل للانسان قوة الفكرة ترك من
كل نعمة انعمها تعالى عليه جانبا يصلحه هو بفكرته لئلا يتبطل فائدة الفكرة
فيكون وجودها عبثا وتامل حال مريم عم وقد جعل لها من الرطب الجني ما كفاها
مؤنة الطلب وفيه اعظم معجزة فانه لم يخلها من ان امرها بهزها فقال وهزي اليك
بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا وكما ان البدن يتعود الرفاهية بكسل
كذلك النفس بترك النظر والتفكر تتبلد وتتبله وترجع الى رتبة البهائم فحق الانسان
ان لا يذهب عامة اوقاته الا في اصلاح امر دينه واصلاح امر دنياه متوصلا
به الى اصلاح امر آخرته مراعيا لما قال الحجاج ان امرءا اتت عليه ساعة من
عمره لم يذكر فيها ربه او يستغفر من ذنبه او يفكر في معاده لجدير ان تطول
حسرته يوم القيامة واذا تاملت قول النبي صم سافروا تغنموا ونظرت اليه
نظرا عاليا علمت انه حثك على التحرك الذي يثمر لك جنة الماوى ومصاحبة الملاء
الاعلى بل مجاورة الله تعالى وذلك يحتاج الى اربعة اشياء معرفة المقصود المشار اليه
بقوله ففروا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون ومعرفة الطريق اليه

المشار اليه بقوله تعالى قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة وتحصيل الزلفة المتبلغ اليه بقوله تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى والمجاهدة في الوصول الى الله كما قال تعالى وجاهدوا في الله حق جهاده فبهذه الاشياء يامن الغرور الذي خوفه الله منه في قوله تعالى ولا يغرنكم بالله الغرور وهذه من المعاني التي دونها هول العوالي والاخير لمن رامها ان يتدرع الصبر فقد اصاب من قال فقل لمرتجي معالي الامور بغير اجتهاد رجوت المحالا

تقاسيم الصناعات ومراتبها وتفضيل بعضها على بعض الصناعات ثلثة اضرب اما اصول لا قوام للعالم دونها وهي اربعة اشياء الزراعة والحياكة والبناية والموشية والسياسة واما مرشحة لكل واحد من هذه وهو خادمة لها كالحدادة للزراعة والحلاجة والغزالة للحياكة واما متممة لكل واحد من ذلك ومزينة لها كالطحانة والخبازة للزراعة وكالقصارة والخياطة للحياكة ومثل ذلك بالاضافة الى العالم كمثل اجزاء الشخص بالاضافة الى الشخص سواء فانها على ثلثة اضرب اما اصول كالقلب والكبد والدماغ واما مرشحة لتلك الاصول وخادمة لها كالمعدة والعروق والشراين واما مكملة لها ومزينة كاليد والحاجب واشرف اصول الصناعات السياسة وهي اربعة اضرب الاول سياسة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم والثاني الولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والثالث الحكماء وحكمهم على باطن الخواص والرابع الفقهاء والوعظ وحكمهم على بواطن العامة واشرف هذه السياسة الاربعة بعد النبوة افادة العلم وتهذيب الناس وبيان ذلك ان شرف الصناعة يتبين من اوجه اما بحسب النسبة الى القوة المبرزة لها كفضل معرفة الحكمة على معرفة اللغات فان الاولى متعلقة بالقوة العقلية وهذه بالقوة الحسية والعقل اشرف من الحس واما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة واما بحسب شرف الموضوع المعمول فيه كشرف الصياغة على الدباغة وقد علم ان الكلمة

تدرك بالقوى المفكرة وهي اشرف قوة في الانسان وانه يتوصل بها الى جنة المأوى وذلك ابلغ نفع وموضوعه الذي يعمل فيه نفوس البشر وهي افضل موضع يعمل فيه بل افضل موجود في هذا العالم وافادة العلم من وجه صناعة ومن وجه عبادة ومن وجه اجل خلافة الله تعالى فان الله تعالى مع استخلافه وقد فتح على قلبه العلم الذي هو اخص صفاته تعالى فهو خازن لاجل خزائنه وقد اذن له الله في الانفاق عليه وكلما كان الانفاق على ما يجب وكما يجب اكثر كان جاهه عند مستخلفه اوفر **في ان اصول** الصناعات ماخوذة عن الوحي وذلك ان نقص الانسان وحاجة بعضهم الى بعض امر ظاهر والناقص محتاج الى الكامل فلا يخلو اما ان يكون قد اخذ ذلك واحد عن واحد بلا نهاية وذلك ايجاب ما لا نهاية له وهو محال واما ان ينتهي الى واحد من البشر علمه الله الصناعات اما بسماع من الملأ الاعلى وهذا هو الحد فمعلوم لذي اللب ان قوى العقاقير وطبائع الحيوانات مما لا يمكن ادراك خواصها بافهام البشر وتجربتهم ورؤساء كل صناعة يعترفون بذلك واهل النجوم يقولون مبادي النجوم من هرمس ويقولون هو الذي عرج بروحه الى السماء واطلع على ملكوت السموات وهرمس هو ادريس عم وكذلك اصحاب الطب يدعون مثل ذلك في معرفة الادوية واختصاص كل واحد من الموجودات بفعل له على حدته وانحسار العقل عن توهم ما هو اصلح لذلك الفعل منه تحقق انه صدر عن حكمة الهية **في ان** الناض المتعامل به وبيان حكمة الله تعالى فيه اعلم ان الناض احد اسباب ما به قوام الحيوة الدنيوية ومتى توهمنا مرتفعا تعذر على الناس تزجية معاشهم وقد تقدم ان الناس يحتاج بعضهم الى بعض ولا يمكنهم التعايش ما لم يتظاهروا ويتولى كل واحد منهم عملا يصير معينا للآخر مواسيا له ولما كان كل مواس غيره في حقه ان يقابل بقدر مواساته لكن ربما لم يحضر عند صاحبه ما يبدع هو فقيض الله تعالى لهم هذا النافع علاقة

عمله

فيه ليدفع الانسان اليا من يوليه نفعا فيحمله الى من عنده مبتغاه فيأخذ منه قدر
ثم اذا احتاج ذلك الآخر الى الاول بتلك العلاقة او بمثلها وطلب منه مبتغيه هو عنده دفعه
اليه لينتظم امرهم بذلك ولذلك قيل الدرهم حاكم صامت وعدل ساكت وحكم من الله
نافذ وقد قيل لهذا المعنى سمي في لغة الفرس الدينار دينار اى الدين اتى به والدين
فارسية معربة ولما كان ذلك حاكما عظم الله تعالى وعيد من احتبسه ومنع الناس من
التعامل به فقال الذين يكنزون الذهب والفضة الآية وذلك انه يصير باحتباسه
اياهما كمن احتبس حاكمين للناس بهما تتمشى امور معاشهم ولذلك قال النبي صلعم
الذي يشرب في آنية الفضة انما يجرجر في جوفه نار جهنم لان اتخاذ الذهب او الفضة
آنية تؤدي الى منع الناس عن تصريفه في معاملاتهم وتضييقه عليهم في مكاسبهم

مدح المال وذمه المال اذا اعتبر بكونه احد اسباب الحيوة الدنيوية فهو عظيم الخطر
كما تقدم واذا اعتبر بساير القنيات فهو صغير الخطر اذ هو اخس القنيات فالقنيات
ثلث نفسية وبدنية وخارجة والخارجة ادونها وادنى الخارجات الناض لانه
خادم غير مخدوم وساير القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه لان النفس
يخدمها البدن والبدن يخدمه المأكل والملبس وهما يخدمهما المال فالمال من حقه
ان يكون خادما لغيره من القنيات وان لا يكون شئ من القنيات خادما له وان
كان كثيرا من الناس لجهلهم يجعلون جاههم وابدانهم ونفوسهم خدما للمال وعبيدا
وهم الذين ذمهم النبي عم بقوله تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد
الخميصة تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش ويعظم موقع المال عند من
لم يتجاوز المحسوسات قال حكاية عن بعض انبيائه فيما خاطب به امته استغفروا
ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم
جنات ويجعل لكم انهارا ولعظم منافعه عن الامور الدنيوية قال تعالى ولا تؤتوا

السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما ونبه على حقارته بالاضافة الى احوال الآخرة
فقال لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون وخوف
من العجب بافتنانه وذمه فقال ايحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم
في الخيرات بل لا يشعرون وقال ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا
الآية فحق الانسان ان يعلم ان المقتنيات الدنيوية انما هي موضوعة في خان على
طريق سفره تصلح للانتفاع بها ما دام نازلا في ذلك الخان فيتناول منه مقدار
البلغة ويتسلى عن الباقي عند الرحلة ولا يستهجن لنفسه ان يكذب ويغضب ويحزن
ويرتكب القبائح بسببها واعلم ان الناض الذي هو العين والورق حجة جعله الله
سببا للتعامل به كما تقدم ذكره انما هو خادم غيره فقبيح للحر المترشح لنيل
الفضايل والاقتداء بالباري جلت عظمته وهو يأمل الوصول الى الغنى الاكبر ان
يتهافت على المال ويتناول اكثر مما يحتاج اليه ويجعل نفسه اقل رقيق واخسه
فرق ذوي الاطماع رق مخلد ويكون معتكفا فيه على حجر يعبده كما قال يعكفون
على اصنام لهم وارى ان ابراهيم عم لما سال الله تعالى فقال واجنبني وبني ان نعبد
الاصنام لم يعن الا ان يحرسه وذريته عن محبة الاعراض الدنيوية الصارفة
عن الله عز وجل ولم يعن ان يشفق من اعتقاد في حجر انه صانعه وانه
يستحق عبادته وقد قال في موضع آخر اشارة الى ما يعم هذا المعنى وغيره يا ابت
لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا قال بعض الحكماء مثل الانسان
وشغفه بهذا الحجر بل بساير الاعراض الدنيوية كمثل قوم كانوا في سفينة ينتقلون
افضل بلد واطيبه فانتهت بهم السفينة الى جزيرة ذات اسود واساود وقد امروا
بالخروج والتهيؤ للطهارة وان يكونوا على حذر فلما خرجوا اليها رأوا فيها احجارا
مزخرفة وازهارا مستحسنة مختلفة فاعجبهم ذلك وشغفوا به وامعنوا في الجزيرة

وتباعدوا عن المركب ونسوا انفسهم ومقصدهم وبقوا لاهين بما رأوا من ذلك
حتى سارت السفينة فثارت عليهم الاسد والاساود تفترسهم وتنهشهم ولم
يغن عنهم ما اخذوه معهم والتقطوه من تلك الاحجار والازهار فصاروا كما قال الله تعالى حكاية
عمن هذه حاله ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه **ذكر المال** والادب في اقتنائه
والوجوه التي منها يحصل قد تقدم ان المال من الخيرات المتوسطة لانه كما قد يكون
سببا للخير قد يكون سببا للشر لكن لما كان في اكثر الاحوال موجبا كرامة اصحابه
وتعظيم اربابه حتى صدق قول الشاعر   الناس اعداء لكل مدقع   صفر اليدين
اخوة للمكثر وقيل رايت ذا المال مهيبا مكرما وقد قال النبي ع م نعم المال الصالح
للرجل الصالح واستصوب قول طلحة رض في دعائه اللهم ارزقني مجدا ومالا فانه
لا يصلح المجد الا بالمال ولا يصلح المال الا بعد اعطاء المجد ونظم المتنبي هذا النظم
حيث قال   فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله   ولا مال في الدنيا لمن قل مجده   وقال
بعض الحكماء اطلب العلم والمال تحز الرياسة والناس خاص وعام فالخاص يفضلك
بما تحسن والعام بما تملك في اكتسابه من الوجوه التي ينبغي صعب وتفريقه سهل
كما قال الشاعر له مصعد صعب ومنحدر سهل ومن رام اكتسابه من وجهه صعب
عليه فالمكاسب الجميلة قليلة عند الحر العادل ومن رضي بكسبه من حيث ما اتفق
فقد سهل عليه والفاضل ينقبض عن اقتناء المال ويتوسل في انفاقه ولا يريده
لذاته بل لاكتساب المحمدة به ولا يجمع عنده المال مدخرا لكن كما قال الشاعر
لا يالف الدرهم المضروب خرقته   لكن يمر عليها وهو منطلق   انا اذا اجتمعت
يوما دراهمنا   ظلت الى طرق المعروف تستبق   وغير الفاضل يسترسل في
اقتنائه وينقبض في انفاقه ويطلبه لذاته لا لادخار الفضيلة به والمال يحصل
من وجهين احدهما بسبب منسوب الى الجد المحض والبخت الذي من غير اكتساب

من صاحبه كمن ورث مالا او وجد كنزا او قيض له من اولاه شيئا والثاني ان يكتسبه الانسان
كمن يشتغل بتجارة او صناعة فيدخر منهما مالا وهذا الضرب ايضا لا يستغني فيه عن الجد
ولهذا قيل وعلي ان اسعى وليس علي ادراك النجاح فحظ الجد في المال اكثر من حظ الكد
بخلاف الاخلاق والاعمال الاخروية التي حظ الكد فيها اكثر وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله
من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد الى قوله مشكورا فاشترط في العاجلة
مشيئته للمعطى وارادته للمعطى له ولم يشترط السعي واشترط في الآخرة السعي له مع
الايمان ولم يشترط ارادته تعالى ومشيئته وان كان ذلك لا يتعرى منهما فحق العاقل ان
يعنى بما اذا طلبه ناله واذا ناله لم يخف زواله ويقلل المبالاة بما ان قدر له اتاه
طلبه او لم يطلبه وقد قال بعض الحكماء ان البخت عندي امرأة صماء عمياء ودرر في حجرها
جواهر مدورة وهي قاعدة على حجر مدور يتبعها ناس كثير يلتمسون ما عندها وهي
لا تسمع قولا ولا ترى وجها وقد اعتزل عنها قوم قليل العدد وقعدوا ناحية وهي في
كل ساعة تقبض قبضة مما في حجرها وتعطيها واحدا من القوم لا لحفظ اتباعها
بل ربما تخطيهم وربما تعطيهم كانها المعنية بقول الشاعر   لا تعذرن ابن عباد وان هطلت
كفاه جودا ولا تذممه ان حرما   فليس يبخل ابقاء على نشب   ولن يجود بفضل المال محترما
لكنه خطرات من وساوسه   يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما   واما الفضائل الاخروية فكما
قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا اعطيته كلك فانت من اعطائه اياك
بعضه على خطر ولهذا قال وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى **افعال العاقل**
وانجاح الجاهل الحكمة تقتضي ان يكون العاقل الحكيم في اكثر الاحوال مقلا وذلك انه لا ياخذ
المال الا كما يجب من الوجه الذي يجب وفي الوقت الذي يجب ثم اذا تناوله لم يدخره عن مكرمة
تعن له والجاهل يسهل عليه الجمع من حيث لا يبالي فيما يتناوله بارتكاب محظور واستنباح
محجور واستنزال الناس عما في ايديهم بالمكر ومساعدتهم على ارتكاب الشر طمعا في نفعهم

وكثيرا ما يرى من هو من جملة الموصوفين بقوله تعالى فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا
وما له في الآخرة من خلاق شاكين لبختهم وبعضهم يعتب على الفلك وبعضهم يعتب على
القدر وبعض يتجاوز الاسباب فيعاتب الله حتى قال بعض المجان بقوله تعالى نحن قسمنا
بينهم زال البلاء ولو تولى غيره قسمة ارزاق الورى جرت خطوب بيننا لكننا تحت
العراء وذلك لحرصهم على ارتكاب القبائح وجهلهم بما يقتضيه الله لعباده من المصالح
وقول الشاعر هذا الذي ترك الالباب حائرة وصير العالم النحرير زنديقا فالذي
يصير بذلك زنديقا فبان يسمى الجاهل الشرير اولى من ان يسمى العالم النحرير وقد قال حكيم
سوءة لمن اعطي العلم فجزع لفقد الذهب والفضة ولمن اعطي السلامة والدعة فجزع
لفقد الالم والتعب فثمرة العلم السلامة والدعة وثمرة المال التعب والالم تحقيق كون
المال في ايدي الناس ان الله تعالى اوجد اعراض الدنيا بلغة فاتخذها الناس عقدة وجعل
الدنيا معبرا او ممرا فصيروها موطنا ومقرا الا قليلا منهم فانهم انزلوها حيث انزلها
الله وهم الذين وصفهم بقوله وقليل من عبادي الشكور تاجروا بها ربهم كما قال تعالى
يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم الى قوله تعلمون فاعراض
الدنيا من وجه عارية في ايدي الناس مسترجعة كما قيل وما المال والاهلون الا ودائع
ولا بد يوما ان ترد الودائع وهي من وجه منيحة منحت الانسان لينتفع بها مدة و
يدرها لينتفع بها من بعده ومن وجه وديعة في يده رخص له في استعمالها والانتفاع
بها بعد ان لا يسرف فيها لكن الانسان لجهله ونسيانه لما عهد اليه بقوله ولقد عهدنا
الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما اغتر بها وظن انه قد جعلت له هبة مؤبدة
فركن اليها واعتمد عليها ولم يؤد امانة الله فيها ثم لما طولب بردها نفر منه وضجر
فلم يخرج عنها الا بنزع روحه او كره منه وبعضهم وهم الاقلون حفظوا ما عهد اليهم
فتناولوها تناول العارية والمنيحة والوديعة واتوا فيها الامانة وعلموا انها مسترجعة

لاداء الامانة

فلما استردت منهم لم يغضبوا ولم يجزعوا وردوها شاكرين لما نالوه منها ومشكورين
فيها وقد ذكر بعض الحكماء في ذلك مثلا فقال انما مثل الناس فيما اعطوه من اعراض الدنيا
مثل رجل دعا قوما الى داره فاخذ طبقا من ذهب وجعل عليه بخورا ورياحين فكان
كلما دخل واحد منهم تلقاه به ودفعه اليه لا ليتملكه بل ليشمه ويستمتع به ويدفعه الى
من يجيء بعده فمن كان جاهلا برسومه ظن انه قد وهبه فيضجر اذا استرجع منه
ومن كان عارفا برسومه اخذه بشكره ورده بانشراح صدره تفاوت احوال
المتناولين لاعراض الدنيا طلب الدنيا وتناولها على ثلاثة اضرب فالاول من تناولها
على اي وجه اتفق راكنا الى المال غير متفكر في المآل واياه قصد تبارك وتعالى بقوله في ذم
من ذمه يحسب ان ماله اخلده والثاني من تناولها على وجه يجب عليه تناوله وذلك ان يقتصر
على ما لا يمكن التبلغ باقل منه من الوجه الذي يجب كما يجب ولوجوب تناول هذا القدر
قيل مباحات الصوفية فريضة وفريضتهم مباحة بمعنى انه لا يقدم على تناول مباح حتى
يضطر اليه فيتحتم تناوله عليه فيصير ما كان مباحا تناوله فرضا عليه ويفعل من الواجب
فوق ما يجب عليه مسارعا اليه حتى يصير حكمها حكم النوافل وروي من طلب رزقه على
ما سن فهو في جهاد وقال عم لابن مسعود ان المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى في اللقمة
يرفعها في في امراته ولم يعن ان كل احد على كل حال يؤجر في ذلك وانما اراد تخصيص
المؤمنين الذين يراعون حكم الله في مكاسبهم وانفاقهم ويتحرون في ذلك عبادة الله
والضرب الثالث من يتوسع في تناولها ويراعي فيه ما يجب لكن يكون فيه وكيلا لله
فيقتصر منها لنفسه على تناول بلغته ويجعل الباقي مصروفا الى ما دعا اليه ولذا افضل ممن
تقدم ذكره فانه يصير بذلك من خلفاء الله عز وجل فمن تناول الدنيا على احد هذين
الوجهين فقد ارتسم لله عز وجل في قوله تعالى وابتغ فيما اتيك الله الدار الآخرة الآية
وبالاعتبار بفعلهم قال تعالى قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق

الآية وقال وقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها من عبادي الصالحون فجعلها لهم
ارثا ثم قال ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين اى من تحرى في تناول الدنيا عبادة الله تع
فانه يبلغ بذلك مقصوده المذكور في قوله وان الى ربك المنتهى وقال ليس عليكم جناح
ان تبتغوا فضلا من ربكم والفضل هو الاحسان فنبه بذلك ان تناول المال اذا تحرى به
الوجه الذي يجب كما يجب فهو فضل واحسان يستحق به الثواب وعلى ذلك قوله واسئلوا
الله من فضله وقال في مدح قوم يتناولون الدنيا كما يجب من حيث ما يجب رجال لا تلهيهم
تجارة ولا بيع عن ذكر الله **في بيان ما ورد** من الآيات المتفاوتة الظاهر في شان
الدنيا من تصور الوجوه الثلثة التى تقدم ذكرها في تناول الدنيا سقطت شبهته فيما
ورد من الآيات والاخبار المتفاوتة في الظاهر من ذم الدنيا واعراضها تارة ومدحها
تارة وذلك ان من جاء من ذمها فاعتبارا بمن رضيها حظا لنفسه وجعلها مبلغ
مرامه كما قال تع رضوا بالحيوة الدنيا واطمانوا بها وما جاء من مدحها فباعتبار تناولها
وانفاقها على ما يجب وعلى ذلك قال امير المومنين على رضه الدنيا دار تجارة لمن فهم عنها
ودار غنى لمن تزود منها والناس فيها رجلان رجل باع نفسه فاوبقها ورجل ابتاع
نفسه فاعتقها وعلى هذين الوجهين مدح تارة عمارة الارضين فقال واستعمركم
فيها وقال عم من غرس غرسا لم ياكل منه طاير ولا بهيمة الا كان له صدقة وقد ذم
مرة عمارتها فقال اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم
كانوا اشد منهم قوة واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وقال عم الدنيا قنطرة
فاعبروها ولا تعمروها **احوال الناس** في امور الدنيا والآخرة الناس في ذلك على ثلثة اضرب
صنف هم المنهمكون في الدنيا بلا التفات منهم الى العقبى وهم المسمون عبدة الطاغوت
واشر الدواب ونحوها من الاسماء وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة يراعون العقبى من
غير التفات منهم الى مصالح الدنيا وصنف متوسط بينهما وفوا الدارين حقهما

وهذا الصنف هم عند الحكماء الافضلون لان بهم قوام اسباب الدنيا والآخرة ومنهم
عامة الانبياء عم لان الله تع بعثهم لاقامة مصالح العباد والمعاش لان امورهم مبنية
على الاعتدال الذي هو اشرف الاحوال واجدر بكون ثلثهم داخلين في قوله تع وكنتم
ازواجا ثلثة فاصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشامة ما اصحاب المشامة و
والسابقون السابقون اولئك المقربون في جنات النعيم فالمراعي للدنيا والآخرة على ما
يحسن وكما يحسن هو من السابقين وجعل قوم السابقين هم النساك الذين رفضوا
الدنيا بالكلية محتجين بقوله تع وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وخفي على هذا القايل
ان اعظم عبادة الله ما يكون عايدا بمصالح عباده وقد روى ابن مسعود رضه عن
النبي عم انه قال الخلق كلهم عباد الله فاحب الناس الى الله انفعهم لعياله ولانه كما يقبح
ان يشتغل الانسان بامر بدنه ودنياه ويضيع احد جزئيه المركب عليه كذلك يقبح
ان يضيع الجزء الآخر الذي هو بدنه ودنياه لانه يصير مضادا لله في ابطال ما انعمه
واوجد فان قيل فقد قيل الناس ثلثة رجل شغله معاده عن معاشه وتلك درجة
الفايزين ورجل شغله معاشه عن معاده وتلك درجة الهالكين ورجل مشتغل بهما و
تلك درجة المخاطرين قال وقد علم ان الفايز احسن حالا من المخاطر قيل ان المنازل
الرفيعة لا تنفك عن المخاطرة ولم يقصد هذا القايل بذلك الى تفضيل الفايز وانما
خوف ان يترشح لخلافة الله تع من هو قاصر عنها ويقوى ذلك ما روى ان بعض اولاد
الملوك ممن يقوى في العلم والحكمة اعتزل الملك وزهد في الدنيا وكتب اليه بعض الملوك
قد اعتزلت ما نحن فيه فان علمت ان ما اخترته افضل فعرفنا لنذر ما نحن فيه والا فبين
انى اقبل منك قولا بلا حجة فكتب اليه اعلم انا عبيد لملك رحيم بعثنا الى حرب عدو
وعرفنا ان المقصد من ذلك قهره او السلامة منه فلما قربوا من الزحف صاروا
فرقا ثلثا متحرزا طلب السلامة منه فاعتزل فاكتسب ترك الملامة وان لم يكتسب المحمدة

ومتهورا اقدم على غير بصيرة فجرحه العدو وقتله فاستجلب بذلك سخط ربه وشجاعا
اقدم على بصيرة فقاتل وابلى واجتهد فهو الفايز التام الفوز وانا لما وجدني ضعيفا
رضيت بادنى المحتين وادون المنزلتين فكذا انت ايها الملك من افضل الطوايف تكن
اكرمهم عند الله **بيان حال** من يجوز له الاستكثار من اعراض الدنيا ومن لا يجوز ذلك ١٣٨
الاعتبار في تناول الدنيا والاستكثار منها والاستقلال والزهد فيها او الرغبة ليس
بتناول القليل والكثير بل بتناولها من حيث ما يجب ووضعها كما يجب قال امير المؤمنين عليه
لو ان رجلا اخذ جميع ما في الارض واراد به وجه الله يسمى زاهدا ولو انه ترك جميع ما في الارض
ولم يرد بتركه وجه الله لم يسم زاهدا ولا كان له في ذلك عابدا فليكن اخذك ما تاخذ و
تركك ما تتركه لله عز وجل لا لغيره واعلم ان الحكيم اذا تناول اعراض الدنيا جرى مجرى
راق حاذق يتناول حية قد عرف نفعها وضرها وامن سمها وشرها فيجري بتناولها
الوجه الذي ينتفع هو به وينفع غيره فهو مباح له تناوله وغير الحكيم اذا تناولها فهو
كجاهل استحسن الحية واستلان مسها فظن انها مستصلح لان يتقلد بها فجعلها سخابا
في عنقه فلدغته وقتلته وما احسن ما قال الشاعر في وصفها هي دنيا كحية تنفث السم
وان كانت المجسة لانت فكما لا يجوز للجاهل بالرقية عند العارف بنفع الحية ان
ان يقتدي بالراقي في تناول الحية والتصرف فيها كذلك لا يجوز للجاهل ان يقتدي بالحكيم
في تناول اعراض الدنيا وكما انه محال ان يسلك الاعمى طريقا وعرا يسلكه البصير من غير
قايد اذ هو غير آمن من ان يقع في هوة فيه فكذلك محال ان يسلك مستبدا بذاته في
تناول اعراض الدنيا طريقا يسلكه الحكيم العالم اذ هو غير آمن من ان يقع في هاوية
واتلفها فالدنيا آنية رعناء كما قال الشاعر شبه الغانيات فيها ولا ادري
لذا انث اسمها الناس ام وكما ان الغانية لا يجوز ان يدخل عليها ويخلو بها من الرجال
الا من كان محبوبا يؤمن عليها كذلك الدنيا لا يجوز ان يتمكن منها الا المطبوع منها بالعفة

والزهد لئلا تغره وذلك كامير المؤمنين علي رض حيث قال يا حمرا يا بيضا احمري وابيضي
وغري غيري هذا جناي وخياره فيه اذ كل جان يده الى فيه ومن تصور ذلك علم ان الله ٢
قد اباح الدنيا كلها لاوليائه علما منه انهم لا يتناولونها الا على ما يجب وكما يجب واذا
تناولوها وضعوها كما يجب وحيث ما يجب وعلى هذا قال ان الارض لله يورثها من
يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقال ان الارض يرثها عبادي الصالحون الى
غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها **ما ينال ارباب الدنيا** من العقوبات الدنيوية لله
عز وجل عقوبتان في عقوبة من تناول ما لا يجوز تناوله من الدنيا او تناوله من الوجه
الذي يجوز له لكنه لم يوف حقه احدى العقوبتين ظاهرة للبصر والبصيرة وذلك
عقوبة من غصب مالا مجاهرة او سرقه خفية وكمن منع حق الله تعالى من الزكوة فان عقوبة
ذلك ظاهرة امر السلطان باقامتها والثانية خفية عن البصر يدركه بصاير اولي الالباب
كعقوبة من تناول مالا من حيث لا يجوز تناوله او منعه من حيث لا يجوز منعه لا على وجه
فيه حد امر السلطان باقامته لهذا عقوبته ما روي ايما عبد سكن قلبه حب الدنيا
ابتلي بثلث شغل لا يبلغ مداه او فقر لا يدرك غناه وامل لا يدرك منتهاه وما قال
من كانت الدنيا اكبر همه شتت الله عليه امره وجعل فقره بين عينيه ولم يبال الله
في اي واد من الدنيا اهلكه وعلى ذلك قال تعالى انما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا وتزهق
انفسهم وهم كافرون وقال ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا الاية وليس يعني
قلة المعيشة وانما يعني ما يقاسي فيها من الغموم والهموم التي يكدر العيش عليه **الانفاق
الممدوح والانفاق المذموم** الانفاق ضربان ممدوح ومذموم فالممدوح منه ما
يكسب صاحبه العدالة وهو بذل ما اوجبت الشريعة بذله كالصدقة المفروضة
والانفاق على العيال وهو من الزمت الشريعة الانفاق عليه ومنه ما يكسب صاحبه الحرية
وهو بذل ما ندب الشريعة الى بذله فهذا يكتسب من الناس شكرا ومن ولي النعم اجرا

والمذموم ضربان افراط وهو التبذير والاسراف وتفريط وهو التقتير والامساك
وكلاهما يراعى فيه الكيفية والكمية فالتبذير من جهة الكمية ان يعطى اكثر مما يحتمله حاله
ومن جهة الكيفية فبان يضعه في غير موضعه والاعتبار فيه بالكيفية اكثر منه بالكمية
فرب منفق درهما من الوف وهو في الفاقة مسرف وببذله مفسد ظالم كمن اعطى فاجرة
درهما او اشترى خمرا ورب منفق الوفا لا يملك غيرها هو فيها مقتصد وببذلها متحمد
كما روي في شأن الصديق رضي الله عنه وقد قيل لحكيم متى يكون بذل القليل اسرافا والكثير اقتصادا
قال اذا كان بذل القليل في باطل وبذل الكثير في حق والتقتير من جهة الكمية ان ينفق
دون ما يحتمله حاله ومن حيث الكيفية ان يمنع من حيث يجب ويضع حيث لا يجب
والتبذير عند الناس احمد لانه جود لكنه اكثر مما يجب والتقتير بخل والجود على كل حال
احمد من البخل لان رجوع المبذر الى السخاء سهل وارتقاء البخيل اليه صعب ولان المبذر
قد ينفع غيره وان اضر بنفسه والمقتر لا ينفع غيره ولا نفسه على ان التبذير في
الحقيقة هو من وجه اقبح اذ لا اسراف الا وبجنبه حق مضيع ولان التبذير يؤدي بصاحبه
الى ان يظلم غيره ولهذا قيل الشحيح اعذر من الظالم لانه جاهل بقدر المال الذي
هو سبب استبقاء النفس والجهل راس كل شر والمتلاف ظالم من وجهين لاخذه
من غير موضعه ووضعه في غير موضعه ولكثرة مقام الاسراف ذمه الله تعالى
اعظم مما ذم به البخل فقال ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين الآية
قال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط الآية اي فتقعد ملوما من جهة من
سألك فلم تجد ما تعطيه وحسيرا عن بلوغ مرامك وبهذا الم المتنبي فقال
فلا تبخل في المجد مالك كله فيبخل مجد كان بالمال عقده فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده وليس الاسراف متعلقا بالمال فقط بل بكل شيء وضع
في غير موضعه اللائق به الا ترى ان الله تعالى وصف قوم لوط بالاسراف لوضعهم البذر

في غير المحرث فقال انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون
ووصف فرعون بقوله انه كان عاليا من المسرفين وقوله ان فرعون لعال في الارض
الى قوله وانه لمن المسرفين **حقيقة السخاء** والجود والشح والبخل السخاء هيئة للانسان
داعية الى بذل المقتنيات حصل معه البذل او لم يحصل وذلك خلق ويقابله الشح والجود
بذل المقتنى ويقابله البخل هذا هو الاصل وان كان قد يستعمل كل واحد منهما في موضع
الآخر ويدل على صحة هذا الفرق انهم جعلوا الفاعل في السخاء والشح على بناء الافعال
الغريزية فقالوا شحيح وسخي وقالوا جواد وباخل واما قولهم بخيل فمعدول من لفظ
الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم ولكون السخاء غريزة لم يوصف الباري سبحانه وتعالى
به وقد عظم الله الشح وخوف منه ولهذا قال عم ثلث مهلكات شح مطاع وهوى
متبع واعجاب المرء بنفسه فخص المطاع لينبه ان وجود الشح في النفس ليس مما يستحق
به الذم اذ ليس هو من فعله وانما يذم بالانقياد له وقال تعالى ومن يوق شح نفسه وقال
واحضرت الانفس الشح وقال النبي صم لا يجتمع شح وايمان في قلب عبد واحد **فضيلة
الجود وذم البخل** الجود على السنة الورى محمود ولذلك قيل كفى بالجود حمدا ان اسمه مطلقا
لا يقع الا في حمد وكفى بالبخل ذما ان اسمه مطلقا لا يقع الا في ذم وقيل لحكيم اي فعل
البشر اشبه بفعل الباري تعالى فقال الجود وقال عم الجود شجرة من اشجار الجنة من اخذ بغصن
من اغصانها اداه الى الجنة والبخل شجرة من شجر النار من اخذ بغصن من اغصانها اداه
الى النار ومن شرفه ان الله عز وجل قرن ذكره بالايمان ووصف اهله بالفلاح والفلاح
اجمع اسم لسعادة الدارين فقال الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون
الى قوله هم المفلحون وقال ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وحق الجود ان يقترن
بالايمان فلا شيء اخص به واشد مجانسة له فمن صفة المؤمن انشراح الصدر كما قال
فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام الآية وهما من صفة الجواد والبخيل لان الجواد يوصف

بسعة الصدر للانفاق والبخيل يضيق الصدر للامساك وقال النبي عم اي داء ادوى من البخل
ولان البخل بلثة اضرب بخل الانسان بماله وبخله بمال غيره على غيره وبخل على نفسه بمال غيره
وهو اقبح الثلثة والباخل بما في يديه باخل بمال الله على نفسه وقد تقدم ان المال عارية
في يد الانسان مسترده ولااحد اجهل ممن لاينقذ نفسه من العذاب الدائم بمال غيره
سيما اذا لم يخف من صاحبه تبعة ولا غائلة ولا ملامة والكفالة الالهية متكفلة بتعويض
المنفق فقد قال عم اللهم عجل للمنفق خلفا وعجل للممسك تلفا وقال ان الله عز وجل
ينزل المعونة للعبد على قدر المؤنة وقد روي من وسع وسع عليه **انواع الجود و
المجود به** الجود خمسة اضرب جود الالهية وهو البذل لكل احد على قدر استحقاقه وجود
الملوك وهو بسط المال على العفاة غنيهم وفقيرهم وجود السوقة اي الذين هم دون
الملوك وهو بذل المال للسؤال وجود الصعاليك وهو البذل للندامى والمعاشرين والشرب
وجود عوام وهو الاحسان الى الاقارب والمحمود من ذلك كله الجود الالهي وهو بذل الموجود
بقدر الطاقة لكل محتاج بقدر استحقاقه من غير امتنان ولا تاذي به فالمعطي ما تحتاج
اليه لمن لا يحتاج اليه مسرف مضيع والمعطي غيره شيئا لرهبة واق نفسه والمعطي
لرغبة في مثوبة او لمحمدة دينونه فتاجر وقول ابي نواس حيث قال **شعر**
فتى يشتري حسن الثناء بماله • ويعلم ان الدايرات تدور فليس بسائغ في الوصف بالجود
التام بل وصف بتجارة محمودة واحسن منه قول ابن الرومي وتاجر البر لا يزال له •
ريحان في كل متجر تجر • اجر وحمد وانما طلب • الاجر ولكن كلاهما عثور • وقد
اجاد بشار في قوله • ليس يعطيك للرجاء وللخوف • ولكن يلذ طعم العطاء •
الفصل السابع في ذكر الافعال انواع الافعال الافعال ضربان الهي
وانساني فالالهي اربعة اضرب ابداع وتكوين وتربية واحالة وجميع ذلك
يسمى خلقا حيث كان يوجد كل واحد بمقدار الخلق في الاصل التقدير المستقيم

فالاول الابداع وهو ايجاد الشيء دفعة لا عن موجود ولا بترتيب ولا عن نقص الى كمال
وليس ذلك الا للباري سبحانه وتعالى وان كانت العرب قد يستعمل الابداع فيمن يحدث بئرا
في مكان لم يحفر فيه من قبل وفيمن ينسج شعرا او قولا كلاما لم ينسج على منواله من
قبل والثاني التكوين وهو ايجاد الشيء عن عدم بترتيب وعن نقص الى كمال و
المتكلمون قد يستعمل التكوين في موضع الابداع ولما هفوا عن حقيقة التكوين
انكروا واستشنعوا قول من قال السماء ليست بمكونة وقدروا انه يقول ليست بمبدعة
ولا مخلوقة وانما اراد هذا القايل فيما ذكره اصحابه ودل عليه كلامه ان الله تعالى
ابدعها ابداعا كما قال بديع السموات والارض ولم يخلقها خلقة ناقصة في ابتداء
نشاتها ثم كملها شيئا فشيئا كالانسان والحيوان والنبات والثالث ربّ الشيء
وهو تغذيته وذلك استخلاف ما يتحلل من ابدان فيما وجد عن كون ليبقى المدة المضروبة
له وبه قيل له تعالى رب العالمين والرابع احالة الشيء وهو التغايير اللاحقة للكاينات
في كيفيتها من طعم ولون ورايحة والفعل الانساني بلثة اضرب نفساني فقط وهو الافكار
والعلوم وما ينسب الى افعال القلوب وبدني وهو الحركات التي يفعلها الانسان
في بدنه كالمشي والقيام والقعود وصناعي وهو ما يفعله بمشاركة البدن والنفس
كالحرف والصناعات **الفرق** بين العمل والفعل والصنع الفعل لفظ عام يقال
لما كان بإجادة او بغير اجادة ولما كان بعلم او بغير علم وعن قصد او غير قصد
ولما كان من الانسان والحيوان والجمادات واما العمل فانه لا يقال الا لما
من الحيوان دون ما كان من الجمادات ولما كان بقصد وعلم دون ما لم يكن عن قصد
وعلم قال بعض الادباء العمل مقلوب عن العلم فان العلم فعل القلب والعمل فعل الجوارح
وهو يبرز عن فعل القلب الذي هو العلم ينقلب عنه واما الصنع فانه يكون من الانسان
دون ساير الحيوان ولا يقال الا لما كان باجادة ولهذا يقال للحاذق المجيد وللحاذقة

بلافكر

المجيد. صنع وصناع والصنع قد يكون بلافكر لشرف فاعله والفعل قد يكون
لنقص فاعله والعمل لا يكون الا بفكر لتوسط فاعله والصنع اخص المعاني الثلاثة والفعل
اعمها والعمل اوسطها فكل صنع عمل وليس كل عمل صنعا وكل عمل فعل وليس كل فعل عملا
وفارسية هذه الالفاظ تنبئ عن الفرق بينها فانه قيل للفعل كار وللعمل كردار وللصنع
كنش **انواع الصناعات** الصناعات ضربان علمي وعملي فالعلمي ما يستغنى فيه
عن الاستعانة بالجوارح من اليد والرجل كالمعارف الالهية والحساب والعملي ما يحتاج فيه
الى الاستعانة بالجوارح وذلك ضربان الاول شيء ينقضي بانقضاء حركة الصانع كالرقص
والزمر والمحاكاة والثاني شيء يبقى له اثر وذلك ضربان ضرب يبقى له اثر معقول لا محسوس
كالطب والبيطرة وضرب يبقى له اثر محسوس كالبناء والكتابة **الافعال الارادية** وغير
الارادية الافعال التي تظهر من غير الله اما تسخيرية واما غير تسخيرية فالتسخيري هو
الذي يظهر ممن يظهر منه لا بقصد وارادة منه وقد يكون ذلك من الجماد والحيوان غير الناطق
وذلك نوعان نوع بتسخير الباري تعالى كاحراق النار والحديد وتبريد الثلج الماء وضرب
بتسخير البشر كطحن الرحا ودور الدولاب واما غير التسخيري فضربان ضرب يكون
من فاعله مبدا الارادة وضرب لا يكون منه مبدا الارادة والذي منه مبدا الارادة ثلاثة
الاول بحسب التمييز كمن تناول الخير دون الشر مؤثرا له الثاني بحسب الغضب كمن
يبطش بمن يغضب عليه الثالث بحسب الشهوة كمن تناول ما اشتهاه لشهوته والذي
لا يكون منه مبدا الارادة فضربان ضرب لا يكون منه مبدا الارادة ولا منتهاها
كمن رمى الى غرض فاصاب شخصا وضرب لا يكون منه مبدا الارادة ولكن يكون منه
منتهاها كمن حصل في سفينة في الغرق فكلف ان يلقي متاعه في البحر ليتخلص
والافعال من الجمادات تقع بالتسخير فقط ومن النبات تقع بالتسخير وبالنزاع
الذي يقتضيه القوة الشهوية ومن الحيوانات تقع بها وبالغلبة التي يقتضيه القوة

الغضبية ومن الانسان يكون بكل ذلك وبالفكرة التي يقتضيها القوة العقلية
ما يستحق به من الافعال اللوم وما لا يستحق به ذلك الافعال ضربان ارادي وغير ارادي
فالارادي ضربان ضرب عن روية وضرب لا عن روية فالذي عن روية ضربان
احدهما الذي عن روية فقط في غاية الشرف وهو ما يكون بحسب النفس الناطقة ويسمى
الاختيار وهو طلب ما هو خير له ويستحق به ابدا الحمد اذا كان على الحقيقة اختيارا والثاني
عن روية فيما ليس هو في غاية الشرف وذلك اما بحسب القوة الغضبية وهو دفع ما يضره
واما بحسب القوة الشهوية وكل واحد منهما اذا كان بقدر ما يوجبه العقل يستحق به الحمد
واذا كان زائدا او ناقصا عما يوجبه العقل يستحق به الذم والارادي الذي عن روية واختيار
ضربان احدهما ما يفعله في نفسه والثاني ما يفعله لغيره وكل واحد منهما ضربان نفع وضر
فما قصد به نفع نفسه فقد يستحق به الحمد وما قصد به نفع غيره فقد يستحق به
الحمد والشكر معا وما قصد به ضر نفسه فقد يستحق به الذم وما قصد به ضر غيره
فقد يستحق به الذم والعتب عليه وغير الارادي ثلاثة اضرب الاول ان يكون قسرا
وهو ما يكون مبداه من خارج ولا يكون من ارادته معونة بوجه كمن دفعته ريح فسقط
على آنية فكسرها فلا ملامة فيه بوجه والثاني ان يكون الجاء كمن اكرهه سلطان
على ان يفعل فعلا ما وهذا من كان الملجأ اليه قبيحا جدا والسبب الملجئ اليه خفيفا
يستحق مرتكبه الذم كمن يضرب ليقتل انسانا ومن كان الملجأ اليه ليس قبيحا جدا
والسبب الملجئ اليه عظيما لا يستحق مرتكبه الذم كمن يوضع على حلقه السيف ويهدد
بان يقتل ان لم يتكلم بكلام قبيح وكلاهما يقال له الاكراه والثالث الخطاء وهو ما يكون
مبداؤه من صاحبه وذلك نوعان احدهما ما تولد عن فعل وقع منه وله ان يفعل
كمن يرمي هدفا فاصاب انسانا وذلك لا يستحق به ملامة ما لم يقع من صاحبه تقصير
في الاحتراز والثاني ما يتولد عن فعل ليس له ان يفعله كمن شرب فسكر فحمله سكره

كسر اناءً او ضرب انساناً فان ذلك يستحق الملامة وان لم يرد كسر الاناء وضرب الانسان
فقد ارتكب محظوراً ادى به الى وقوع ذلك منه فالضرب الاول يقال فيه اخطأ فهو مخطئ
والثاني يقال فيه خطئ فهو خاطئ ولهذا قال اهل اللغة خَطِئَ ما كان على سبيل العمد
واخطأ ما كان على سبيل السهو **الاسباب التي** يمكن نسبة الفعل اليها اكثر الاسباب
التي يحتاج اليها الفعل في وجوده عشرة اشياء يحتاج في حصوله الى فاعل يصدر عنه
الفعل كالنجار والى عنصر يعمل فيه كالخشب والى عمل كالنجر والى زمان والى مكان يعمل فيهما
والى آلة يعمل بها كالمنجر والمنحت والى غرض قريب كاتخاذ النجار الباب والى غرض بعيد
كتحصين البيت به والى مثال يعمل عليه ويحتذى به والى مرشد يرشده وكل ذلك
قد ينسب اليه الفعل فيقول اعطاني زيد اذا باشر الاعطاء واعطاني الله
لما كان هو الميسر له وربما جمع بين السبب القريب والبعيد فيقول اعطاني الله
قال الشاعر: حبانا بها جدنا والاله وضرب لنا جد من مصايب فنسب الى السبب
الاول وهو الله تعالى والى السبب المتأخر وهو الاقرب والى المتوسط وهو الجد وقال تعالى
الله يتوفى الانفس حين موتها وقال قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم
ترجعون فاسند الفعل في الاول الى الآمر به وفي الثاني الى المباشر له وقد قال الشاعر
في صفة درع داسنيه العالكي وقال كساهم محرق فنسب الفعل الى عاملها وفي الثاني
الى مستعملها وقال في صفة نبالة كستها ريشها مضرحية فنسب كسوتها الى
الطاير الذي اخذ ريشه فجعل لها وقد قيل يداك اوكتا وفوك نفخ فنسب الفعل
الى الآلة المتصلة ويقال سيف قاطع فنسب الى الآلة المنفصلة وقيل ضرب
فيصل وفاصل وطعن جائف فنسب الى الجوف وقيل سر كاتم وعيشة راضية
فنسب الى المفعول وقال حرماً آمناً فنسب الى المكان وقيل يوم صائم وليل ساهر
قال وما ليل المطي بنائم فنسبه الى الزمان فلما كانت افعالنا على ذلك صح

في الفعل الواحد ان يثبت لاحد الاسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين على ذلك
قول الشاعر: اعطيت من لم تعطه ولو انقضى حسن اللقاء حرمت من لم تحرم فاثبت له
الفعل ونفاه عنه بنظرين مختلفين ويقال هذا الخشب قطعته انا لا السكين ويقال
قطعه السكين ولم اقطعه ويقال فلان هداه الله وهداه الرسول وهداه القرآن وهداه
فهمه فينسب الى كل ذلك ويقال اضله الله لما كان تعالى هو السبب الاول في وجوده ووجود
سبب المضل ووجود الآلة فان لم يكن هو تعالى الداعي الى الضلال واضله نفسه لما كانت
هي التي تركت الاحتراز وهذا فصل من تصوره لم يعتمد في تثبيت المعاني على مثلات من
الالفاظ فينظر من اللفظ الى المعنى بل ينظر في نحو هذا من المعنى الى اللفظ واعلم ان من اجل
هذا الذي قدمنا قال قوم من المحققين لا شيء من الافعال فاعله واحد على الحقيقة الا
الله تعالى فان فعله يستغني عن المكان والزمان والآلة والمادة وعن مثال يحتذيه ومن
عداه تعالى من الفاعلين لا بد له من كل ذلك او من بعضه ولهذا لا يصح ان ينسب الابداع
الى غيره لا حقيقة ولا مجازاً ويصح ان يثبت فعل غير الله على ما تقدم قال الشيخ ابو القاسم
الراغب رحمه الله هذا آخر ما قصدت تبيينه من هذا المعنى واختم القول بحمد الله والثناء عليه
والتضرع اليه في ان ينفعني واخواني مما حررته وان يجعلني ممن يتذكر فيذكر ويتبصر فيبصر
فاتعظ ووعظ وتيقظ فايقظ فاعظم المحنة ان يأمر من لا يأتمر ويزجر من لا ينزجر
وان يدعي الحكمة من اذا بلغته المحاسن لا يجتنيه واذا بلغته المساوي لا يجتويه ترك
القذاة في عيون اخوانه فينكرها ويترك الجذع المعترض في اجفانه لا يغيره ينصح غيره
ويغش نفسه كمن كسى الناس من عري وعورته للناس بادية ما ان يواريها وكالمسن
الذي يشحذ الحديد ولا يقطع وكالحجر الصلد الذي يمر به الماء النافع فلا ينتفع هو به
وقد قال عليه السلام ان الله يؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم ونرغب الى الله تعالى ان يجعلنا
برحمته ممن ائتمر لنبيه عليه السلام حيث قال اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك

وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحيوتك قبل موتك فاني
في القيمة الحسرة والندامة ان لم يتغمدني الله برحمته التي وسعت كل شيء
فسهل يا رب الجواز المجاز وسهل الجواز فقد حان حصادي ولم
يصلح فسادي وصل على خاتم النبيين محمد واله العمد واجعلني
من الشافعين كمل كتاب الذريعة الى مكارم
الشريعة بحمد الله ومنه وجميل صنعه
وعونه وتوفيقه
واعانته